بريمو ليفي

هل هذا هو الإنسان؟

مكتبة علاء الدين

Éditions
Le Manuscrit

12605

بريمو ليفي

هل هذا هو الإنسان؟

بريمو ليفي

هل هذا هو الإنسان؟

بريمو ليفي... الرجل الذي نزل إلى الجحيم ورأى، ثم عاد ليخبرنا. عاد ليشهد...

بريمو ليفي كان كيماوياً من حيث مهنته. حارب في صفوف حركة المقاومة الإيطالية ضد نظام الحكم الفاشي. وقد ألقي القبض عليه من قبل قوات الأمن الفاشية, وبعد احتلال إيطاليا من قبل الألمان, نقل مع يهود آخرين إلى معسكر الإبادة آوشفيتس. واكتشف بأمّ عينيه تلاشي الإنسانيّة... لقد عاش بجسده ووجدانه فظائع البربريّة النازيّة، في أشهر معسكرات الإبادة. كُتب له أن ينجو من المحرقة، فيقف متفرَّجا على جحافل البشر تُساق إلى غرف الغاز. وقد وصف لاحقاً آلية اختيار الضحايا، بدقة متناهية، في شهادة تعتبر من كلاسيكيات أدب الذاكرة، ومن أهم الوثائق الحيّة على المحرقة: «هل هذا هو الإنسان؟»

17,90 €
ISBN : 978-2-304-02570-5
ISBN 13 : 9782304025705

مكتبة علاء الدين
www.aladdinlibrary.org

Éditions Le Manuscrit
www.manuscrit.com

هل هذا هو الإنسان؟

بريمو ليفي

هل هذا هو الإنسان؟

المترجم
سالم جبران

مكتبة علاء الدين

Éditions Le Manuscrit

مكتبة علاء الدين

Bibliothèque Aladin

Aladdin Library

www.aladdinlibrary.org

©Document D.R

© Éditions Le Manuscrit, 2009
www.manuscrit.com
ID Ouvrage : 12605 (A)
ISBN : 978-2-304-02570-5 (livre imprimé)
ISBN 13 : 9782304025705 (livre imprimé)
ISBN : 978-2-304-02571-2 (livre numérique)
ISBN 13 : 9782304025712 (livre numérique)

مكتبة علاء الدين الالكترونية

"خير جليس في الأنام كتاب". إنها حكمة عالمية تختصر في أحرفها مجمل الثقافات والحضارات الإنسانية. منذ اكتشف الإنسان القراءة والكتابة، ساعده الكتاب على التفاعل مع الآخرين بأفكاره ومشاعره وقلقه وفرحه، وأيضًا عمل بفضل تلك المشاركة على تقدم علم المعرفة.

هذا ما تصبو إليه مكتبة علاء الدين عندما تقوم بترجمة العديد من الكتب في مجالات الثقافة الإنسانية.

إنّ هدف مكتبة علاء الدين الوصول إلى ضمير كل قارئ لتنير على مجالات الحوار لتمكين العقل والمحبة من التغلب على العصبية والجهل.

وباكورة منشورات مكتبة علاء الدين هو كتاب ينير في طياته على صفحات مظلمة لتاريخ الانسانية، تاريخ السفالة والمرارة وما أعني به هو كتاب إبادة اليهود.

إنّ اللجنة العلمية لمكتبة علاء الدين المكونة من مفكرين في مختلف الثقافات وبمشاطرتها القيم المرتكزة على علم المعرفة واحترام الآخر، برفضها النزاعات التذكرية والسلبية المعتقدية، تطمح الى العمل على نشر معرفة أفضل لثقافاتنا المشتركة والمميزة وخاصة المتعلقة بالثقافتين الاسلامية واليهودية.

جاك أندريانى

سفير فرنسا

رئيس اللجنة العلمية لمكتبة علاء الدين الألكترونية.

نبذة مختصرة عن حياة المؤلف

بريمو ليفي (1919- 1987), من مواليد مدينة تورينو في شمال إيطاليا, كان كيماوياً من حيث مهنته. حارب في صفوف حركة المقاومة الإيطالية ضد نظام الحكم الفاشي. وقد ألقي القبض عليه من قبل قوات الأمن الفاشية, وبعد احتلال إيطاليا من قبل الألمان, نقل مع يهود آخرين إلى معسكر الإبادة آوشفيتس – بيركناو. وقد راودته التجارب التي مرّ بها في هذا المعسكر طوال حياته, حتى قرر, بعد الحرب, تدوين بعضها في مؤلفات أدبية كتبها. وأحدثت القوة الكامنة في مؤلفاته انفعالاً شديداً لدى العديد من الناس في مختلف أنحاء العالم. "هل هذا هو الإنسان" – هو باكورة نتاج بريمو ليفي. وفي عام 1987 أقدم بريمو ليفي على الانتحار.

مقدمة المؤلف

لحسن حظي، أني أُرسلت إلى اوشفتس فقط في عام 1944. في ذلك الوقت تفاقم النقص في الأيدي العاملة، ولذلك قررت حكومة ألمانيا أن تطوِّل عمر الأسرى الذين حُكِم عليهم بالإبادة. حسّنوا شروط الحياة وأوقفوا، مؤقتاً، تنفيذ الإعدام الذي جرى بقساوة قلب.

لذلك، لا يضيف كتابي شيئاً لما هو معروف للقراء. في أنحاء العالم، حول الأعمال الفظيعة التي جرت، وحول الموضوع المثير للصدمة والرعب: معسكرات الإبادة. لم يُكتب هذا الكتاب لإثارة اهتمامات جديدة. ربما يكون في مقدوره أن يضيء زوايا خفية معينة في نفس الإنسان حتى يفهمها. عند أناس كثيرين وحتى لدى شعوب بكاملها، يوجد على حدود الوعي شعور بأن "كل غريب هو عدو". على الغالب، هذا الانطباع موجود في خبايا النفوس مثل التهاب ملوث لم ينتشر. ومن مدة إلى أخرى ، يبرز في أعمال بالصدفة، وغير مثابرة وليست مصدراً لتفكير منهجي. ولكن عندما يتحول "الايمان" الخفي إلى تفكير منهجي، لمبدأ مركزي، لجهاز الاستنتاجات المنطقية، في آخر السلسلة يظهر معسكر الاعتقال . إنه نتاج وجهة نظر عن العالم جرى تطويرها حتى استنتاجها النهائي، في مثابرة مطلقة. ما يجب معرفته. ما دام تفكير كهذا قائماً، فإن نتائجه تهددنا. كل بني البشر يجب أن يروا في تاريخ معسكرات الاعتقال إشارة تحذير للخطر القائم في الأفق.

أنا أُدرك نواقص مبنى الكتاب وأرجو التعامل مع ذلك بالصفح إن لم يكن عملياً. فعلى الأقل واقعياً. فقد وُلد الكتاب في المعسكر. الحاجة إلى كتاب للآخرين، لإشراك "الآخرين" كان بالنسبة لنا، سكان المخيم. حاجة حيوية، حتى قبل التحرر وبعده. لقد تغلب هذا على كل احتياجاتنا الأساسية الأخرى. لقد وضع الكتاب للإجابة على هذه الحاجة. أولاً وقبل كل شيء هدف إلى التحرير الداخلي. من هنا

طابعه المتقطع، الفصول لم تُكتب طبقاً لسياق منطقي. بل طبقاً للإحساس بأنه مستعجل. التحرير جرى بشكل مدروس، فيما بعد. يخيل إلي أنه مسموح أن أضيف أن أياً من الأعمال المذكورة ليس وليد الخيال.

بريمو ليفي

هل هذا هو الإنسان؟

أنتم الجالسون، بلا خوف

في المساكن الآمنة

أنتم الذين تجدون طعاماُ حاراً ووجه صديق

عندما تعودون إلى البيت، مع الغُيّاب

تأملوا وانظروا هل هذا هو الإنسان

الذي يعمل في المستنقع البارد

هو الذي لا يعرف راحةً، ويصارع

من أجل لقمة خبز صغيرة

والذي على قول "نعم" أو "لا" يصبح ميتاً.

تأملوا وانظروا هل هذه هي امرأة

بيت بلا اسم وبلا شَعر

لم تبق فيها قوّة للتذكر

عيناها فارغتان وحلقها بارد

مثل ضفدعة في يوم شتائي متجمد

فكروا وتذكروا أن كل هذا حدث

وكانت هذه الأمور

التي أنا آمركم

أن تحفروها في قلوبكم.وأنتم جالسون في البيت، وأنتم في الطريق

وأنتم جالسون وأنتم واقفون

ويضربكم المرض، من كف الرجل إلى الرأس

ويدير إليكم الظهر نسْلكم أيضاً.

الرحلة

الكتائب الفاشية ألقت القبض عليّ في الثالث عشر من كانون الأول (ديسمبر) 1943، وأنا في الرابعة والعشرين، وصاحب خبرة في الحياة ضئيلة جداً. العزلة والانقطاع اللذان فُرِضا علي بفعل القوانين العرقية الفاشية، طورت فيَّ ميلاً واضحاً للحياة في عالم خيالي بنيته لنفسي. في هذا العالم، سكنت أرواح الأشباح الهادئة والمتعفنة، ورفاق شجعان من أبناء جنسي وقليل من النساء اللواتي عرفتهن معرفة طفيفة، وطورت في داخلي شعور تمرد معتدل وغامض.

القرار بالهروب إلى الجبال، مع عدد من الرفاق قليلي الخبرة مثلي، لم يكن سهلاً. كان في نيتنا أن نؤسس عصبة من المقاومين، تنتسب إلى حركة الانتفاضة 'Giustizia e Libertà' (العدل والحرية) ولكن لسوء طالعنا، لم ننجح في إقامة اتصال مع مجموعات أخرى، ولم يكن سلاح في حوزتنا، ولم يكن معنا المال والشجاعة للحصول عليه. لم ينقصنا أناس شجعان وذوو مقدرة، بالعكس، كان حولنا أناس كثيرون، منهم أصحاب إرادة جيدة ومنهم زارعو شر، وقد تدفقوا من السهول إلى الجبال لكي يجدوا أطراً لم يكن لها أساس. بحثاً عن قادة وسلاح ودفاع ومخبأ وناراً تدفيء أو ببساطة زوجاً من الأحذية.

في تلك المرحلة لم أكن قد تعلمت، بعد، ما تعلمته فيما بعد بسرعة في المخيم وهو: أن لا يسعى الإنسان أبداً للحصول على أهدافه فقط بالطرق المناسبة، فمن يخطيء يدفع الثمن كاملاً. لذلك لست قادراً أن لا أعترف أننا كنا جديرين بما حدث لنا بعد ذلك. ثلاث مجموعات فاشية تحركت في قلب الليل حتى تقبض على مجموعة أخرى، أكثر قوة وخطورة من مجموعتنا اختبأت في الوادي قريباً منا. واندفعوا إلى قلب مخبأنا مع طلوع الفجر، في ساعة مثلجة ومحاطة بظل الموت وقادونا إلى السهل.

في التحقيقات، فضّلت أن أعلن هويتي : "مواطن ايطالي من عنصر يهودي". كنت مقتنعاً أنني إذا لم أعترف بذلك فلن أنجح في تبرير وجودي في الجبال، مكان بعيد وعالٍ من أن يكون ملجأ "لضحايا القصف". اعتقدت (خطأً، كما تبين لي فيما بعد) أنني إذا اعترفت بعملي السياسي، يقيناً سوف يعذبونني فوراً، حتى الموت، وعندما تبين لهم أنني يهودي أُرسلت إلى بوسولي قرب مودينا. كان هذا معسكر اعتقال كبير. أُعِّد لاستيعاب أسرى الحرب الإنجليز والأمريكيين، ولكنه استوعب أناساً مختلفين لم يكونوا مرغوبين للحكومة الفاشية التي كانت قد تأسست قبل مدة قصيرة.

عندما وصلت، في نهاية كانون الثاني 1944 ، كان في المعسكر مئة وخمسون يهودياً طليانياً، ولكن بعد عدة أسابيع وصل عددهم إلى ست مئة. على الغالب، كانت هناك عائلات بكاملها سقطت في أيدي النازيين أو الفاشيين لأنهم لم يحافظوا على أنفسهم أو لأن أحداً ما وشى بهم. كان أيضاً بعض من سلموا أنفسهم للقتلة، بخاطرهم ، لأنهم ماتوا جوعاً. وهناك من أتوا بدافع اليأس، لأنهم سئموا حياة المطاردة أو لم يريدوا أن يفترقوا عن أقاربهم. لشدة السخرية، كان هناك أيضاً من أرادوا، سبحان الله!، "ملتزمين بالقانون". كان في المعسكر أيضاً، حوالي مئة جندي يوغوسلافي. أسرى وعدة مواطنين من الخارج غير مرغوبين للنظام من الناحية السياسية.

ظهور قوة صغيرة من رجال الأس.إس. كان يجب أن يثير الاستغراب أيضاً في قلوب الأكثر تفاؤلاً. ومع هذا نجح الجميع في التفسير، بهذا الشكل أو ذاك، لظهورهم بدون استخلاص العبرة الأكثر قبولاً منطقياً، ولذلك كان الطرد أشبه برعد في يوم عادي.

في 20 شباط/ قام الألمان بمراقبة دقيقة في المعسكر. فوجهوا إلى القوميسار الايطالي-اتهامات قاسية. وتذمروا حول التنظيم السيء للمطبخ، وحول الكمية القليلة من الأخشاب التي جرى توزيعها للتدفئة. وحتى قالوا إنه سوف تعمل بسرعة عيادة. ولكن في صباح الحادي والعشرين، تبين أنه في اليوم التالي سيترك اليهود المخيم،

كلهم، بلا استثناء، أيضاً الأطفال والكهول والمرضى-خرجوا إلى جهة غير معروفة. يجب الاستعداد للسفر خمسة إلى عشرة أيام. مقابل كل شخص لا يقف في طابور الخروج، يُقتل عشرة أشخاص.

فقط في قلوب الساذجين وبعض الواهمين استيقظت الآمال الزائفة: كلنا تحدثنا طويلاً مع لاجئين بولونيين وكرواتيين وعرفنا ما معنى "أن نستعد للسفر".

إنه تقليد التعامل مع المحكومين بالموت في طقس احتفالي، هذا التقليد هدفه الإظهار أنهم لم يعودوا يتعاملون معهم بغضب. ولا يظهرون تجاههم أي شعور. والعمل العادل هو واجب مؤلم للمجتمع. لهذا، حتى من ينفذ حكم الموت يمكنه أن يحس مدى معين من الرحمة تجاه الضحية. لذلك لا يعاملون المحكوم بالإعدام ضد رغبته، يسمحون له أن يعتزل، يقدمون له عزاء وصدقة روحانية. وحسب المطلوب، يحاولون، قدر الإمكان، أن لا يحس أنهم يعاملونه بكراهية أو بفظاظة، إلاّ بسبب إلزاميات الظروف، بحيث يحس أنهم مع تنفيذ العقاب أيضاً يغفرون له أعماله السيئة

ولكن لنا لم يعطوا كل هذا، لأننا كنا كثيرين والوقت يضغط، وأكثر من هذا: علام كنا يجب أن نكفِّر، عمّ كانوا يجب أن يغفروا لنا؟

القوميسار الايطالي قرر أن كل الخدمات يجب أن تعمل، كالمعتاد، حتى موعد الخروج النهائي. لذلك واصلوا العمل في المطبخ، أعمال التنظيفات استمرت كالمعتاد، وحتى معلمو المدرسة الصغيرة علموا في المساء، كالمعتاد ولكن لم يعطوا للأولاد دروساً بيتية لليوم التالي.

أسدل الليل ستاره، ليل العتمة والرعب، وعينا الإنسان الذي رأى في تلك الليلة، لم تعودا بحاجة إلى الانفتاح والرؤية، بعد. كلهم أحسوا هكذا، ولا واحد من الحراس، الطليان والألمان، تجرأ أن يأتي ويرى ماذا يفعلون للناس الذين يعرفون أن موتهم قريب.

كل واحد ودَّع الحياة على طريقته. البعض صلّوا. الآخرون شربوا حتى السُكْر، وآخرون غيَّبوا مشاعرهم بشهوة اللحم. الأمهات لم يغمضن عيونهن. بإخلاص

حضّرن الطعام للطريق، وغسلن الأولاد، وأعدوا الحقائب. وفي الصباح علقوا الملابس على الحبال حتى تنشف، ولم ينسين الغيارات للأطفال والألعاب والوسائد ولا تلك الأمور الصغيرة الكثيرة التي تعرف كل أم أن صغيرها سيحتاج إليها. هل كنتم أنتم تتصرفون بشكل آخر ، لو عرفتم أنهم غداً سوف يميتونكم مع أولادكم؟ ألم تكونوا تعطونهم أن يأكلوا أكثر؟

في الصريفة رقم 6. أ سكن غاتبنو الكهل مع زوجته. أبناؤه الكثيرين وأحفاده وكناته النشيطات. في مسارات التجوال الكثيرة دائماً حملوا معهم أدوات العمل والأكورديون، والكمان وأدوات المطبخ. كانوا متعودين أن يعزفوا وأن يرقصوا بعد يوم العمل لأنهم كانوا مؤمنين ومرحين في الوقت نفسه. نساؤهم كن الأوائل أنهين تحضير الصرر للطريق، عملن بصمت وبسرعة حتى يبقى وقت للحداد. عندما صار كل شيء جاهزاً والخبز مخبوزاً والرزم محضرة، خلعوا نعالهن وفردوا شعورهن، ووضعوا على الأرض الشموع (شموع الأبدية) وأضاءوها، حسب تقاليد الآباء، وجلسن يبكين ويندبن، كل الليل صلين وبكين كثيرون منا وقفوا عند مداخل الصرائف، ورويداً رويداً تغلغل إلى نفوسنا شعور جديد بالألم العتيق القديم لشعب لا يعيش في أرضه. ألم الترحال بلا غاية أو هدف وآلام التشرد والترحال التي عاشها كل جيل وجيل.

طلع الفجر مثل عمل خياني. والشمس أشرقت كما لو كانت، هي أيضاً، خليفة للقتلة المصممين على أن يبيدونا. مشاعر مختلفة تفاعلت في قلوبنا. استسلام للأمر. غضب مخنوق. انتظار رحمة من السماء، خوف، يأس. كل هذا تصارع في داخلنا، وكنا كلنا بما يشبه الجنون بعد ليلة أرق. الوقت للتفكير وللقرار تناقص، لم يبق فينا قوة للتفكير، وفقط الذكريات تعاملت في دماغنا وتعزَزت فيه كالحراب. مثل البرق استيقظت الذكريات من البيت، الأمور التي جرت قبل مدة قصيرة في مكان قريب.

أموراً كثيرة قلنا أحدنا للآخر. أموراً كثيرة فعلنا. ولكن من المفضل أن لا يبقى منها بقية، أو ذكر.

الألمان نظموا تفقداً بدقة متناهية. تلك الدقة عديمة المنطق التي بعد ذلك نتعود إليها. في النهاية Wieviel stük?، كم قطعة سأل الضابط. الشاويش وقف بانضباط وألقى التحية وأجاب أنه كان ست مائة وخمسين "عنصر" وكل شيء على ما يرام. وعندها حملونا على الشاحنات وجلبونا إلى محطة قطار كارفي. هنا، انتظر القطار والحرس المرافق: هنا أيضاً تلقينا الضربات الأولى، والأمر كان مفاجئاً، وبلا طعم ، إلى حد أننا لم نشعر بالألم، لا في الجسد ولا في النفس. فقط كنا مذهولين، كيف يمكن توجيه الضرب لبشر، بدون أي سبب يذكر.

كانت اثنتا عشرة قاطرة، وكنا ست مائة وخمسين. في قاطرتي اصطف خمسة وأربعون. ولكن قاطرتنا كانت صغيرة. وهكذا فالأمر واضح. نحن موجودون في أحد قطارات الإرسال الألمانية المشهورة. القطارات والإرساليات التي لا تعود أبداً. القطارات والإرساليات التي سمعنا عنها مرات عديدة، برعب، ولكن دائماً بشيء من الشك. بالضبط، كما قصوا لنا: قاطرات تحميل مختومة من الخارج. في الداخل، نساء، أطفال، ورجال مضغوطون الواحد بجانب الآخر، بلا رحمة. كما في علب السردين: في رحلة إلى العَدَم، في رحلة إلى الفراغ، إلى الأسفل، إلى أسفل الهاوية. هذه المرة نحن في الطريق.

كل البشر يكتشفون في مجرى حياتهم أن السعادة الكاملة ليست ممكنة، ولكن القلائل يفكرون، أيضاً العكس صحيح. الإنسان ليس بإمكانه أن يكون بائساً كلياً. ما يمنع كلتا الحالتين المتطرفتين جوهره واحد: وجودنا الإنساني يناقض الحالة المطلقة. أبداً. لا نعرف ماذا يخبيء لنا المستقبل. في لحظة الحضيض في قلبنا بقية أمل، وفي لحظة السعادة يوجد أيضاً الخوف من الغد. بالإضافة لذلك، كل واحد يعرف أنه في يوم من الأيام سوف يواجه الموت. وهذا يضع نهاية لكل فرح ولكن أيضاً لكل ألم. هناك عدد غير محدود من حالات القلق المادي لا تسمح لنا أن نكون سعداء أو بؤساء كلياً. وهذا يعطي صيغة مؤقتة لكل فرح ولكن أيضاً تُبعد عنا الأسف وتمكنا أن نتحمله.

إن الصعوبات بالذات. الضربات، البرد، والظمأ خلال السفر، وما بعدها، حافظت علينا كي لا نغرق في اليأس.ليست إرادة الحياة وحتى ليس التسليم بالقدر: قلائل هم الناس القادرون على ذلك ونحن لم نكن إلاّ حفنة من أبناء الموت المعتدلين. لقد أغلقوا القاطرات فوراً، ولكن القطار سار في طريقه فقط في المساء. عندما عرفنا وجهة الرحلة شعرنا بالارتياح. أوشفتس: عندها كان عديم المعنى بالنسبة لنا. إنه، مع هذا، مكان ما فوق الكرة الأرضية.

القطار سار على مهله ومن حين إلى آخر توقف. التوقفات كانت مطوَّلة ومثيرة للغضب. من الشباك تمكنا أن نرى منحدرات الجبال العالية من سهل الايديجيه، وأسماء مدن ايطاليا الأخرى التي في طريقنا . عبرنا معبر بيرجير الساعة الثانية عشرة في اليوم الثاني للسفرة. الكل وقفوا على أقدامهم، ولكن لم ينبسوا ببنت شفة. التفكير بالعودة إلى البيت أثقل على قلبي. حلمت في اليقظة، في تعذيب ذاتي، بالفرح العظيم الذي سوف ينفجر عندما نعبر في الاتجاه المعاكس ، بأبواب مفتوحة. لا يفكر أحد عندها في الهروب. وأسماء مدن ايطاليا الأولى ... تأملت حولي: هنا حطام ناس. مَن يعرف كم من هؤلاء المساكين حسِم مصيرهم. من خمسة وأربعين إنساناً سافروا معي في القاطرة، فقط أربعة يعودون ويرون بيوتهم. وهذه كانت القاطرة الأكثر حظاً.

قلائل الناس القادرون أن يمشوا إلى موتهم باحترام وعلى العموم فهم ليسوا الناس الذين توقعنا أن يفعلوا ذلك. قلائل يقدرون على السكوت وعدم الإزعاج لاستراحة الآخرين. النوم الرهيب أُزعج من حين إلى آخر بصياح وخلاف على قضايا ليست هامة، مع شتائم وركلات وضربات بالأيدي وجهت كلها بدون تدقيق كدفاع في وجه المضايقة أو الاتصال الذي لا يمكن منعه. أحد ما كان يضيء شمعة وعلى ضوئها الخافت مثل شمعة الذكرى يبدو ظل إنسان أفطس على الأرض عديم الصورة وبائس ومتأوه ينهار ويتوقف عن الحركة بسبب التعب والإنهاك.

من خلال الشباك في القاطرة لاحظنا أسماء المدن النمساوية غير المعروفة لنا والمعروفة، بينها زالتسبورغ وفيينا. بعد ذلك ظهرت أسماء تشيكية وأخيراً بولونية. في

مساء اليوم الرابع للسفرة اشتد البرد كثيراً. القطار مرّ في طريق وسط الغابات إلى أن سار ببطء. الثلج كان عالياً ويبدو أننا سافرنا على خطوطٍ جانبية للقطار. المحطات كانت صغيرة وتقريباً خاليةٌ من الناس ولم يحاول أحد بعد إقامة اتصال خلال التوقف، إقامة اتصال مع العالم الخارجي. الآن شعرنا أننا "عبرنا إلى الجانب الآخر". مرة أخرى توقفٌ في مجالٍ مفتوح. وبعد مدة طويلة تحرك القطار ببطء شديد وأخيراً توقف، في قلب الليل ، في منطقة منبسطةٍ وخلال ذلك عمَّ صمت الموت والظلام الدامس.

من كلا جانبي خط السكة تمكنا أن نلاحظ حتى البعيد بأضواء حمراء وبيضاء، ولكن لم تصل إلى أسماعنا أصوات معروفة تبشر عن مكان بلد فيه آدميون. على الضوء الخافت للشمعة الأخيرة، بدون اللحن الرتيب لعجلات القطار على الخطوط، وبدون صوت إنساني من الخارج انتظرنا أن يحدث شيء ما.

إلى جانبي محشورة بين جسم وآخر، مثلي، جلست خلال كل الطريق، امرأة. عرفنا بعضنا خلال سنين. والقدر جمعنا معاً، ولكن عرفنا قليلاً جداً الواحد عن الأخرى. في تلك اللحظة المصيرية قلنا أموراً لا يقولها بشر أحياء. وأخيراً افترقنا بتحية عابرة. وهكذا افترق كل واحد من حياته الشخصية. ولم يعد خوف في قلوبنا.

فجأة، انتهى الانتظار. الباب انفتح بضجيج. في الفضاء المعتم جلجلت أوامر بلغة غريبة، مثل النباح البربري الذي سمعناه من الألمان وهم يصدرون الأوامر. بدا وكأنهم يطلقون غضباً عتيقاً. الأضواء أنارت مساحة رحبة على بعد ما من القطار وقفت عدة شاحنات. ومرة أخرى، ساد الصمت. أحد ما ترجم: مطلوب النزول مع الرزم وتركها في أسفل القطار. في لحظة برزت على الرصيف حاويات. خفنا أن نخرق الصمت، ولذلك اهتم كل واحد برزمته وفتش حوالي عشرة جنود إس. إس، وقفوا في الجانب، لا مبالين. وفجأة تفرقوا بيننا بوجوه عابسة وبصوت منخفض بدأوا يحققون بسرعة، بايطالية رديئة. لم يسألوا كل واحد إلاّ بالصدفة، وهنا وهناك.

"عمرك؟"، "سليم أم مريض؟"وحسب الجواب أعطوا الأوامر للذهاب إلى أحد الاتجاهين.

ساد الصمت العميق كما في حوض أسماك أو في حلم. خفنا أن يحدث شيء ما سيء أكثر. جنود الاس. إس بدوا مثل أفراد شرطة عاديين جداً. مسلكهم نشر بيننا الذهول والخوف. أحد ما تجرأ أن يسأل: ماذا مع الصرر؟ أجابوا: "الصرر بعد ذلك". آخر لم يرد أن يفترق عن زوجته، وهم قالوا له:"بعد ذلك مرة أخرى معاً". أمهات كثيرات لم يردن مفارقة أولادهن. قالوا: "حسنا حسناً. البقاء مع الابن". ودائماً بهدوء كأنما هم ينفذون واجباً روتينياً. ولكن رنتسو أطال في تحية الوداع لفرانشيسكا التي كانت خطيبته. وعندها ضربوه على وجهه ورموه أرضاً. كانت هذه هي وظيفتهم الروتينية .

خلال أقل من عشر دقائق جمعوا الرجال القادرين على العمل. ماذا جرى للآخرين: النساء، الأولاد والعجائز لم نتمكن أن نعرف في تلك اللحظة ولا بعد ذلك. الليل بلعهم. بكل بساطة. اليوم نحن نعرف أنه في ذلك التصنيف السريع والسطحي تقرر من يمكنه أن يكون مفيداً في العمل للرايخ الثالث ومن لا. ونحن نعرف اليوم أنه إلى معسكري بركناو وبونامونوفتش أُدخل ستة وتسعون رجلا وتسع وعشرون امرأة من إرساليتنا. وكل الآخرين- أكثر من خمسمائة- لم يكونوا، بعد يومين، بين الأحياء. نحن نعرف أيضاً، أن التصنيف المنهجي هذا الذي هدفه "اختيار" القادرين على الحياة، لم ينفذ دائماً. في الإرساليات التالية التي استخدمت طريقة أبسط: فتحوا أبواب القاطرات من كلا الجانبين بدون تحذير أو توجيه. وذهب إلى المعسكرات مَن بالصدفة نزلوا من جانب واحد. وذهب مباشرة إلى أفران الغاز مَن ذهب إلى الجانب الثاني.

وهكذا ماتت إميليا، الطفلة بنت الثلاث، لأنه كان واضحاً للألمان، كالشمس، أن أمر التاريخ يأمرهم أن يقتلوا الأطفال اليهود. إميليا، ابنة المهندس إلدو ليفي من ميلانو، طفلة محبة للاستطلاع، مرحة وحكيمة، وأبوها وأمها نجحا في تحميمها خلال السفرة في القاطرة المليئة بالبشر، بمساعدة الميكانيكي الألماني "المتعفن" والذي

لم يتصرف حسب الأوامر ووافق أن يتقل في علبة صغيرة قليلاً من الماء الفاتر الذي سرقه من القطار الذي نقلنا كلنا إلى الموت.

في شظية من الثانية اختفى أهلنا ونساؤنا وأولادنا. تقريباً لا أحد تمكن أن يودعهم. نظرنا إليهم، لحظة ما، كتلة مظلمة في الجانب الآخر للرصيف وباختفاء واحد، اختفوا جميعاً عن عيوننا.

وفجأة، ظهرت على ضوء القناديل مجموعتان من البشر الغرباء. ساروا ثلاثة ثلاثة، في خطوات فاشلة غريبة. رؤوسهم تتحرك وأيديهم تحيط بالأجسام. على رؤوسهم قبعة مضحكة يلبسون عباءة بخطوط طويلة. وعلى الرغم من ظلام الليل كان ممكناً التمييز، من بعد كبير جداً، أن ملابسهم ممزقة وقذرة. ومروا في دائرة واسعة و لم يقتربوا إلينا. وبدون أن يلفظوا كلمة بدأوا بتحميل الرزم. صعدوا ونزلوا من القاطرات الفارغة.

نظرنا الواحد إلى الآخر، بدون أن نتكلم . كل شيء لم يكن مفهوماً وجنونياً. ومع هذا فهمنا أمراً واحداً: هكذا سيصير معنا. غدا نحن أيضاً سوف نبدو هكذا.

وجدت نفسي على شاحنة مع حوالي ثلاثين شخصاً. بدون أن أفهم كيف وصلت إلى هناك. السيارة اندفعت في قلب الليل بسرعة كبيرة. لأنها كانت مغطاة لم يكن ممكناً التطلع إلى الخارج. ولكن حسب القفزات الكثيرة، كان ممكناً أن نفهم أن المسار ملتوٍ ومليء بالمطبات. هل سافرنا بدون حراسة مرافقة؟ هل نحاول القفز إلى أسفل؟ أحسسنا أننا تأخرنا عن الموعد. تأخرنا والآن كلنا نُقاد إلى أسفل. حالاً أدركنا، أيضاً، أن هناك حراسة. حراسة مرافقة غريبة –جندي ألماني وقف بيننا. مسلحاً من رأسه حتى قدميه. لا يمكننا أن نراه، بسبب العتمة الدامسة. ولكن أحسسنا بلمسته القوية عند تخبط السيارة التي تُطيِّر أحدنا إلى الآخر مرة إلى اليمين ومرة إلى اليسار. وفجأة هو يضيء قنديلاً وبدأ أن يصرخ : "الويل لكم أيتها النفوس

الشريرة"[1] كان يتوجه بأدب لكل واحد، ويسأل بالألمانية والفرنسية إذا كان معنا مال أو ساعة لإعطائها له، فعلى أية حال لن نستفيد، بعد، من المال والساعة، قال مفسراً. هذا ليس أمراً ولا حتى طلباً، حسب الأوامر. فهمنا جيداً أن هذه هي مبادرة شخصية صغيرة لقاطرتنا. الأمر أثار غضباً وضحكاً ولكن أيضاً شعوراً غريباً بالانفراج.

[1] بيت شعر من "الكوميديا الإلهية" لدانتي أليغيري

في الحضيض

استمرت السفرة عشرين دقيقة. توقفت الشاحنات وأمام عيوننا انتصبت بوابة كبيرة وفوقها تعالت كتابة مضاءة جيداً،(منظر العنوان المضاء ما زال يضايقني في أحلامي: Arbeit macht frei.العمل يحرر.

نزلنا. أدخلونا إلى غرفة واسعة الأطراف. فارغة، بدون تدفئة كافية. حنجرتنا ناشفة من العطش. صوت الماء المتدفق من الحنفيات طيَّر صوابنا. منذ أربعة أيام لم تدخل نقطة ماء إلى أفواهنا. وها هي في الغرفة حنفية وفوقها لافتة تعلن أن شرب الماء ممنوع لأنه ملوث، هراء! واضح لي أن اللافتة استهدفت خداعنا. "هم" يعرفون أننا ميِّتون من العطش- يدخلوننا إلى غرفة فيها حنفية و Wassertrinken verboten (ممنوع شرب الماء). أنا شربت وحاولت أن أقنع الآخرين أن يفعلوا مثلي. ولكن حالاً علي أن أبصق. الماء فاتر، يتدفق ورائحته كرائحة ماء المستنقع.

هذه قنبلة. في أيامنا القنبلة تبدو هكذا. غرفة واسعة وفارغة. ونحن في داخلها، متعبون من كثرة الوقوف. الحنفية تنقط ، ولكن لا يجوز الشرب منها. ننتظر أن يحدث شيء ما رهيب، ولكن الوقت يمر، ولا يحدث شيء. كيف ؟ لكن حتى للتفكير، لم تبقَ فينا قوة. لقد أصبحنا من الأموات. بعضنا تيبسوا على أرض الغرفة. الزمن يزحف رويداً رويداً.

لسنا أمواتاً، الباب ينفتح ويدخل جندي إس. إس سيجارة في فمه. ينظر ببطء شديد. وأخيراً يسأل:Wer kann Deutsch (من يعرف الألمانية؟) يقوم من بيننا إنسان لم أره من قبل. اسمه فلاش. فلاش يترجم. الوقوف كل? صف خمسة خمسة مع بعد مترين بين الواحد والآخر. وبعد ذلك خلع الملابس وترتيب الملابس هكذا: ملابس القطن وحدها، وكل ما تبقى في صُرّة واحدة. يجب خلع الأحذية مع الحذر أن لا يسرقوها.

سرقة؟ لماذا سيخطر على بال أحد أن يسرق أحذيتي؟ وماذا نعمل بالوثائق، بالحاجيات الصغيرة التي في جيب كل واحد؟ نحن ننظر إلى المترجم هو يسأل الألماني الإس. إس. يدخن وينظر بالآخر كما لو كان شفافا. كأنما لم يتكلم إطلاقاً.

في حياتي لم أر رجالاً، راشدين عراة كما في يوم ميلادهم. السيد برغمان يربط حزاماً سانداً لكُسْر. يسأل إذا كان عليه أن يخلعه. المترجم يتردد، ولكن الألماني فهم، وبدأ يتكلم بصرامة إلى فلاش، بينما هو يشير إلى شيء ما. لاحظنا أن فلاش يبلع ريقه، وبعد ذلك يقول- الشاويش يقول إخلع الحزام. بعد ذلك تأخذ حزام السيد كوهن. رأينا أن الكلمات تتسلل بصعوبة من فم فلاش، وهي مُرّة كالعلقم. هذه هي طريقة الألماني في السخرية والاحتقار لنا.

بعد ذلك بقليل ، جاء ألماني آخر وأمر أن نخلع الأحذية في إحدى زوايا الغرفة. وفعلنا طبقاً لأوامره. انتهت كل الأمور، أحسسنا أننا خارج هذا العالم. ولذلك لم يبقَ أمامنا إلاّ أن ننفذ الأوامر. وفجأة يظهر إنسان وفي يده مكنسة ويجر كومة الأحذية إلى الخارج. مجنون. يجرها كلها، واحداً بعد الآخر. ستة وتسعون زوج أحذية! وهكذا فردة حذاء تلائم الثانية. باب الغرفة ينفتح على الخارج. ريح تجمِّد العظام تتغلغل إلى الغرفة، ونحن، عراة، نغطي بطوننا بأيدينا. الريح تضرب الباب. الألماني يفتح الباب ثانية، وهو واقف ينظر بلا مبالاة كيف يختبيء الواحد وراء الآخر. لايجاد ملاذ من مهب الريح المجَمِّدة. يغلق الباب ويذهب.

المشهد الثاني: أربعة رجال ينطلقون كالعاصفة إلى الداخل، وفي أيديهم شفرات حلاقة وفرشايات حلاقة للشعر. كانوا يلبسون بناطيل مع خطوط وجاكيتات مخططة. على صدورهم مخيَّط رقم. ربما هم من الناس الذين رأيناهم في الليل على الرصيف (ولعل هذا كان أمس؟) لا. هؤلاء أقوياء وقوتهم في أجسامهم. نحن نسأل أسئلة كثيرة. وهم يمسكون برؤوسنا، وخلال دقيقة نحن حليقون. كم مثيرة للضحك الوجوه بعد حلق الشعر وحلق الذقن! الأربعة يتكلمون بلغة لا تبدو من هذا العالم. والأدق: تلك ليس ألمانية، فأنا أفهم الألمانية قليلاً.

باب آخر يُفْتح وفجأة نحن نغتسل بالماء، حليقون، عراة وحفاة. غرفة الحمّام مغلقة في الداخل. لا أحد غيرنا. رويداً رويداً تبدد الذهول ونتجرأ على الكلام. الكل يسأل: كيف لا يوجد شخص يجيب. إذا جلبونا إلى الحمّام معنى هذا أننا نغتسل. إذا كنا نغتسل فمعنى هذا أنهم لا ينوون قتلنا فوراً. لماذا، إذن، لا يسمحون لنا بالجلوس والشرب، لا يوجد أحد يفسر لنا شيئاً. ليس عندنا أحذية وملابس. وعلينا أن نقفز عراة إلى الماء، في برد يتغلغل إلى العظام. خمسة أيام سافرنا واقفين. ونساؤنا؟

المهندس ليفي يسألني إذا كانوا سيعاملون النساء كما يعاملوننا وأين هن موجودات الآن، وإذا كنا نقدر أن نراهن؟ أجبته بنعم. لأنه متزوج وعنده بنت. طبعاً نراهُنَّ قريباً. ولكن في قلبي كانت تنقر الفكرة أن كل هذا ليس إلاّ تمثيلاً هدفه خداعنا وإذلالنا. واضح أنهم في آخر الأمر، سوف يميتوننا، ومن يعتقد عكس ذلك مجنون سقط ضحية للخداع. أنا لا. أنا فهمت أنه بسرعة ستأتي ساعتنا، ربما في هذه الغرفة، عندما يقرفون من النظر إلى عُرينا، نقفز رجلاً بعد الأخرى، ونحاول أن نجلس على أرض الغرفة لنقف فجاة، كما لو لسعتنا أفعى. لأن أرض الغرفة مغمورة بالماء البارد، في علو شبر. نذهب يميناً ويساراً بلا هدف، نتحادث، كل واحد يتكلم مع كل الآخرين. نقوم بالضجة. الباب ينفتح. يدخل الضابط الألماني، الذي عرفناه عند مجيئنا. يقول عدة جُمل وفلاش يترجم. الضابط يقول أننا يجب أن نكون صامتين، هنا ليست مدرسة للربانيين (رجال الدين اليهود)، هذه الكلمات الشريرة التي تُسْمع غريبة في فمه، تشوه وجهه، وهو يطلقها من فمه كما لو كان يبصق أكلاً فاسداً. نطلب من المترجم أن يسأل ماذا ننتظر وكم من الوقت بعد نبقى هنا. وماذا مع النساء. وغيرها وغيرها. ولكن هو يرفض ترجمة أسئلتنا. فلاش يترجم بدون رغبة أقوال الألماني إلى الايطالية. كلمات باردة كالثلج، تنضح بالسم، ولكنه يرفض ترجمة أقوالنا إلى الألمانية لأنه يعتقد أن لا فائدة من فعل ذلك، هو يهودي مولود في ألمانيا، عمره حوالي خمسين، على وجهه آثار جرح عميق إصابة عندما قاتل ضد الطليان،

في إطار جيش ألمانيا. في الحرب العالية الأولى. إنسان سكوت ومغلق على نفسه. أنا أكن له الاحترام لأنني أحس أنه بدأ يتضايق، قبلنا.

الألماني يخرج ونحن نسكت، مع أن هذا الوقوف بصمت مهين لنا في نظر أنفسنا. ليلة، بقيت ليلة. بدأنا نشك إذا كان سيطلع الفجر، يوماً. مرة أخرى ينفتح الباب. دخل إنسان يلبس ملابس مُرقطّة بدا مختلفاً عن رفاقه. ليس حسناً مثلهم. يلبس نظارتين، له وجه إنسان حضاري. توجه إلينا بالايطالية.

توقفنا عن الاستغراب. بدا وكأننا نشاهد مسرحية مجنونة، من المسرحيات التي يظهر فيها الشيطان على المسرح، وكذلك الساحرات والروح القدس. الرجل يتكلم بالايطالية المتقعرة بلهجة غريبة. يشرح بالتفصيل، بأدب، ويحاول أن يجيب على أسئلتنا.

نحن في مونوفتش، قرب أوشفتس في منطقة شلزيا العليا، منطقة مأهولة بالسكان الألمان والبولونيين. المعسكر هو معسكر عمل ، بالألمانية Arbeitslager. كل الأسرى (حوالي عشرة آلاف شخص) يعملون في المصنع المسمى بونا وعلى اسمه أيضاً المعسكر يُسمى بونا.

سنأخذ أحذية وملابس. لا، لا، ليست أحذيتنا وملابسنا، بل ملابس وأحذية أخرى. مثل تلك التي لنا. الآن نحن عراة لأننا يجب أن نستحم. علينا أن ننتظر للحمام والتطهير. هذا سيتم فوراً. بعد اليقظة لأنه لا يجوز الدخول إلى المعسكر بدون التطهير.

طبعاً يجب العمل هنا الكل يعملون. ولكن هناك عمل وهناك عمل. مثلاً، هو نفسه يعمل طبيباً. هو هنغاري وتعلم في ايطاليا. طبيب أسنان للمعسكر. منذ أربع سنوات هو في الداخل. لا، لا، ليس في هذا المعسكر، البونا أقيم فقط قبل سنة ونصف. ومع هذا، فإن الكل يمكن أن يروا، أن يروا جيداً، ليس هزيلاً أكثر من اللازم، "لماذا أنت في المعسكر؟"، "هل أنت يهودي مثلنا؟". "لا" يجيب الرجل ببساطته، "أنا سجين جنائي".

يسألونه أسئلة كثيرة. على بعضها يجيب بالضحك، وأحياناً يجيب مباشرة، وأحياناً لا يجيب إطلاقاً. يرون أنه يتهرب من الإجابة على مواضيع معينة. لا يتكلم عن النساء. يقول إن وضعهن جيد. وأننا سنلتقي بهن عما قريب. ولكنه يسكت ولا يقول أين ومتى. مقابل هذا، فإنه يقص قصصاً غريبة، مجنونة. هل هو أيضاً يتعامل بسخرية واحتقار؟ أم أنه فقد رشده؟ حيث أنه في المعسكر يمكن للشخص أن يفقد صوابه. يقول إنهم في كل يوم أحد يعزفون كونسرتات ويلعبون كرة القدم. ومن يعرف المصارعة جيداً يمكن أن يُعيَّن طباخاً، ومن يمتاز بالعمل يمكن أن يأخذ وصولات يشتري بها. تبغاً وصابوناً. يقول إن مياه الشرب فعلاً ملوثة ويجب عدم شربها. ولكن كل يوم يوزعون مشروباً بديلاً للقهوة، ولكن عادةً، لا أحد يشرب منه لأن الشوربة مائية أكثر وتروي العطش.

نحن نطلب منه أن يكسب لنا شيئاً للشرب. ولكنه يجيب بأنه لا يقدر. وأنه جاء ليرانا سراً، على الرغم من أن الإس. إس. منعوه أن يلتقي بنا قبل أن نمر بعملية التطهير، وبشكل عام، عليه أن يبتعد عنا، فوراً.لقد جاء بدافع حبه للطليان وبصراحة "لأن عنده قلباً رقيقاً". نسأله إذا كان يوجد طليان آخرون في المعسكر، نعم، قلائل، لا أعرف كم عددهم، يتهرب وينتقل إلى موضوع آخر. في تلك اللحظة يرن الجرس. الطبيب يحمل نفسه ويهرب، بقينا مستغربين وذاهلين. بيننا مَن تشجعوا من كلامه، أما أنا فلا. ما زلت متمسكاً بقوة برأيي، أن هذا الشخص الغريب، طبيب الأسنان، يريد أن يستدرجنا. أنا لا أصدق ولا كلمة واحدة مما قاله.

مع رنين الجرس، يمكن الإحساس أن المعسكر قد استيقظ. فجأة وصل إلى الحمام تيار الماء الساخن. خمس دقائق من المتعة مرَّت علينا. ولكن لم نكتف بالمتعة حتى دخل إلى الحمام أربعة رجال (هل هم الحلاّقون الأربعة؟) وبدأوا يركلوننا ويدفعوننا وهم يصرخون، بينما نحن ما زلنا مبللين محاطين ببخار الماء الساخن دفعونا إلى غرفة مجاورة باردة كالثلج، حيث يقف آخرون يرمون إلينا خِرَقاً وأحذية خشبية. وكل ذلك في صراخ يصم الآذان. لم نحس إلاّ ونحن في الخارج، على ثلج ميال للزرقة ومتجمد، ونحن حفاة وعراة، قبل مطلع الفجر.

علينا أن نركض والملابس في أيدينا، حتى الصريفة الواقفة على بعد مئة ومتر. هنا يسمحون لنا أن نلبس ملابسنا .

عندما أنهينا اللبس، انزوى كل واحد في زاويته. لم نجرؤ أن ننظر أحدنا إلى رفيقه. لا مرآة في الغرفة، ولكن صورتنا انعكست لنا في مئة وجه شاحب كالكلس حولنا. مئة فزّاعة بائسة وقذرة. تُغَيِّر الصورة. الآن نحن أرواح غريبة مثل الأموات- الأحياء التي رأيناها بالأمس.

الآن أدركنا أن اللغة الإنسانية أفقر من تُعَبِّر عن هذه الإهانة الحارقة، عن فقدان الروح الإنسانية. الواقع بدا لنا حقيقة في جزء من الثانية، تقريباً كمسرح نبوئي. إلى الحضيض وصلنا. إلى أسفل درجة، وأسفل من ذلك غير ممكن الانحدار. لم يبق لنا شيء. أخذوا الملابس، الأحذية، وحتى شعراتنا لم يبقوها لنا. إذا تكلمنا لا يصغون لنا وإذا أصغوا لا يفهمون. بعد قليل سوف يسلبون أسماءنا. وإذا أردنا مع هذا أن نحافظ عليها، سيكون علينا أن نجمع كل قوانا حتى يبقى شيء ما منا شيء ما كُنّاه.

أعرف أنه ليس ممكناً بسهولة فهم أقوالي. وحسناً أن الأمر كذلك. فليجرب، إذن، كل واحد أن يفكر ما قيمة العادات اليومية الصغيرة لكل إنسان وأي مغزى لها: للحاجيات الكثيرة الموجودة عند الشحاذين، في زاوية الشارع: منديل للمخاط، رسالة قديمة، صورة إنسان عزيز. أشياء كهذه هي جزء من شخصيتنا، تقريباً مثل عضو من أعضاء جسدنا. لا يمكننا أن نتصور الحياة بدونها. إذا فقدناها تحتل مكانها فوراً أشياء أخرى. وهي لنا لأنها مرتبطة بالذكريات، وفي مقدورها أن تثير فينا الأفكار.

الآن تصوروا إنساناً سلبوا منه بيته، عاداته، ملابسه، أبعدوا عنه أعزاءه. كل شيء، كل ما كان له. إنسان كهذا لا يكون إلاّ قشرة فارغة. لا يبقى له شيء، هو تعيس، وعاجز، لا تبقى له كرامة ذاتية، ولا يعود قادراً أن يُفَرِّق بين الجيِّد والسيء. مَن سُلِب منه كل شيء، في طرفة عين، شخصيته أيضاً تكون قد سُلِبَت منه ببساطة متناهية. يتحول إلى مخلوق مُنْحَط للغاية، من السهل القرار بإماتته، بدون تفكير مسبق، لمخلوق كهذا لا يجوز النظرإليه كإنسان. في أحسن الأحوال، يُحْكَم عليه

بالحياة أو الموت نتيجة اعتبارات المصلحة. ربما الآن، من الممكن أن نفهم المعنى المزدوج للاسم:"معسكر الإبادة". وربما يُفهم الآن ما نريد أن نُعَبِّر عنه بالجملة: أن نكون في الحضيض.

Häftling (أسير) تعلمت أنني هافتلينغ. اسمي 174517. وهكذا أعطونا اسماً نحمله طول أيام حياتنا، علامة حُفِرَت بالأحرف المدقوقة على يدنا اليسرى. تقريباً لم أشعر بالألم عند الدق الذي تم بسرعة كبيرة. رتبونا في صف واحداً وراء الآخر، حسب ترتيب الألف باء. مررنا قرب عامل نشيط كان في يده إزميل في طرفه إبرة قصيرة جداً. يبدو أنهم في هذا الاحتفال، يُدخلوننا في سر المعسكر. فقط عندما نُظهر الرقم نأخذ الخبز والشوربة. تمر أيام كثيرة وتقع علينا الكثير من ضربات القبضة حتى نتعلم أن نُظهر الرقم بسرعة حتى لا نعرقل التوزيعة اليومية لوجبات الطعام. تمر أسابيع وشهور حتى نتعلم أن نلفظ، بشكل صحيح، الرقم باللغة الألمانية. مدة طويلة واصلت، كعادة إنسان حر، أن أنظر إلى يدي اليسرى حيث كنت أضع ساعتي، ولكن بدل الساعة نبتت الأرقام الزرقاء التي حفروها في جلدي.

فقط عندما مر وقت طويل، تعلم بعضنا، رويداً رويداً، أسرار علم الموت* لأرقام أوشفتس، تلك الأرقام التي تلخص مراحل إبادة اليهود في أوروبا. قدامى المعسكرات يمكن أن نتعلم منهم كل شيء: متى وصلت إلى المخيم، في أية شيفرة، ومن هنا نعرف من أية بلاد جئت.كل واحد يحس خوف الاحترام إزاء الأرقام من 30000 إلى 80000 بقي معهم فقط عدة مئات. وهم بقايا غيتوات بولونيا. من المفيد فتح العينين عندما نتكلم مع 116000 أو 117000. بقي منهم فقط أربعون. ولكنهم يونانيون من سالونيكي. هم بإمكانهم أن يسقطوا في الفخ. أصحاب الأرقام الكبيرة هم موضوع للنكت الكثيرة مثل الجنود الجدد في الجيش أو "الخضر" في الجامعة. رقم كبير هو رجل ذو كرش. أحمق ومغفل. بسهولة يصدقك أنهم في العيادة يوزعون أحذية جلدية لأصحاب الأرجل الحساسة. بسهولة تقنعه أن يسرع ويركض إلى هناك ويبقى لك صحن الشوربة المخصص له، حتى "تحافظ له عليه". بإمكانك أن تبيع له ملعقة مقابل ثلاث وجبات من الخبز، وأن تبعثه إلى الكافو الأكثر قساوة

وتسأله: (ماذا جرى لي) وهل صحيح أنه يقف على رأسه Kartoffelschälkommando الكوماندو لتقشير البطاطا، وهل من الممكن الإنضمام إلى الكوماندوالخاصة به

ولكن كل عملية إدخالنا إلى سر هذا النظام، الجديد بالنسبة لنا، تمَّ بشكل ساخر ووحشي. عندما انتهت عملية حفر عنوان الوشم سجنونا في صريفة لم يكن فيها أي إنسان. الأسِرَّة كانت مرتبة، ولكن منعونا أن نمسها أو نجلس عليها. وهكذا، حوالي نصف يوم تجولنا هنا وهناك في الساحة الضيقة الفارغة وواصلنا العذاب من العطش. وها قد انفتح الباب، ودخل شاب بملابس مرقطة، قصير، نحيف، ذو شعر فاتح، بدا حضارياً جداً. يتكلم الفرنسية. هجمنا عليه، وفي أفواهنا أسئلة حتى الآن سألناها لبعضنا البعض، بدون جواب.

ولكن هو يجيب بصعوبة: لا أحد هنا يجوز أن يتكلم. نحن جدد، جهلة في أمور المعسكر. لماذا إذن، نلطخ الوقت والكلمات عبثاً؟ يقص لنا بترحاب، أن الجميع يعملون في الخارج. ويعودون في المساء. هو سيخرج اليوم من العيادة ولذلك فإنه محرر من العمل. سألته (بسذاجة مبالغ بها بعد أيام قليلة لم أتمكن أن أومن بوجودها) إذا كانوا سيعيدون لنا فرشايات الأسنان؟ ضحك ووجهه بدا عليه الاستهزاء، ومع هذا أجابني: Vous n'êtes pas à la maison –هذا هو في الحقيقة النشيد الذي يعيده الجميع: لستم في البيت، وهذا المكان ليس مصحاً. من هنا لا تخرجون إلاّ للطريق (ما معنى هذا الكلام نفهم فيما بعد).

نعم، الظمأ تغلب علينا. عيني اصطدمت بكتلة ثلج كانت مربوطة وراء الشباك، في متناول اليد. فتحت الشباك، فصلت كتلة الثلج ولكن حالاً، مقابلي سقطت كتلة ثلج أخرى كبيرة، وواحد كبير تجول في الخارج خطفها من يدي بفظاظةWarum؟لماذا سألته بالألمانية الركيكة التي لدي. Hier ist kein Warum هنا لا يجوز السؤال لماذا- أجابني ودفعني في فظاظة إلى الداخل.

التفسير لهذا الحادث المقرف هو بسيط. في هذا المكان كل شيء ممنوع والأسباب ليست خافية. إذ، لذلك أقيم المعسكر. إذا كانت لدينا رغبة أن نبقى فنحن ملزمون أن نسرع ونفهم هذا المبدأ على حقيقته.

Qui non ha luogo il Santo Volto,
qui si nuota altrimenti che nel Serchio[2]

رويداُ رويداً يصل إلى نهايته هذا اليوم الطويل- يوم الدخول إلى جهنم. الشمس تغرب في خليط من غيوم الدم. وأخيراً، يخرجوننا من الصريفة. هل يسمحون لنا أن نشرب؟ لا. مرة أخرى ينظموننا في صفوف ويقودوننا إلى الساحة الرحبة في مركز المعسكر. بدقة متناهية يرتبوننا في مربع. الأمر يأخذ ساعة كاملة. على ما يبدو ينتظرون أحداً ما.

قرب بوابة المعسكر بوق يعزف لحناً: روزموندا، أغنية عاطفية معروفة. المشهد غريب إلى حد أننا ننظر أحدنا إلى الآخر ونستخف بالأمر. أحسسنا ببعض الانفراج. ربما هذا كله ليس إلاّ خديعة ألمانية كبيرة. ولكن عندما انتهت معزوفة الروزموندا نسمع ألحاناً أخرى، وعندها فجأة تظهر مجموعات مجموعات، رفاقنا العائدون من العمل. يمشون واحداً بجانب الآخر، خمسة خمسة، مشيتهم غريبة، غير طبيعية، خطواتهم ثقيلة، كما لو لم يكونوا بشراً بل فزاعات أجسامها القاسية مصنوعة من العظام. إنهم يمشون تماماً حسب وتيرة اللحن.

أيضاً هم يرتبون أمورهم مثلنا، في نظام مثالي، في الساحة الكبيرة. عندما تقف المجموعة الأخيرة يبدأ العدّ. خلال أكثر من ساعة يعدون مرة وأخرى، يفحصون ويعودون على ذلك وكلهم يتوجهون إلى شخص مع ملابس مخططة، يقدم تقريراً لمجموعة جنود إس. إس.، الذين يحملون عتاداً قتالياً كاملاً.

---

[2] هنا لا يُنقذ الصليب المقدس
لم يسبحوا هنا كما سبحوا في مياه سركيو
(دانتي أليغيري)

لقد حلّت الظلمة، ولكن المعسكر مضاء جيداً بقناديل ومسلاطات. يُسْمع صراخ:"Absperre" وحالاً تتفرق الفرق في كل الاتجاهات وتسود الفوضى. الآن، لا أحد يمشي كالفزاعة الفظة، كلهم يجرجرون أرجلهم بجهد ملحوظ. أنا ألاحظ أن لكل واحد علبة صفيح كبيرة مربوطة بحزامه.

نحن الجدد، محاطون بأناس كثيرين، نفتش عن وجه صديق، عن صوت إنساني حار، عن أحد يرشدنا. شابان يجلسان مستندين إلى حائط الصريفة.

على ما يبدو شابان جداً، ابنا السادسة عشرة، أيديهما ووجهاهما منفوخان أحدهما ينادي الآخر ويسأل بالألمانية عدة أسئلة. لم أنجح في الفهم. وأخيراً، يسأل من أين جئنا.Italien –أجبتُ. أيضاً عندي كانت أسئلة كثيرة ولكن لغتي الألمانية كانت ضعيفة للغاية.

أنت يهودي؟

نعم يهودي بولوني.

كم من الوقت أنت في المعسكر؟

ثلاث سنوات، يجيب رافعاً ثلاث أصابع.

يقيناً أنه كان ولداً عندما دخل، أفكر مزعزعاً، ومع هذا، فهذا يعني أن هناك من يبقى على قيد الحياة.

ماذا تعمل؟

-Schlosser (حداد) لا أفهم. Eisen, Feuer (حديد، نار) يحاول أن يفسر، ويحرك يديه كما لو كان يضرب بالمطرقة على السندان. إذن هو حداد.

-Ich Chemiker (أنا كيميائي)، أبلغه. وهو يحرك رأسه، باهتمام. Chemiker gut (كيميائي، جيد) ولكن كل هذا يتعلق بالمستقبل البعيد. وحالياً يقتلني العطش!

أن نشرب الماء، نحن ليس عندنا ماء- أقول له. ينظر إلي بملامح وجه جدية، تقريباً صارمة، ويقول بتأكيد: "لا تشرب الماء يا زميل"، ويضيف كلمات لا أفهمها.

Warum? لماذا؟

Geschwollen يجيب باختصار. أنا أهز رأسي. لم أفهم "منفوخ"، يحاول أن ينفخ وجنتيه. يضع يديه على وجهه وعلى بطنه، ويرسم بيديه حالة بالون منفوخ.

Warten bis heute abend " انتظر حتى اليوم مساء" أنا أترجم حرفياً.

بعد ذلك تعارفنا. "أنا شلويمه". قال لي. "وانت"؟. قلت له ما اسمي. سأل: "أين أمك؟". "في ايطاليا". أجبت. شلويمه يستهجن "يهود في ايطاليا؟". "نعم" أنا أوضح بلغة ألمانية ركيكة. "مختبئة، لا أحد يعرفهم. لا أحد يعرف الهروب". وفهم. شلويمه،، قام، اقترب مني، وعانقني برقة. انتهت المكالمة. الأسف يمسك بخناقي. الأسف عليه، طيب القلب. لم أر، أكثر، شلويمه. ولكن لم أنس الوجه الرصين والرقيق للشاب، الذي استقبلني على حافة الموت.

أمور كثيرة علينا أن نتعلمها. ولكن الكثير تعلمناه. أصبحت عندنا فكرة عن مبنى المعسكر. مربع من ستمائة متر لكل ضلع. محاط بجدارين من الأسلاك. في الداخلية هناك كهرباء بتوتر عال، في المخيم ستون صريفة من الخشب، اسمها "بلوكات" وهناك عشرة في طور البناء. في المعسكر تقف أيضاً مباني المطبخ. مشروع تجريبي تعمل فيه مجموعة امتيازات خاصة، وكذلك صرائف للحمامات والمراحيض. واحد لكل ستة أو ثمانية بلوكات. في عدة بلوكات تتموضع أقسام خاصة. في ثمانية منها، في أقصى شرق المعسكر، هناك عيادات ومستشفيات. البلوك رقم عشرون وأربعة ال Krätzeblock معد لمرضى الجرب. بلوك رقم 7 الذي لم يدخل إليه يوماً أي شخص، مخصص ل Prominenz أي أرستقراطية الأسرى الذين في أيديهم مهمات عالية. بلوك سبعة وأربعون الذي يسكن فيه ال-Reichsdeutsche (ألمان من أصول آريه، أسرى جنائيون أو سياسيون) بلوك تسعة وأربعون-للكافوس، فقط. بلوك اثنا عشر، يحتله ال- Reichsdeutsche ، والكافوس ونصفه تحتله

الكانتينا التي فيها قسم التبغ ومسحوق التطهير وأحياناً حاجيات إضافية. بلوك سبعة وثلاثون، الذي فيه تنوجد المكاتب:مكتب المدير العسكري ومكتب لشؤون العمل. وأخيراً البلوك تسعة وعشرون الذي شبابيكه مغلقة دائماً لأن هذا Frauenblock، بلوك النساء –ماخور المخيم وتعمل فيه شابات بولونيات. وهو مخصص ل Reichsdeutsche البلوكات لسكن الأسرى العاديين مقسمة إلى قسمين، في أحدها Tagesraum - الباحة، حيث يسكن رئيس الصريفة ورفاقه. هناك طاولة طويلة، كراسي، مقاعد، وفي كل مكان منشورة في فوضى،حاجيات غريبة بألوان صارخة وصور وقصاصات صحف ومجلات، رسوم، أزهار اصطناعية. وعلى الجدران شعارات وأمثال، وأبيات شعر تمجد النظام والانضباط والنظافة. في إحدى الزوايا هناك خزانة من الزجاج وفيها عِدّة قص الشعر Blockfrisör – حلاّق البلوك- قدور الشوربة، عصاتان من المطاط، واحدة فارغة داخلياً والثانية مليئة وهما تستعملان للمحافظة على النظام والانضباط، بالطبع. في القسم الثاني يوجد الأسرى. هناك مئة وثمانية وأربعون سجيناً في ثلاثة طوابق. الكثافة كبيرة كما في خلية النحل. كل منطقة الحائط وحتى السطح مستغلة بكثافة. بين الأرائك توجد ثلاث ممرات. هنا يعيش الأسرى البسطاء. مئتان، مئتان وخمسون في كل صريفة، اثنان في كل أريكة. الأريكة مبنية من الخشب وعلى أرض الغرفة منثور قش دقيق وبطانيتان.

الممرات ضيقة إلى حد أنه بصعوبة يمكن أن يمر اثنان معاً. مساحة الممر الفارغة ضيقة جداً إلى درجة أن سكان البلوك نفسه ليسوا قادرين أن يكونوا معاً فيه، إلاّ إذا اضطجع نصفهم في الأسِرّة. من هنا منع الدخول إلى البلوك إذا لم تكن من سكانه. في مركز المعسكر ساحة لصف الجنود واسعة الأطراف. هناك يجتمعون في الصباح لتركيب فصائل العمل وفي المساء يقفون للعد. مقابل ساحة العد، هناك منطقة أعشاب معتنى بها، عليها يقيمون أعمدة الإعدام، حسب الحاجة.

بسرعة تعلمنا أن سكان المعسكرات ينقسمون إلى ثلاث مجموعات: سجناء جنائيون، سجناء سياسيون واليهود. كلهم يلبسون ملابس مرقطة. كلهم هبلنغ.

ومع هذا ليسوا سواء. للجنائيين رقم مُخَيَّط على قبة القميص وبجانبه مثلث أخضر، للسياسيين مثلث أحمر، اليهود وهم الأكثرية، علامتهم نجمة داوود الصفراء والحمراء. رجال الإس. إس ليسوا كثيرين، وعادة هم خارج المخيم. يُرون نادراً، عملياً أسياد المعسكر: هم المثلثون الخضر، ويعملون بنا ما يشاؤون. مساعدوهم وهم ليسوا قلائل. مجندون من المجموعتين الأخريين.

كذلك، تعلمنا بسرعة، كل واحد حسب طبعه، أن نجيب : Jawohl وأن لا نسأل الأسئلة ودائماً، في كل وقت. أن نعطي انطباعاً أن الأمر مفهوم. الآن- نحن أيضاً تعلمنا أن ننظف الصحن تماماً، بحيث لا تضيع حتى نقطة شوربة. الصحن نمسكه إلى جانب الفم، عند الأكل حتى لا تسقط ولا نقطة من الأكل. الآن نحن أيضاً نعرف، أن وجبة شوربة أُخذت من القسم الأعلى من القدر، لا تشبه وجبة الشوربة التي تؤخذ من أسفله. وتعلمنا كيف نُقدر حسب حجم القدر، إذا كان من الأفضل أن نقف في أول الطابور أم في نهايته.

تعلمنا أن لكل شيء استعمالاً في المعسكر. بسلك حديدي من الممكن أن نربط الحذاء، بالخرق-أن نعصب الرجلين، بالورق-أن نلف الملابس(هذا غير قانوني) المعطف يساعد بشكل أفضل على مواجهة البرد. ولكن تعلمنا أيضاً، أن كل شيء ممكن سرقته. بل من المؤكد أن يُسْرق إذا، للحظة، لم تقف على حراسته. طبعاً. يجب الحذر من السراقين، وتعلمنا أن ننام بينما رأسنا مستند إلى كل حاجياتنا، من الحذاء ، وحتى صحن الأكل، كل شيء ملفوف داخل المعطف.

إننا أصبحنا نعرف كثيراً من القوانين الصارمة للمخيم، المعقدة بشكل مذهل. في المعسكر هناك ممنوعات لا تعد ولا تحصى. لا يجوز الاقتراب أكثر من مترين من جدار السلك المعدني، ممنوع النوم بالعطف، أو بدون الغيارات الداخلية أو مع القبعة على الرأس، لا تستخدم المرحاض أو الحمام الخاصين لNur für Kapos – (فقط للمسؤولين) أو Nur für Reichsdeutsche (للألمان الآريين) ولا يجوز الذهاب إلى الحمامات في الأيام الممنوعة بدلاً من الأيام المسموح بها. ولا يجوز

الخروج من الصريفة بمعطف مفتوح أو بقبَّة مرفوعة. ممنوع توظيب الملابس بورق في سبيل التدفئة قليلاً. ممنوع الاستحمام إلاّ والقسم الأعلى من الجسم عارٍ.

كل يوم نحن بطقوس ليس فيها ذرة منطق. كل صباح، يجب ترتيب الفراش حسب أنظمة صارمة. البطانيات يجب أن تكون مشدودة ويجب أن نمسح بزيت الماكنات القباقيب التي علق بها شيء مُقْرف، يجب أن ننفض عن الملابس الوحل اليابس (مقابل هذا لا يدققون على تنظيف الدهان والزيوت والصدأ). في المساء يجب العبور في مراقبة عدم وجود القمل وتنظيف الأرجل. في السبت يجب أن نحلق ذقوننا. أن نخيط ونصلّح خِرَقنا. يوم الأحد يفحصون إذا كان في جاكيتاتنا خمسة أزرار، كالمطلوب. مئات الأعمال التي عادة تُعْمل بدون صعوبة تتحول هنا إلى مشاكل صعبة، وإذا كانت أظافر اليد طويلة يجب قصها. ولكن حيث لا يوجد في حوزتنا آلة حادة لا مفر أمامنا إلاّ استعمال أسناننا (أظافر الرجلين تُقص بواسطة القبقاب). إذا سقط فجأة زر من ملابسك، هنا يجب استعمال القوة لإعادته إلى مكانه. عليك أن تحمل معك كل حاجياتك إلى مكان، في كل وقت، أيضاً إذا كنت تغتسل أو "تقضي حاجياتك". عندما تغسل وجهك عليك أن تحافظ بقوة على حاجياتك مشدود عليها بين الركبتين-وإلاّ فإنهم يسرقونها. إذا كان الحذاء ضاغطاً عليك الوقوف لتغييرها. هنا تُمْتحن سرعتك، خلال ضجة كبيرة عليك أن تختار بسرعة النعل (لا الزوج) المناسب لك، لأنك بعد أن تكون قد أخذته لست حراً أن تستبدله بآخر.

ولا يظنن أحد أن الحذاء، في المخيم، هو أمر بسيط ، الموت يبدأ بالنعال. وقد تبينت النعال لأكثريتنا كأداة للتعذيب القاسي. بعد عدة ساعات من السير، تنشأ جراح مؤلمة آخرها تلوث خطير. مَن أُصيب بهذه الضربة يضطر أن يسير كأنما قطعة من الحديد مربوطة لرجليه (وبهذا تفسير ذلك المشي الغريب لذلك الجيش التعيس الذي يعود كل مساء من العمل في مسيرة احتفالية). ولذلك يصل الأخير لكل مكان، والضربات دائماً تُوَجه إليه، وليس بإمكاننا أن نهرب إذا لاحقوه، الأرجل تنتفخ وليس بإمكانه أن يهرب إذا طاردوه. رجلاه تنتفخان وكلما تعمق الانتفاخ في

اللحم هكذا يزداد الألم . بسبب الاحتكاك بالخشب وبالقبقاب. وعندها لا مفر من الذهاب إلى المستشفى، ولكن الدخول إلى المستشفى بسبب dicke Füsse (انتفاخ الرجلين) يعتبر حكماً بالإعدام، حيث من المعروف أنه لمرض كهذا لا يوجد دواء، وهذا معروف لرجال إس. إس.

وحتى الآن لم نذكر، ولو بالتلميح، قوانين العمل. هذا المجال فقط مرتبط بشبكة من القوانين والممنوعات المختلفة وقضايا كثيرة العدد.

الجميع يعملون ما عدا المرضى. حتى يعترفوا بك كمريض عليك أن تكون خبيراً ومعتاداً على أسرار المخيم، كل صباح يخرجون وكل مساء يعودون. للعمل نحن موزعون إلى مئتي كوماندوس (مجموعات عمل) وفيها حتى مئة وخمسين عاملاً تحت قيادة آمر. هناك مجموعات عمل جيدة وهناك رديئة. أغلبية الناس يعملون في التحميل والتفريغ. العمل صعب بشكل خاص، في الشتاء، لأن العاملين دائماً في الخارج. هناك أيضاً مجموعات عمل للمختصين (كهربائيين، حدادين، بنائين، خرّاطين، ميكانيكيين، ألخ)، وكل مجموعة تابعة لمسؤول أو لقسم في "البونا" وتابعة مباشرة لرئيس الفرقة) Meister) والرؤساء عادة ألمان أو بولونيون. هذا النظام قائم، بالطبع، في ساعات العمل لا يأخذ المختصون المهنيون(ثلاثمائة أو أربع مائة) امتيازاً أو معاملة خاصة. قسم خاص لArbeitsdienst-وزارة العمل- منوطة به مهمة اختيار المتخصصين من بين السجناء، ودمجهم في المجموعات المهنية. وعندها صلة دائمة بالإدارة المدنية للبونا. في Arbeitsdienst يأخذون القرارات حسب مقاييس عبثية. ولكن كثيراً ما كان يُلاحظ أن هذه المعايير تستند إلى تفضيلات شخصية وأشكال مختلفة من الفساد. لذلك فإن من ينجح في كسب إضافة تغذية، في آخر الأمر، هو من ينجح في أخذ عمل مريح في البونا.

طول مدة العمل يتغير حسب فصول السنة. كل ساعات النهار محسوبة ساعات عمل. لذلك يعملون على الأقل من الساعة الثامنة صباحاً حتى الثانية عشرة ظهراً، ومن الثانية عشرة والنصف حتى الرابعة(في الشتاء).وعلى الأكثر من السادسة والنصف صباحاً حتى الثانية عشرة ظهراً، ومن الواحدة ظهراً إلى السادسة مساء (في

الصيف). السجناء لا يكونون إطلاقاً في الخارج في العتمة أو الضباب الثقيل. بالمقابل، يستمر العمل كالمعتاد، إذا هطل المطر، أو الثلج (وهذا يحدث كثيراً) أو عندما تهب ريح قوية من جبال الكرفات. سبب الأمر، بالطبع، أنه في الظلام أو في الضباب ممكن أن تكون محاولة هرب.

كل سبت ثانٍ عملنا كالمعتاد، وفي الأيام الأولى للأعياد شغَّلونا في أعمال الصيانة في المعسكر. بدلاً من أن نعمل في البونا. وهكذا كانت أيام الاستراحة قليلة جداً.

هكذا كانت حياتنا: كل يوم كالآخر:Ausrücken und Einrücken أن نخرج وأن نعود. نعمل وننام، نأكل ونمرض، نشفى أو نموت... وحتى متى؟ القدامى يضحكون عند سماع السؤال: إنه سؤال مميز للجدد الذين جاءوا للتو من العمل. يضحكون ولا يجيبون. منذ شهور وسنين ومسألة المستقبل البعيد لا تشغلنا، أبداً، وليس لها أي معنى في نظرنا مقارنة مع الأسئلة العاجلة والعملية للوضع الراهن أو المستقبل القريب: كم من الطعام نتلقى اليوم؟ هل يسقط الثلج؟ هل نضطر أن ننزل الفحم من الشاحنات؟.

إذا كان في دماغنا قليل من المنطق علينا أن نُسلِّم بالحقيقة الواضحة كالشمس، أننا لا يمكن أن نتوقع مصيرنا، وأن كل تخمين هو عشوائي وعديم الأساس في الواقع. ولكن، عندما الوجود كله عليه علامة سؤال، الناس يفكرون بمنطق فقط في أوقات متباعدة. في وضع كهذا يفضلون أخذ مواقف متطرفة. وهكذا انقسمنا، كل واحد حسب طبيعته، إلى معسكرين: هناك مَن اقتنعوا حالاً أن كل شيء مضاع فهنا من غير الممكن الحياة، والموت هو مؤكد وقريب. آخرون كانوا متأكدين، أنه حتى في ظروف الحياة الأكثر صعوبة من الممكن أن ننجو، وربما قريباً. إذا كان في قلبنا ايمان وكنا أقوياء-سوف نعود إلى بيوتنا ونعانق أعزاءنا. مفهوم أن التقسيم إلى نوعين المتشائمين والمتفائلين ليس جاداً إلى هذا الحد، ليس لأن كثيرين لا يريدون أخذ موقف قاطع، بل لأن الأكثرية ليست حازمة في تفكيرها وذاكرتها ضعيفة، هذه الأكثرية تتحرك بين كلا الموقفين المتطرفين وتقرر موقفها حسب تفكير الإنسان الذي يتحدثون إليه في تلك اللحظة.

وهكذا أنا في جهنم السفلى. من الممكن أكثر محو الماضي من الذاكرة وتجاهل المستقبل. نتعلم هذا الفن بسرعة فائقة عندما نضغط الساعة. خمسة عشر يوماً، بعد قدومي إلى المعسكر أنا أصبحت جائعاً مثل الآخرين، جوع دائم، الناس الأحرار لا يعرفونه. جوع يظهر في كل ألامنا في الليالي، يجلس بشكل دائم في كل أنحاء أعضاء جسمنا. لقد تعلمت كيف أحافظ على حاجياتي لكي لا تُسْرق. وفوق هذا، إذا وجدت ملعقة أو خيطاً لتخييط زر، يُمكن أخذه بدون المخاطرة بعقاب فإنني أسرع لخطفها وأحس أنها ملكي قانونياً. لقد ظهرت على رجلي جراح لن تصح، أنا أدفع العربات، أحمِّل، أتعب جداً في المطر، ارتجف في الريح، جسمي لم يعد لي، بطني منفوخ، أعضاء جسمي متجمدة وهزيلة، الوجه مثل العجين في الصباح، ومنفوخ في المساء، جلد البعض منا أصبح ذا لون أصفر، وآخرون جلدهم أغبر كالرماد. عندما لا نلتقي ثلاثة أو أربعة أيام نجد صعوبة في التعرف على بعضنا.

نحن، الطليان، قررنا أن نلتقي كل يوم أحد، في ساعات المساء، في إحدى زوايا المعسكر. ولكن، تقريباً فوراً توقعنا، فمن المحزن جداً أن نكتشف في كل مرة، أن عددنا يتناقص، فبين لقاء وآخر، كل مرة، كان عددنا يتناقص، بين كل لقاء وآخر، فقدنا شيئاً من صورتنا الإنسانية، وأننا تعيسو المنظر أكثر فأكثر، وحتى تلك الخطوات إلى مكان اللقاء كانت مُرْهقة جداً، وأكثر من ذلك، من الطبيعي أننا في تلك اللقاءات نتذكر، نفكر، بينما في وضعنا من المفضل أن يغرق كل شيء في هاوية النسيان.

التدريب

عدة أيام جرجروني ذهاباً وإياباً، من بلوك إلى آخر ومن كوماندو إلى آخر. وأخيراً، تقرر أن أسكن، بشكل دائم، في البلوك رقم ثلاثون. في أريكة النوم التي ستكون لي، ينام ديانا. ديانا يستيقظ، وعلى الرغم من ضعفه وعجزه، فإنه يخلي لي مكاناً إلى جانبه، ويستقبلني بود.

لست قادراً أن انام، وللحقيقة، فإن نومي يهرب مني بسبب التوتر والخوف اللذين لم أستطع التغلب عليهما. لذلك فإنني أتكلم وأتكلم وأتكلم...

أسئلة عديدة في فمي. أنا جائع، كيف أنجح في الأكل غداً، بدون ملعقة، عندما يوزعون الشوربة؟ وأين أحصل على ملعقة؟ وأين يرسلوننا للعمل؟ ديانا، بالطبع لا يعرف الأجوبة أفضل مني، ولذلك يجيب بأسئلة خاصة به، ولكن فوقنا وتحتنا، من قريب ومن بعيد، من كل اتجاه في الصريفة المظلمة تُسْمع أصوات صراخ مخنوق وغاضب.

Ruhe, Ruhe الصمت، الصمت!

أفهم أنهم يطلبون مني أن أتوقف عن الكلام. ولكن أنا لا أعرف الكلمة، ولأنني لا أفهم معناها فإن خوفي يزداد. اختلاط اللغات هو أساس هام لطبيعة الحياة هنا. نحن موجودون من الصباح إلى المساء في برج بابل. كلهم قادة ويهددون بالصراخ، بلغات لم أسمعها في حياتي، قبل ذلك. سيء ومُر مصير مَن لا يفهم فوراً. ليس عند أحد وقت للصبر، ولا أحد يستمع إلى أقوال الآخر. نحن الجدد، مشاعرنا تقول لنا أن نجتمع في الزوايا كمجموعة من الخِراف، مستندين إلى الجدران لنحس، على الأقل، بمسند مادي.

وهكذا فإنني أتوقف عن السؤال وخلال وقت قصير أنام نوماً مراً ومتوتراً.ولكنني لا أجد الراحة. كل الوقت يهددونني، يتربصون بي. في كل لحظة جسمي يداس.

أحلم. يخيل لي أنني أنام في الشارع. على الجسر. عند مدخل الباب الذي منه يدخل ويخرج جمهور من الآدميين. اليقظة تفاجئني. كل الصريفة تتزعزع من الأساس حتى الحيطان. الأنوار تضاء. الكل يتجولون حولي كما لو أصابهم جنون. ينفضون البطانيات التي تتطاير منها غيوم من الغبار ذي الرائحة الكريهة، يلبسون بسرعة، يركضون إلى الخارج إلى المراحيض. وهم أنصاف عراة، في البرد الذي يخترق العظام، كثيرون يبولون وهم راكضون، مثل البهائم، خوفاً أن يتأخروا، فبعد خمس دقائق يبدأ توزيع الخبز – Pain-Lechem-Kenyér -Brot-Broit-Chleb، هذه الكتلة الغبراء المقدسة، التي دائماً تبدو عملاقة في يد الجار وصغيرة في يدك. الرقصة الجنونية اليومية التي في النهاية يتعودون عليها، ولكن في الأيام الأولى، المشهد يبدو غير محتمل. بين أزواج المعتقلين الجدد انفجرت نقاشات، كثيرون تذمروا على ما كان من نصيبهم وحسدوا رفاقهم لحظهم الجيِّد. نهاية النقاش أن البعض تبادلوا مع الآخرين الأرغفة، ولكن عندها يعيش البعض في الوهم، وكلهم يحسون أنهم مظلومون وغير راضين.

الخبز هو أيضاً نقودنا. في اللحظات القليلة التي بين توزيع الأكل والأكل تدوي في البلوك أصوات الخصام والهياج. إن هذه هي رقصة الشياطين لأصحاب الديون من أمس الذين يطالبون بسداد الديون في الوقت الوحيد الباقي للإمساك بمن عليهم ديون. عندما تهدأ الأمور، كثيرون يستغلون الانفراج حتى يتوجهوا ثانية إلى المراحيض ليغتسلوا جيِّداً. المغاسل مثيرة للقرفً. الضوء ضعيف في الداخل والرياح تدخل عبر الثغرات. رصفية الحجارة مغطاة بطبقة سميكة من الوحل. الماء لا يجوز شربه. رائحته تبعث على الغثيان، وفي الحنفيات لأوقات متقاربة لا يوجد ماء. الجدران مغطاة برسومات تربوية. مثلاً، نرى رجلاً "جيِّداً" القسم العلوي من جسده عارٍ، يغسل بالصابون جمجمته المحلوقة، الوردية، وإلى جانبه الرجل "السيء" وهو صاحب أنف يهودي بارز، وجهه ميّال إلى الخضرة، على جسده ملابس قذرة، على رأسه قبعة، وهو يغرق، في حذر، طرف إصبعه في الماء. تحت الرجل الجيِّد مكتوب: So bist du rein (هكذا أنت نظيف) وتحت الرجل السيء مكتوب: So

gehst du ein (هكذا أنت تضيع) وبالفرنسية- مع أخطاء ولكن بحروف بارزة: la propreté, c'est la santé (النظافة هي الصحة).

على الجدار المقابل لوحة بارزة للعيان لكلمة عملاقة بيضاء حمراء سوداء، وبجانبها كتابة:Eine Laus, dein Tod (قملة واحدة وأنت ميِّت) وكذلك الشعر الرائع:

Nach dem Abort, vor dem Essen
Hände waschen, nicht vergessen[3].

أسابيع كثيرة رأيت التحذير بالمواظبة على النظافة، إحدى الخطوط المميزة للروح الألمانية، بشكل شبيه للحوار حول الحزام الذي يدعم الكُسْر الذي سمعناه عندما أتينا إلى المخيم. ولكن، بعد ذلك فهمت أن المؤلفين المجهولين لهذه الأقوال، بدون أن يشعروا، كانوا غير بعيدين عن بعض الحقائق الهامة. في هذا المكان، الاغتسال اليومي في المياه القذرة وفي الجرن المغطس من الأوساخ لا يساعد على نظافة الجسد والصحة.ولكن مجرد العمل هام للغاية كتعبير عن الحيوية، وهو وسيلة للمحافظة على الروح.

عليَّ أن أعترف: بعد أسبوع من الإقامة في المعسكر لم أعد أحس أنني يجب أن أغتسل، أتجول هنا وهناك، قرب المغاسل، والتقي مع شتاين لاوف، صديقي ابن الخمسين. نصف جسده عارٍ، يقف ويغسل بقوة عنقه وكتفيه، وتقريباً لا ينظف شيئاً، حيث ليس معه صابون. شتاين لاوف يراني، يحيي ويسأل برصانة لماذا لا أغتسل. ولماذا عليَّ أن أغتسل؟ هل أحس أفضل مما أحس الان؟ هل سيُعْجب بي أحد ما؟ هل أعيش يوماً واحداً أكثر، إذا اغتسلت؟ بالعكس، ربما أعيش أقل، لأن الاغتسال يتطلب جهداً، تضييعاً للقوة والحرارة. ألا يعرف شتاين لاوف أنه بعد

[3] بالألمانية: بعد المرحاض وقبل الأكل لا تنسَ أن تغسل يديك.

نصف ساعة من إنزال أكياس الفحم، لن يكون فرق بيني وبينه؟ كلما زدت من التفكير هكذا، يبدو لي أكثر فأكثر أن غسل الوجه في وضعنا هو عديم الطعم وبلا فائدة عادة عبثية أو أسوأ من ذلك، عودة بائسة على طقس عفا عليه الزمن. نموت كلنا، كلنا سوف نموت، إذا بقيت لي خمس دقائق بين اليقظة والذهاب إلى العمل، أريد أن أكرسها لشيء ما آخر، للانعزال، للتفكير، للتأمل في السماء . وللتفكير أنني ربما أراها للمرة الأخيرة، فقط أن أفكر أنني حيّ لعدة دقائق، أو ربما أستمتع بخمس دقائق بلا عمل.

ولكن شتاين لاوف يصرخ بي لقد أنهى الاغتسال، ينشف نفسه بمعطف وضعه قبلاً بين وركيه. وبعد قليل سوف يلبسه. يعلمني درساً مهماً بحد ذاته.

لقد نسيت كلماته البسيطة والواضحة وأنا متأسف على ذلك. كلمات الشاويش شتاين لاوف من الجيش النمساوي-الهنغاري الحاصل على وسام بطولة، الصليب الحديدي، من الحرب العالمية الأولى. يؤسفني أنني سأضطر أن أترجم اللغة الايطالية الركيكة التي عنده وبساطة تفكير جندي طيِّب إلى لغتي، لغة المشكك الذي في داخلي. ولكن مضمون أقواله لم أنسه منذ ذلك الوقت وإلى الآن. بالذات لأن المخيم هو ماكنة مشحمة جيداً، هدفها أن تحولنا إلى بهائم، وممنوع أن نتحول إلى بهائم. أيضاً في هذا المكان يمكن أن نبقى على قيد الحياة. ولذلك يجب أن نرغب بأن نبقى أحياء. حتى نروي للآخرين، حتى نشهد، وحتى نعيش يجب أن ننقذ على الأقل الهيكل، أن نحافظ على روحنا الإنسانية. يقيناً أننا عبيد، بلا حقوق ، بالإمكان الإساءة إلينا وإهانتنا. محكوم علينا بالموت بالتأكيد. ولكن أمر واحد بقي لنا لنعمله، ونحن يجب أن نعمله بكل قوتنا، لأن هذا هو الأمر الوحيد والأخير الذي بقي لنا – يمكننا أن لا نوافق على أعمالهم ولذلك، بدون أدنى شك، نحن ملزمون أن نغسل وجوهنا، بدون صابون، بماء قذر، وان ننشف أجسادنا بالعطف، علينا أن نمسح أحذيتنا بالممسحة السوداء، ليس لأن هذا ما يقرره الدستور، بل لنحافظ على شرفنا وعلى النظافة. يجب أن نسير بقامة مرفوعة، بقوة ليس انصياعاً لأوامر الانضباط البروسي بل لكي نبقى في الحياة، لكي لا نبدأ بالموت.

هذه الأمور قالها لي شتاين لاوف، الإنسان ذو الإرادة الطيبة. كلماته بدت غريبة في مسامعي، وكنت قادراً أن أوافق معه، فقط جزئياً. أذناي تعودتا على تعاليم خفيفة ومرنة أكثر، تسمع منذ مئات السنين في الجانب الآخر لجبال الألب. حسب هذه التعاليم، من الهراء وسوء الروح بذل الجهد لابتلاع الأساليب الأخلاقية التي اخترعها الآخرون، في أماكن أخرى. لا، الحكمة والمزايا الجيدة عند شتاين لاوف طبعاً مناسبة له، ولكن ليس فيها ما يرضيني.

مقابل العالم الشرس والمعقد هذا، أكاد أصاب بمس: هل أضطر أنا، أيضاً، أن اخترع طريقة ما وأعيش على أساسها؟ أو ربما، من المرغوب به أن أستسلم لحقيقة أنه ليس عندي أية طريقة؟

Ka-Be

يوم يلحق بيوم. ليس سهلاً عد الأيام ، لأنها متشابهة مثل قطرتي ماء. لا أعرف كم مرة أشرقت الشمس، ولكن نحن نذهب من محطة القطار إلى المخزن، أزواجاً ونعود هكذا. نمشي حوالي مئتي متر على الثلج الذائب قليلاً، إلى المخزن، مع الحِمْل، وفي العودة تكون أيدينا ممدودة على الجانبين. لا ننبس ببنت شفة.

حولنا الكل معادٍ. وفي الأعالي الغيوم الشريرة التي تغطي عين الشمس. حيثما توجه نظرك، المناظر تبعث على الانقباض، أسلاك ملتوية تسد أمامك الطريق، من كل جانب، لم نتمكن، يوماً، أن نرى أين هي تنتهي. ولكننا نحس جيِّداً، بحضورها في كل مكان، جدار الأسلاك الجهنمي، يفصل بيننا وبين العالم على السقالات والقطارات المسافرة ببطء، في المناجم، في الطرق، في المكاتب- أناس، أناس، أناس. عبيد وأسياد. الأسياد الذين هم عبيد لأنفسهم، والعبيد يحركهم الخوف والرعب. أما السادة فتحركهم الكراهية. أية قوة أخرى لا تحركهم. كلهم اعداء أو خصوم.

لا، للحقيقة، أن رفيقي اليوم الذي يحمل العبء معي لا أرى فيه عدواً أو خصماً.

هو Null Achtzehn. ليس له اسم آخر. صفر ثمانية عشرة. الأرقام الأخيرة في الرقم الذي حُفِرَ على ذراعه. واضح للجميع أن الإنسان فقط جدير أن يكون له اسم. بيننا نول اختسن لم يعد إنساناً. يبدو لي أنه نسي اسمه، وعلى أية حال، هو يتصرف كما لو كان نسيه حقاً. عندما يتكلم، عندما ينظر، يتشكل الانطباع أن نول اختسن هو أداة فارغة، قشرة إنسان يشبه الحشرات التي يُمْكن أن نلقاها عند أطراف المستنقعات مرتبطة بخيوط دقيقة إلى الحجارة،، والريح تحركهم لكل اتجاه.

إنه شاب جداً. بهذا يوجد خطر على بقائه. ليس فقط لأن الشبان يجدون صعوبة أن يصمدوا في التعب والصوم، ولكن بالأساس لأنك هنا يجب أن تكون مجرباً، حتى

تصمد في الحياة وحتى تقف في صراع الواحد ضد الكل، هذه التجربة التي شبان قلائل فقط ينجحون في اكتسابها. نول اختسن ليس ضعيفاً بشكل خاص ولكن لا أحد يريد أن يكون شريكه في العمل. هو لا مبالٍ جداً لكل ما يحيط به إذا كان لا يهرب أو يتهرب من العمل الصعب أو من الضربات. وهو لا يحاول التفتيش عن طعام إضافي، ينفذ كل الأوامر، وعندما يرسلونه إلى الموت، بدون شك، يذهب إليه، بنفس اللامبالاة.

ليس عنده حتى الخُبْث البسيط لخيول العمل، الذين يتوقفون عن الجر قبل قليل من ضعفهم الشامل، إنه يجر، يُحَمِّل، يدفع ما دامت عنده قوة، وعندما لا تبقى عنده قوة إطلاقاً، ينهار فجأة ويقع بدون تنهد الإنذار، وحتى لا يرفع عينيه المغمضتين والمقلقتين إلى السماء، هذا يذكرني بالكلاب التي تجر، في كتب جاك لندن، التي تجر العربة حتى اللحظة الأخيرة من حياتهم، وبسرعة يسقطون ويموتون.

لذلك، نول اختسن يعمل أكثر من الجميع لأن كل واحد يحاول أن يعمل أقل، قدر الإمكان. هو يعمل عملاً شاقاً، وهو شريك خطير، ولذلك لا أحد يريد أن يعمل معه. وبسبب أن لا أحد يريد أن يعمل معي، لأنني ضعيف اليدين وهزيل، فإننا نجد أنفسنا ، عادة معاً، رفيقين.

مرة أخرى، عائدون من المخازن، نجر أرجلنا في تعب. القطار يطلق صفارة، ويجبرنا على التوقف. نول إختسن وأنا راضيان من التوقف المفروض وننتظر. ظهْرُنا منحنٍ وملابسنا بالية، ننظر إلى القاطرات التي تمر ببطء، واحدة وراء الأخرى.

Deutsche Reichsbahn, Deutsche Reichsbahn... (القطار الألماني) وبعد ذلك قاطرتان روسيتان وعليهما شعار المطرقة والمنجل الذي لم يتم محوه. ومرة أخرى Deutsche Reichsbahn وبعده .8 Cavalli Uomini 40. Tara. Portata : قطارايطالي[4]... الصعود إليه، الاختباء

[4] بالايطالية: 8 خيول، 40 رجلاً، الوزن، القدرة على الحَمْل.

تحت أكياس الفحم، في زاوية مظلمة، الجلوس بصمت، بلا حركة، والاستماع بمتعة قصوى إلى صوت العجلات وهي تتدحرج على خطوط السكة. أنا متأكد أنني بسماع هذا اللحن، أنسى الجوع والتعب. فجأة يتوقف القطار، وأنا أتنشق إلى داخلي الهواء الدافيء وإلى أنفي تصل رائحة الأعشاب الجافة. أخرج إلى الخارج، للشمس، وأقع على الأرض، وأقبِّل التراب، تماماً، كما في الكتب، وجهي داخل العشب، تمر بجانبي إمرأة، وتِسأل بالايطالية: "مَن أنت؟" وأنا أقص لها بالايطالية، هي تفهم تعطيني طعاماً، وتقترح علي سريراً للنوم، ولا تصدق ما أقول إلى أن أريها الرقم المحفور على ذراعي.وفقط عندها تصدقني.

...النهاية. الحافلة الأخيرة تمر. وكما في المسرح عندما تُرفع الستارة، مقابلنا مباشرة كومة من أعمدة الحديد يقف فوقها"الكافو" وفي يده كرباج، والزملاء الموزعون أزواجاً يتمشون هنا وهناك. الويل للحالمين. يقظة. ممزوجة بالأسف والحزن الذي من الصعب احتماله. لحسن الحظ في أحيان متباعدة فقط نحن نحلم باليقظة. أحلام قصيرة، لأننا نحن بهائم متعبة فقط.

مرة أخرى، نحن إلى جانب مخزن الحديد. ميشا والرجل من غاليتسيا يرفعان العارضة الحديدية ويضعانها، في قسوة، على كتفنا. عملهما متعب، أقل من باقي الأعمال، لذلك فإنهما، الاثنين، يبديان نشاطاً حتى يعطونهما إمكانية مواصلة هذا العمل، يحثون البطيئين، يوقظون، يصرخون، يقررون وتيرة العمل التي من غير الممكن القيام بها. غضبي يثور في داخلي مع أنني منذ مدة قصيرة تعلمت أن تصرفاً كهذا، يغيَّر النظام هنا، أصحاب الحقوق الزائدة يضطهدون الضعفاء، وهذا القانون "الإنساني" هو الأساس الذي عليه يقوم كل المبنى الاجتماعي للمعسكر.

هذه المرة أنا أتقدم إلى الأمام. الصفيحة ثقيلة جداً ولكن قصيرة. لذلك، مع كل خطوة وخطوة أنا أحس من ورائي، أن قدمي نول اختسن تتورطان بين رجلي. إنه ليس قادراً أو أنه لا يحاول بالمرة، أن يُكيِّف مشيته لمشيتي.

عشرون خطوة. وصلنا إلى سكة الحديد. هناك يجب القفز عن كابل خط مشدود. شيء ما تلخبط لأن الخط ليس موضوعاً كما يجب على كتفينا، ويميل إلى

السقوط خمسين خطوة أو ستين. بوابة المخزن. بعد بضعة خطوات نقدر ان ننزل عن أكتافنا الحِمْل. كفى، لا يمكن التقدم ، لأن لوح الحديد انزلق تقريباً كله على اليد وهو يضغط جداً. لست قادراً أن أتحمل أكثر الألم والتعب. أنا أصرخ، أحاول أن أدور، فأرى نول إختسن قد فشل وهو يُسْقط لوح الحديد.

لو كنت مرناً، كما كنت مرة، بالتأكيد كنت أستطيع القفز جانباً. ولكني على الأرض أمسك بيدي رجلي التي تضررت. كل الشرايين متوترة، وتقريباً أنا في غيبوبة من الألم. طرف لوح الحديد أصاب الجانب الخلفي من رجلي اليسرى.

وعيي يصبح ضبابياً للحظة من الأوجاع والدوخة. وعندما أنجح في أن أرى ما يحدث حولي فإن نظري يلتقي بنول إختسن واقفاً بلا حراك، يداه في جيبيه، صامت وينظر إلي بتعبير أبكم. ميشا والشخص الذي من غليتسيا يتقدمان، يتحدثان أحدهما مع الآخر بالايدش، وفي فم كل منهما نصائح لا أفهمها. يقترب أيضاً تمبلر ودافيد وكل الآخرين. يستغلون الذهول حتى يوقفوا العمل. وأخيراً يقترب الكافو، يرفع الكرباج، يضرب في كل اتجاه، يشتم. الزملاء يتفرقون إلى كل اتجاه، يتفرقون مثل أوراق تتبعثر في الريح. نول إختسن يرفع، ببطء، يده إلى أنفه، يزيحها وهو ذاهل من بقع الدم التي عليها. أنا أتلقى فقط ضربتين على الرأس، ليستا موجعتين، لأنهما تخففان الحواس.

الحادثة تنتهي. يبدو أنه لم تنكسر أية عظْمة. لأنني أستطيع الوقوف مستقيماً جداً. لا أجرؤ أن أخلع النعل خوفاً من أن يشتد الألم أيضاً لأنني أعرف أن الرِجْل تنتفخ وعندها لا أقدر أن أنتعل الحذاء

الكافو يرسلني لتبديل الرجل من غيليتسيا قرب كومة الصفائح وهو يذهب إلى نول إختسن ويوجه إليّ نظرات مليئة بالحقد. بعد وقت قصير ننهي العمل، لأننا نرى الأسرى الإنجليز عائدين إلى المعسكر.

في مسيرة العودة، أبذل كل جهدي للتظاهر بخفة الرجلين، ولكن أجد صعوبة في السير. الكافو يأمر نول إختسن وفيندر أن يساعداني إلى أن نعبر الإس. إس. وأخيراً،

(لحسن حظي اليوم ليس هناك صف للجنود للاستعراض) أنا في الصريفة، ملقى على سريري وأتنفس قليلاً مرتاحاً.

ربما بسبب الحر، وربما بسبب الاستعراض المتعب، الأوجاع ثانية تهاجمني ومعها إحساس غريب بالرطوبة في رجلي المجروحة. أخلع حذائي، هي مليئة بالدم المتجمد في مزق الخرقة التي وجدتها قبل شهر وربطت رجلي اليسرى بها، ومرة أخرى رجلي اليمنى.

هذا المساء بعد الشوربة، أذهب إلى Ka-Be، كا بي هو اختصار للكلمة الألمانية Krankenbau –مستشفى. ثمانية صرائف، شبيهة في كل شيء إلى بقية الصرائف، ولكنها محاطة بجدار من الأسلاك، في المستشفى ينوجد، بشكل دائم، حوالي عُشْر الأسرى الذين في المعسكر، قلائل يظلون هناك لأكثر من أسبوعين، ولا واحد يبقى أكثر من شهرين. حتى نهاية الشهرين، إما يموتون أو يشفون. مَن يُظهر علامات شفاء يعالجونه، ومن وضعه الصحي يزداد خطورة يرسل إلى أفران الغاز .

مستشفى في المعسكر؟ لماذا؟ لأننا، لحسن حظنا، نُعَد مع "اليهود المفيدين اقتصادياً".

في كا- بي لم أكن يوماً في حياتي. ولا حتى في العيادة. ولذلك فالكل هنا جديد في عينيّ. يوجد هنا قسمان: الأمراض الداخلية والجراحة. طابوران طويلان لأشباح بشر يقفون مقابل الباب في الليل وفي الريح هناك مَن يحتاجون إلى تضميد جرح فقط أو إلى قرص دواء. آخرون يريدون أن يُفْحصوا. آخرون الموت يبدو على عيونهم، الإثنان الواقفان في مقدمة الطابور المزدوج، حافيان ومستعدان للدخول. الطابور يتقدم، وكل مرة إثنان في مقدمته، في ضجيج وفي مدافشة ينزعان الرباطات وأسلاك الحديد التي على الأحذية، وينزعان الخِرَق التي على رجليهما. نفكر ونخمن باللحظة، المناسبة حتّى لا نبقى حفاة مدة طويلة في الوحل، ولكن أيضاً حتى لا نضيِّع الدور: ممنوع منعاً باتاً الدخول إلى كا- بي مع الحذاء، الشخص المكلف بالمحافظة على الأمر هو هفتلنغ إنسان ضخم من أصل فرنسي، يقف أمام سقيفة حراسة بين المدخلين. أحد الموظفين الرئيسيين القلائل في المعسكر، ولا يظن أحد أن الوقوف كل اليوم

بين نعل ممزق هو حق يستحق التمسك به. حيث يكفي أنك تفكر، رغم أنفك، كم من الناس يدخلون إلى كا- بي وهم ينتعلون الحذاء ويخرجون بدون ان يحتاجوا أكثر إلى الحذاء.

عندما يأتي دوري. أنا أنجح بأعجوبة، أن أخلع النعل، وأن أنزع الخِرَق، بدون أن أخسرها وبدون ان ينجح أحد أن يسرق لي الصحن أو الكفوف وبدون أن يهتز اتزان وزني، أمسك بيدي قبعتي التي ممنوع أن ألبسها بأية حال، عند الدخول إلى الصريفة.

أُبقي النعل في المخزن وآخذ ايصالاً مناسباً. أنا حافٍ وأعرج، يداي تمسكان بحوائجي التافهة، التي ليس بإمكاني أن أضعها في أي مكان، وأخيراً يسمحون لي أن أدخل، أنا أقف في الدور إلى غرفة الفحوصات.

هنا يخلعون الملابس تدريجياً، وعلينا ان نصل إلى المدخل عراة، وهناك ممرض يضع لنا ميزان الحرارة تحت الإبط. إذا وصل أحد ما لابساً يفقد دوره ويعود إلى نهاية الدور. الكل ملزمون أن يقيسوا الحرارة، حتى لو عندهم فقط آلام في الأسنان أو القوبة الحلقية.

هكذا يحاولون أن يضمنوا أن لا يخرج إلى مغامرة معقدة مَن ليسوا مرضى بالفعل.

علي أن أدخل: الممرض يأخذني إلى الطبيب. ينظر إلى ميزان الحرارة، ويعلن:Nummer 174517, kein Fieber (للرقم 174517 لا توجد حرارة). معنى هذا انني لست بحاجة إلى فحص أساسي ولذلك حالاً يعلنون أنني Arztvormelder. لا اعرف ما معنى هذا، هذا ليس مكاناً مناسباً لطلب ايضاحات. يخرجونني من الغرفة، أنا آخذ حذائي وأعود إلى الصريفة.

حاييم يحييني. جرحي ممتاز. أبدو خطيراً مما يضمن لي وقتاً طويلاً من الراحة. إذن، أنا أنام في الصريفة، مثل الجميع، ولكن غداً، في الصباح، بدل الذهاب إلى العمل عليّ أن أتوجه إلى الطبيب للفحص نهائياً. هذا هو معنى الكلمة

Arztvormelder . حاييم عليم بأمور من هذا النوع، إنهم غداً سوف ياخذونني إلى كا- بي.

حاييم هو زميلي في السرير وأنا أثق به بلا تحفظ. أصله بولوني، يهودي مؤمن وتلميذ حكيم، ابن جيلي، ساعاتي حسب مهنته، ويشتغل في البونا في الميكانيكا الحساسة ، لذلك هو من القلائل الذين ينجحون في المحافظة على كرامتهم وعلى ثقتهم بنفسهم، لذلك أعد للعمل الذي يجلب الاحترام لأصحابه.

في اليوم التالي هكذا كان: بعد الاستيقاظ وتوزيع الخبز نادونا أن نخرج من الصريفة مع ثلاثة. ساقونا إلى إحدى زوايا ساحة الاستعراض. هناك كان قد وقف صف من الناس، كل ال Arztvormelder لليوم. أحد ما خرج من الصف وأخذ من يدي الصحن، الكف، والقبعة، والكفوف. الكل انفجروا ضاحكين. ألست اعرف أنه كان يجب أن أخبيء الكفوف أو أن أضعهم في الحراسة عند أحد ما أو أن أبيع (الصفقة المربحة جداً) حيث أنه ممنوع جلبهم إلى الكا- بي؟ ينظرون إلى الرقم الذي على ذراعي ويهزون رؤوسهم: ماذا، هل بقي منتظراً من واحد عنده رقم كبير إلى هذا الحد أن يعمل حماقات؟

يعدوننا. يأمرون أن نتعرى في البرد يأخذون الأحذية، ومرة أخرى يعدّون. يبعثوننا إلى الحمّام وعندها يجيء جندي إس.إس. ينظر إلى كل واحد منا نظرة لا مبالاة. يقف إلى جانب واحد يوجد انتفاخ كبير قرب عضوه التناسلي. يخرجه من الصف، مرة إخرى يعدّون ويجبرون على الاستحمام مرة أخرى، مع أننا ما زلنا مبللين من الاستحمام الأول والبعض يختنقون من الحرارة. الآن نحن جاهزون للفحص النهائي. من خلال الشباك تبدو السماء بيضاء، ومن حين لآخر تبدو الشمس. في هذه الأرض بالإمكان النظر مباشرة إلى الشمس المضيئة من خلال الغيوم كأنما من وراء زجاج غامق. حسب موقعها في السماء مرت الساعة الثانية بعد الظهر. يمكن القول وداعاً للشوربة. نحن عشر ساعات على أقدامنا، عراة ست ساعات.

الفحص الطبي أنجز بسرعة مذهلة، الطبيب (بملابس مرقطة مثلنا ولكن فوقها الرداء المهني الأبيض والرقم مخيَّط له على القميص، وهو سمين أكثر بكثير منا) ينظر، يضغط رجلي المنفوخة والنازفة، أصرخ من شدة الألم، وهو يقول Aufgenommen Block 23 (أخرجوه إلى البلوك 23). انا أقف بفم مفتوح من الدهشة، أنتظر توضيحاً إضافياً. ولكن أحدهم يجرني بفظاظة إلى الوراء، يضع معطفاً على عريي، يعطيني صندلاً ويدفعني إلى الخارج.

على بعد مئة متر موجود بلوك رقم 23. فوق الباب مكتوب: Schonungsblock 23)بلوك المعالجات) من يعرف ما معنى هذا؟ في الداخل يأخذون مني المعطف والصندل وانا مرة ثانية عارٍ. أقف أخيراً في صف الهياكل العارية التي تعالج اليوم.

قبل زمن طويل توقفت عن محاولة الفهم فيما يتعلق بي، أنا متعب إلى حد كبير من الوقوف على قدمي المجروحة التي لم يعالجوها. الجوع يعذبني، أكاد أتجمد من البرد، لا شيء يثير انتباهي، بعد. اليوم هو يومي الأخير وهذه الغرفة ربما هي غرفة الغاز التي يتكلم الجميع عنها. ماذا بإمكاني أن أفعل؟ فقط أن أستند إلى الجدار. أن أغمض عيني وان أنتظر.

الواقف في الدور إلى جانبي ليس يهودياً على ما يبدو. غير مطهَّر، وبالإضافة لهذا (هذا أحد الأمور التي تعلمتها حتى الآن) جلده فاتح، وجهه فظ وجسمه جميل، وهذا مميز للبولونيين، وليس لليهود، هو طويل القامة وسحنة وجهه لطيفة للغاية، وجه كهذا تجده فقط عند مَن لا يعانون مِن ذل الجوع.

حاولت أن أسأله إذا كان يعرف متى يسمحون لنا أن ندخل. دار، وتوجه إلى الممرض الرحيم الذي يلبس زيّاً مهنياً أبيض يشبهه مثل نقطتي ماء. ودخّن بهدوء في زاوية الغرفة. لقد تحادثا وضحكا. لم يجيباني، كأنني غير موجود. بعد ذلك أمسك أحدهما بذراعي، نظر إلى رقمي، وكلاهما انفجرا في ضحك مجنون. الكل يعرف أن ال 174 ألف هم يهود ايطاليا. اليهود المعروفون جداً في المعسكر، الذين وصلوا قبل شهرين. كلهم محامون، كلهم أطباء، كانوا أكثر من مئة، والآن بقي منهم أربعون

فقط. اليهود الذين لا يجيدون العمل فكّر أن يُأخذ منهم الخبز ويتلقون الضربات من الصباح إلى المساء. الألمان يسمونهم zwei linke Hände (يدان اثنتان يساريتان). حتى اليهود البولونيون يعاملونهم باحتقار لأنهم لا يتكلمون الايديش.

الأخ الرحيم يبرز للبولوني الثاني حوض وركي كما لو كنت هيكلاً في قاعة محاضرات للأناتوميا. يشير إلى وجنتي وجفنيَّ المنفوخين، وعنقي الضعيف، ينحني ويضغط بإصبعه على الورك ويُظهر له كيف ينوجد سطح مقعر عميق في مكان الضغط، في لحمي الشاحب والرخو.

كان من الأفضل لو لم أتوجه إلى البولوني. يخيل إلي أنني لم أتلق إهانة فظة كهذه في حياتي، بعد ذلك، أفهى البولوني الكلام بلغته غير المفهومة لي. لغة منفِّرة لأذني وتسحق قلبي. توجه إلي بلغة ألمانية ركيكة وبرفق كبير يواسيني: Du Jude kaputt. Du schnell Krematorium fertig (أنت يهودي ميت. أنت بسرعة كارموتاريوم منتهٍ).

عدة ساعات سوف تمر حتى ينادوا لكل الذين يعالجون، يعطونهم القطن ويملأون بطاقاتهم الخاصة كمرضى، كالعادة أنا الأخير. واحد بملابس جديدة مرقطة برّاقة، سألني أين ولدت، وما هي مهنتي "المدنية" وهل كان لدي أولاد، وبأية أمراض مرضت، باختصار أسئلة لا نهاية لها. ولكن لماذا؟ ليس هذا سوى مسرحية معقدة هدفها وضعنا موضع السخرية والهزء، وهذا هو مستشفى؟ يجبروننا أن نقف عراة ويسألون أسئلة.

وأخيراً، كما في كل مكان، صف من الأرائك بثلاث طبقات وبينها ثلاثة حواجز ضيقة جداً، مئة وخمسون أريكة، حوالي مئتين وخمسين مريضاً، اثنان في كل أريكة، المستلقون في الأرائك العليا تقريباً مضغوطون إلى السقف. لا يستطيعون الجلوس، لذلك يحنون أجسامهم إلى الخارج، مع حب استطلاع لأن يروا الجدد الذين وصلوا. هذه هي الأكثر إثارة في ساعات النهار، لأنه على الغالب، فإن كل واحد يجد إنساناً يعرفه بين القادمين.

أعطوني أريكة رقم عشرة عجيبة! الأريكة فارغة. أتمدد على كل الأريكة، باستمتاع. هذه هي المرة الأولى منذ وصولي للمعسكر، تكون أريكة كلها لي. مع أن الجوع يضايقني جداً، فإنني، بعد أقل من عشرة دقائق أنام نوماً عميقاً.

في الكا-بي، الأحياء يشبهون البقاء في الليمبوس[5]. البؤس الجسدي قليل، ما يضايق هو فقط الجوع والمعاناة المرتبطة بالمرض. ليس باردا، لا يعملون، ولا يتلقون الضربات إلاّ إذا خرقوا ، بشكل حاد القانون.

المرضى يستيقظون أيضاً في الرابعة صباحاً. يجب طي الفراش، يجب الاغتسال، ولكن بهدوء وليس بجهد مبالغ. في الخامسة والنصف يوزعون الخبز. لا حاجة للسرعة في الأكل، يمكن أن نقسم الوجبة إلى شقف دقيقة وأن نأكل رويداً رويداً وبهدوء، خلال الجلوس على السرير، بعد هذا يمكن النوم حتى موعد توزيع الشوربة في الظهر. حتى الرابعة بعد الظهر،Mittagsruhe استراحة بعد الظهر.

وبعد الاستراحة زيارة الأطباء والعلاجات. يجب النزول عن الأرائك، إزاحة القطن والوقوف في الصف. أيضاً وجبة العشاء في المساء يوزعون.

في الأسرّة. في التاسعة إطفاء الأنوار، ما عدا قنديل الحارس. صمت مطبق.

للمرة الأولى، منذ وصلت إلى المعسكر أنا أستيقظ بعد نوم عميق، وأحس كأنما خرجت من العدم. مع مطلع الفجر، عند توزيع الخبز، تصل إلى آذاننا من بعيد، أصوات الموسيقى التي بدأوا يعزفونها.ما يعني أن الزملاء الأصحّاءيخرجون إلى العمل.

في الكا-بي، الموسيقى لا تسمع بوضوح. إلى آذاننا يصل بالأساس لحن ذو لون واحد. ضربات الطبل الكبير والصنوج. ولكن على وقع ضجيجهم بالإمكان

---

[5] *الدهليز الموصل إلى المحرقة في الميثولوجيا المسيحية: مكان سكنى النفوس التي تنتظر الخلاص. في الكوميديا الإلهية لدانتي: الدائرة الأولى في المحرقة وفيها نفوس الأولاد الذين لم يُعَمّدوا قبل موتهم وكذلك صديقو العالم الذين غير مسيحيين، الذين ينتظرون الخلاص من يسوع المسيح (المترجم).

الملاحظة بقطع الموسيقى المتقطعة كل ما هب الريح يجلبها إلينا. نحن في الأسرّة، ننظر الواحد إلى الآخر، لأننا جميعنا نحس أن هذه الألحان ما هي إلاّ ألحان الشيطان.

الموتيفات القليلة، حوالي اثني عشرة. تعاد وتتكرر مساء وصباحاً، كل يوم، دائماً. مارشات وأغانٍ شعبية معروفة، كل ألماني يحبها انحفرت عميقاً في ذاكرتنا وستكون الشيء الوحيد الذي سوف ننساه. هذه الألحان هي تعبير للجنون الجيومتري للمعسكر. وهي أيضاً تعكس القرار الصارم لسادة مصيرنا أن يبيدوا أولاً روحنا الإنسانية حتى يقتلونا، بعد ذلك، كلياً.

عندما تُسْمع الموسيقى نحن نعرف أن الزملاء في الخارج، في الضباب يمشون مثل الإنسان الآلي، أرواحهم أصبحت ميِّتة والموسيقى تحركهم كما تحرك الريح الأوراق اليابسة. الموسيقى هي قوة إرادتهم. كل ضربة طبل هي خطوة، كل خفقة هي تصليب للعضلات الضعيفة. الإرادة ميِّتة لقد نجح الألمان: عشرات ألوف الناس تحولوا إلى هيكل ضخم، هم لا يفكرون ولا يريدون شيئاً. يمشون.

في مسيرة الخروج من المعسكر. وفي مسيرة العودة، يراقبهما جنود الإس. إس. مَن بإمكانه أن يمنعهم من مشاهدة هذه المسرحية التي هي من إنتاجهم؟ أناس أُخذت منهم إرادتهم ، يهانون، مجموعات، في الطريق إلى الضباب وفي عودتهم منه. أليس هذا مشهداً قاطعاً لإنتصارهم؟

حتى ساكنو الكا-بي يعرفون جيداً طريق الآلام للخروج إلى العمل والعودة منه. يعرفون هذا التخدير، هذه الوتيرة المستمرة التي تحوِّل الدماغ إلى وادي الموت للأفكار، ولكنها تخفف الألم. لقد جربوه كثيراً ولكن يجب تمزيق خطوط السحر من أجل سماع الموسيقى القادمة من الخارج بالضبط، كما نفعل الآن، في الكا-بي وكما نفكر ونتذكرها الآن بعد التحرير، بعد الولادة الجديدة. فقط هكذا عندما لسنا عبيداً للسحر ، ولسنا مقيدين بسلاسل الطاعة العمياء نحن نعرف ماهيته. فقط الآن، من الممكن أن نحاول فهم جذور المنطق الذي دفع الألمان إلى تخطيط هذا الاحتفال المقرف. ولماذا حتى اليوم، عندما يرتفع في مخيلتنا أحد الألحان الساذجة هذه، الدم

يتجمد في عروقنا. هذه الذكريات تثير فينا الإدراك بأنه لم يكن شيئاً عادياً أن نعود إلى أوشفتس.

على الأريكة المحاذية لأريكتي جاران. جالسان كل اليوم وكل الليلة محاذيان أحدهما للآخر، جسد ملاصق لجسد، كما لو كانا سمكتين في دولاب الحظ. رِجْل الواحد قرب رأس زميله. أحدهما يدعى وولتر بون هولندي مثقف ومهذب. هو يلاحظ ليس معي ما أقسم به الخبز، فيعيرني سكينه وبعد ذلك يقترح أن يبيعه مقابل نصف وجبة خبز. أنا أقترب وأخيراً أتنازل لأنه في الخارج يمكن شراء سكين بثلث الوجبة وأنا أتأمل أنه هنا في الكا- بي دائماً أجد أحداً ما يعيرني السكين. وولتر لا يغضب. يواصل التصرف بأدب، وفي الظُهْر، بعد أن احتسى الشوربة وأنظّف الملعقة بشفتيه (طريقة محمودة لكي لا تضيع حتى نقطة شوربة علقت بالملعقة) وهو يعطيني إياها دون أن أطلبها منه.

-ما هو مرضك يا وولتر؟

-Körperschwäche – ذبول في الجسم، المرض الأشد سوءاً. لا يمكن معالجته، خطير جداً الدخول إلى الكا-بي ، بسبب هذا التشخيص. لو لم تظهر دمامل في الرجلين (يريني إياها) لا تسمح له بالخروج للعمل، كان يحافظ على نفسه بقوة ، لكي لا يصل إلى الكا-بي.

أنا أعرف فقط أموراً مبلبلة حول هذه الأخطار. الكل يتكلم عنها. بشكل غير مباشر، بالرموز، وعندما أسأل أسئلة ينظرون إلي ويصمتون تماماً.

إذن، هناك حقيقة في الشائعات حول "السيليكسيا"، حول أفران الغاز، حول الكرامطوريوم؟

كراموطوريوم. الآخر، جار وولتر يستيقظ مذعوراً، يقف، يجلس، مَن يتكلم حول الكراموطوريوم؟ ما الذي يحدث؟لا يسمحون بالنوم في راحة؟ يهودي بولوني، البينو، وجهه متهاوٍ طيِّب القلب. ليس شاباً. اسمه شموليك، مهنته الحدادة. وولتر يشرح له، باختصار، بالايدش: هكذا، الطلياني لا يؤمن بالسيليكسيا؟ شموليك يود لو

يتكلم معي بالألمانية، ولكنه يتكلم الايديش. أنا أفهم بصعوبة، فقط لأنه هو يريد أن يفهموه. هو يسكت وولتر، بحركة يد، هو يقنعني.

أربي رقمك، أنت 174517. مجموعة الأرقام هذه بدأت قبل ثمانية عشر شهراً وهي محفورة على أذرع أسرى أوشفتس والمعسكرات المجاورة. الآن، نحن هنا في بونا مونوفتش عشرة آلاف، وربما ثلاثون ألفاً مع سجناء أوشفتس وبيركناي؟ Wo sind die Andere? أين الآخرون؟

"ربما نقلوهم إلى مخيمات أخرى؟" أنا أطرح فكرة.

شموليك يحرك رأسه ويتوجه إلى وولتر: Er will nix verstayen ليس مستعداً أن يفهم.

ولكن يد القدر كانت في الأمر، وبعد زمن قصير فهمتُ، رغم أنفي، وشموليك نفسه كان برهاناً حياً. في المساء انفتح باب الصريقة وصوت يصرخ Achtung! أنصت. وفي لحظة صمت كل صوت. سكوت الموت.

جنديان من الإس. إس. دخلا (لأحدهما إشارات درجة عالية. ضابط؟) خطواتهما تمدهد في فضاء الصريفة كما لو كانت فارغة. يتحدثان مع الطبيب، الرئيسي وهو يُريهما دفتر ملاحظات. يشير هنا وهناك إلى الأرائك. الضابط يسجل في دفتر ملاحظاته أن شموليك يمس حوضي." انتبه انتبه".

الضابط الذي يسير الطبيب معه، يتجول صامتاً، بدون انتباه، بين الأرائك يضرب بالسوط الذي في يده طرف البطانية البارز من أحد الأسرة العالية. المريض يسرع مذهولاً إلى ترتيب البطانية. الضابط يواصل التقدم. يقف قرب مريض وجهه بحالة سيئة، شاحب، يمسك ببطانيته، وهذا يرتجف. الضابط يمس بطنه "gut, gut" (حسناً حسناً) ويواصل السير.

وقف إلى جانبنا. ينظر إلى شموليك. ينظر في دفتره، يفحص رقم السرير والرقم المحفور على ذراعه. من الأعلى أنا أرى كل شيء. علامة الصليب قرب أريكة شموليك. يواصل السير.

الآن أنا أنظر إلى شموليك وبعده ألاحظ عيني وولتر. من تلك اللحظة توقفت عن السؤال. في اليوم التالي في مكان مجموعة الأصحاء الذين كالعادة يجري تحريرهم في الصباح، وقفوا واحداً وراء الآخر، مجموعتان منفصلتان، قرب المدخل. الأوائل استحموا، حلقوا ذقونهم وشعرهم، الآخرون خرجوا لمجرد الخروج، بدون أن يتلقوا علاجاً، بدون أن يستحموا، بدون أن يحلقوا ذقونهم. لم يطلب أحد منهم أموراً صغيرة لزملائهم الأصحاء.

بين المتأخرين كان شموليك. وهكذا، بتواضع، رويداً رويداً، بدون ضجيج، بهدوء، يجري القتل في صرائف الكا-بي ويصيب مرة هذا ومرة ذاك. وعندما ذهب شموليك ترك لي الكف والسكين. وولتر وأنا صمتنا و لم نتمكن أن ننظر الواحد في عيني الآخر. بعد ذلك سألني وولتر كيف أنجح في المحافظة على وجبة الخبز الخاصة بي زمناً طويلاً إلى هذا الحد. وفسّر أنه هو، عادة، يُقَطِّع وجبته قطعاً قطعاً، بحيث من السهل أن ندهنها بالمرجرينا.

وولتر يفسر أموراً كثيرة:Schonungsblock معناه صريفة الاستراحة. هنا يقيم المتنقهون أو المرضى، "وهناك البعض" الذين ليسوا بحاجة إلى العلاجات، بينهم حوالي خمسين مريضاً بالديزنطاريا في مستويات متفاوتة من الخطورة.

هؤلاء يُفْحصون كل ثلاثة أيام. يقفون في صف على طول الممر. في آخره علبتان من التنك وبقربهما ممرض. دفتر تسجيلات وقلم رصاص وفي يده ساعة. المرضى يتقدمون أزواجاً، ويجب أن يبرهنوا في المحل أنهم ما زالوا مسهولين. خلال دقيقة بالضبط، وبعد ذلك يظهرون النتيجة للممرض، الذي يرى ويحكم، يغسلون بسرعة، وحالاً يجيء اثنان آخران.

بعض الواقفين في الدور يلتوون للمحافظة في بطنهم على البرهان الثمين بعد عشرين أو عشر دقائق. الآخرون الذين في نفس الوقت لا يقدرون أن يخرجوا البراز يوترون عضلاتهم وأوردتهم حتى يخرجوا البرهان الثمين. الممرض واقف، يلعب بقلم الرصاص في يده بهدوء، ينظر إلى الساعة، ينظر في المادة التي يأتون بها إليه، وإذا ثار شك فإنه يذهب بالمادة إلى الطبيب. أحد المعارف جاء ليزوني. بيرو سونينو من

روما. "هل رأيت كيف لعبتها معه؟". لبيرو التهاب أمعاء خفيف. وهو يمكث هنا عشرين يوماً.

ويحس إحساساً جيداً. مستريح، يسمن،، ويستخف بالسيليكسيا وهو مصمم أن يبقى في الكا-بي، بأي ثمن، حتى نهاية الشتاء. خطته: يقف من وراء مريض حقيقي بالديزنطاريا، وعندما يصل دوره يطلب من المريض أن يساعده (مقابل شوربة أو خبز) وإذا وافق هذا والممرض يلتهي ولو لثانية، يبدل الأنبوب في الضجة، (الموجودة دائماً في الطابور الواقف) والخدعة تنجح. بيرو يعرف ما هي الخطورة ، ولكن حتى الآن نجح دائماً.

ولكن ليس هذا هو الأساس في الحياة في الكا-بي. ليس المشهد المقرف للرقابة على القمل وفحص الإسهال، ليس الأمراض ولا حتى لحظات التوتر في السيليكسيا.

الكا- بي. هو المعسكر بدون الصعوبات الجسدية. هناك مَن لا يزال قادراً أن يفكر ويفتح عينيه. خلال الأيام الطويلة والفارغة من أي عمل، لا يتكلمون عن الجوع والعمل، وإنما عن قضايا أخرى. وبالضرورة يصلون إلى الحديث عن التغير الذي حدث لنا، والتفكير في ما أخِذ منا وفي ماهية هذه الحياة. في الكا-بي، في هذه الجزيرة الهادئة، تعلمنا أن شخصيتنا هشّة جداً وهي قريبة من الانهيار أكثر مما قريب لها الجسد. آباء آبائنا لو أنهم بدل أن يقولوا "من التراب وإلى التراب تعود" كانوا يتحدثون حول الخطر الكبير الكامن لنا، وهو فقدان الشخصية الإنسانية. لو كان بالإمكان أن تخرج بشرى من المعسكر كان يجب ان تكون بهذه اللغة: اعملوا كل شيء حتى لا يحدث في بيوتكم ما فُرِض علينا هنا..

عندما نعمل، نتعذب، وليس هناك وقت فراغ للأفكار، بيوتنا ليست غير ذكرى بعيدة جداً. ولكن هنا وقتنا بأيدينا. رغم المنع فإننا نزور أحدنا الآخر ، من حجيرة إلى أخرى. نتكلم، نتكلم، نتكلم. الصريفة الخشبية مليئة بالعذاب والأشواق تتغلب علينا. وخصوصاً الألم الكبير الذي يملأ قلوبنا، في اللغة الألمانية يُسمى Heimweh. كلمة جميلة معناها: الحنين إلى البيت.

معروف لنا من أين جئنا. ذكريات العالم الخارجي تملأ أحلامنا في اليقظة، وأحلامنا التي نشاهدها في منامنا. في ذهول نكتشف أننا لا ننسى شيئاً. وكل صورة من الماضي. قد نهرب من السيليكسيا، من الممكن أن نبقى بالرغم من الجوع والعمل الإجباري. وماذا بعد؟

هنا. بابتعادنا عن الضربات والشتائم، وعينا يستيقظ وبإمكاننا أن نغرق في الخواطر، والاستنتاج قاطع: لا نعود إلى العالم. سافرنا إلى هنا في قاطرات مغلقة. رأينا نساءنا وأولادنا يذهبون إلى العدم. نحن عبيد أذلاء، نمشي مئات المرات إلى الأمام وإلى الوراء، متعبين حتى الموت، فقدنا روحنا الإنسانية قبل أن ذبل جسدنا ومات. نحن لن نعود. ممنوع أن يخرج أي إنسان من هنا ، ممنوع أن يخرج شخص ويظهر للعالم كله الرقم المحفور على لحمه، أن يبشر البشرى الرهيبة، بشرى أوشفتس. الأمر الرهيب الذي تمكنت نفس الإنسان أن تفعله لنفس الإنسان.

ليالينا

بقيتُ عشرين يوماً في كا- بي. وبعد ذلك، لأسفي الشديد، اضطررت أن أخرج من هناك، لأن جراحي قد اندملت.

العملية كانت بسيطة، بشكل عام، لا تعود إلى البلوك السابق وللكوماندو التي انتسبت إليها إلاّ إذا أقمت روابط خاصة مع السادة في المخيم. حسب اعترافات غير معروفة لي، يبعثونك إلى أحد الصرائف وإلى أحد الأعمال. أكثر من ذلك من كا-بي يخرجون عراة. يأخذون الحذاء والملابس التي أبقيت عند دخولك، التي يجب أن تكون مناسبة لقياساتك بسرعة وبنجاعة. الموضوع ليس سهلاً وله ثمن، ملعقة وسكين لا يمكن الحصول عليهما بدون مقابل. في النهاية، وهذا هو الأصعب من كل شيء، أنت تجد نفسك في بيئة غريبة ومغتربة، بين رفاق معادين، لا تعرف "الكابوس" الجديد ولذلك من الصعب عليك أن تحافظ على نفسك إزاءهم.

إن قدرة الإنسان على أن يجد زاوية ساترة، أن يدخل في قشرة، أن يبني حوله جداراً واقياً، حتى عندما لا يبقى له أي أمل، هي رائعة. من المناسب أن يفحص، بعمق، هذه الإمكانية. التكيف هو ثمرة العمل بصبر. وأغلبيتهم تعمل بدون معرفة، بعضهم بلا مبالاة وبعضهم بنشاط: أن تدق مسماراً فوق السرير حتى تُعَلِّق عليه الحذاء في الليل، أن تصل إلى التفاهم مع الجيران وتتحاشى العنف، أن تخمن ما هي العادات والقوانين في البلوك وفي الكوماندو الخاص بك، باختصار أن تعرف كيف تتكيف. بعد مرور عدة أسابيع وبعد جهود غير قليلة تنجح في الوصول إلى التوازن الحساس وهناك ثقة أقل إزاء ما هو غير متوقع. وعندما يجيء موعد خروجك يمكن القول أنك خرجت منتصراً.

شعور الإنسان الخارج من الكا-بي عارياً كما خلقه ربه، وتقريباً لم يشفَ كلياً، هو كمن قُذف إلى ظلمة الفضاء الخارجي. البنطلون يسقط، الحذاء يوجع والقميص

ليس له أزرار، يفتش عن مجتمع ، عن قرابة إنسانية، ولا يجد غير وجوه عابسة، ومع هذا عليه أن يخرج في الصباح إلى العمل.

هكذا كان وضعي عندما سلمني الأخ إلى Blockältester (رئيس البلوك)، بعد ترتيبات القبول المقررة في الدستور. عمَّ الفرح في قلبي عندما عرفت أن رقم البلوك هو 45، حيث يسكن ألبرتو.

ألبرتو هو الأفضل بين أصحابي، هو ابن إثنين وعشرين عاماً، أصغر مني بسنتين، لم يتمكن أي ايطالي أن يتكيف للمعسكر مثله. ألبرتو دخل إلى المعسكر برأس مرفوع. لم يتضرر و لم يتلوث، فَهِم قبلنا جميعاً أن الحياة هنا هي حرب شرسة. لم يشفق على نفسه، و لم يضيع الوقت في البحث عن متهمين، و لم يرحم أحداً. بل خرج للنضال من اليوم الأول، سلاحه الحكمة وأحاسيسه السليمة، يفكر بمنطق، مرات كثيرة لا يفكر إطلاقاً، ورغم ذلك لا يتصرف بشكل صحيح، يفهم كل شيء من اللحظة الأولى، لا يعرف الكلام بلغات كثيرة، قليل من الفرنسية بالإضافة إلى الايطالية، لغته الأم، ولكن يفهم ما يقوله الألمان والطليان والبولونيون. يجيب بالايطالية، وبحركات اليدين، والكل يفهمونه. لا يوجد إنسان لا يحبه، يصارع دفاعاً عن حياته، ومع هذا ينجح أن يكون صديقاً للجميع. "يعرف" مَن يحب رشوته وعن مَن يجب الابتعاد، وعن مَن يجب إثارة الشفقة، وضد مَن يجب الوقوف بقوة، ورغم كل شيء لم يكن يوماً مقهوراً وذليل الروح. عرف كيف يقف ضد السفالة، ولذلك فإن ذكراه غالية علي جداً، ودائماً رأيت فيه إنساناً قوياً وحَسَن المعشر، وقد وُجِّهت ضده كل قوة الشر.

لم أنجح أن آخذ مكاناً للنوم قرب ألبرتو في هذا، مع أنه في البلوك 45 نظروا إليه بتعاطف كثير. يا للأسف فالزميل في الفراش. الذي يمكن الوثوق به أو على الأقل الاتفاق معه هو مكسب ذو قيمة. وبالإضافة لهذا الآن شتاء والليالي طويلة ونحن ننام اثنين تحت بطانية بعرض سبعين سنتمتراً ونضطر أن نعاني من عَرَق الجار، من الرائحة والحرارة، لذلك من المطلوب جداً أن كل هذا يأتي إليك من صديق قريب. ليالي الشتاء طويلة ولذلك يُسْمح لنا أن ننام ونرتاح زمناً أطول.

رويداً رويداً تهدأ الضجة في المساء. قبل ساعة جرى توزيع وجبات الطعام. وما زال مَن يصر أن ينظف أسنانه رغم أنها تلمع من كثرة التنظيف. وهو يفحص مقابل ضوء القنديل. جبينه متجعد من كثرة التركيز، خوفاً أن يكون علق فيه شيء من بواقي الطعام. المهندس كردوش يتجول بين الأسِرَة يعالج الأرجل المجروحة. ومن هذا يكسب عيشه، هنا كل واحد يتنازل، عن طيبة خاطر، عن قطعة من الخبز. وهذا يجلب راحة للأرجل المريضة، بينما المهندس كردوش يأخذ أسباب معيشته.

من المدخل الخلفي، دخل، خفية. قاص الحكايات. نظر بعينيه حوله. جلس على سرير فاشمان. وفي لحظة، تجمعت حوله مجموعة من الناس منصتين في صمت واهتمام. غنّى بالايدش، أغنية طويلة مقفاة ذات مجموعات الأربعة أبيات، دائماً نفس الأغنية الحزينة التي تمس القلب. أو هكذا أنا أتذكر القصيدة بسبب المكان الذي سمعتها به؟ من القليل الذي أفهمه أنا استنتج أن الشخص هو الذي ألّف الكلمات التي تقص حياة المعسكر. الغناء يضم كل العالم، وأحياناً هناك كريم يعطيه سيجارة أو خيطاً، الآخرون ينصتون وهم متركزون ولكن لا يعطون شيئاً.

فجأة يُسْمع، عالياً، الإعلان الأخير لنشاط اليوم،- Wer hat kaputt die Schuhe? (لماذا توجد نعل ممزقة؟) وحالاً الصريفة تضج بأصوات أربعين. خمسين، الذين يريدون تغيير نعالهم يركضون في يأس نحو ال-Tagesraum. جيداً يعرف كل واحد أن العشرة الذين يصلون أولاً يأخذون مبتغاهم.

انتهى الأمر. يسيطر الصمت. الضوء الذي أضاء عدة ثوان إشارة إلى أن يضع الجميع ملابسهم في مكان آمن وكذلك الخيط والإبرة الذين أغلى من الذهب. من بعيد يسمع صوت رنين الجرس، والحارس الليلي يقف مكانه. الأضواء تنطفيء كلها، يتعرون وينامون.

لا أعرف جاري. ولست متأكداً حتى إذا كان هو نفس الشخص، لأنني أراه وجهاً لوجه فقط ثوانٍ معدودات، عند الاستيقاظ. أنا أعرف ظهره ورجليه جيداً أكثر من وجهه. إنه لا يعمل في الكوماندو الذي أعمل به، ويصل إلى الحجيرة قبل قليل فقط من إطفاء الأنوار، ملفوفاً بالبطانية، يدفعني بضربات وركيه القويين،

يتجول جانباً، ثم ينام ويبدأ بالشخير ظهري إلى ظهره، وأنا أحاول أن احتل لنفسي قليلاً من مساحة الفرشة. أضغط طول الوقت لأرده، وأخيراً أدفعه بالركبتين، أمسك برجليه وأحاول إبعاده عني حتى لا تكون قدماه ملتصقتين بي، ولكن عبثاً، هو ثقيل أكثر مني، وينام مثل الحجر.

أسلم بقدري، أضطجع بلا حراك، نصف الجسم على الفرشة. التعب يزداد، أنا متعب إلى حد أنني أنا أيضاً أغفو.

يبدو لي أنني أنام على سكة الحديد. القطار قريباً يصل. صوت القطار يُسْمع جيداً – إنه جاري . نومي خفيف ولذلك أذكر كل الوقت، الطبع المزدوج للقطار. إنه نفس القطار، واليوم سد بالقاطرات التي أفرغنا حمولتها، إنه يقترب، يقترب، وبعد لحظة سوف يدهسنا ولكنه لا يصل أبداً. نومي خفيف جداً وليست غير طبقة دقيقة يمكنني أن أمزقها إذا أردت. أمزقها،حتى أبتعد عن خط السكة. ها قد استيقظت ولكن ليس كلياً، فقط أكثر من السابق، لست في وعي كامل، عيناي مغمضتان، لا أفتحهما فهما سكرانتان من النوم. مع هذا أنا ألتقط أصواتاً مختلفة، أنا متأكد أن الصفير المسموع من بعيد ليس صوت قطار أحلامي، صفير حقيقي، إنه قادم من Decauville ، المصنع الذي يعملون فيه في الليل أيضاً، صوت عميق متواصل، وبعد ذلك صوت آخر. ولكن منخفض بنصف القوة، ومرة أخرى صوت مثل الأول، ولكن قصير ومتقطع، دفعة واحدة. هذا الصوت هام للغاية، بمعنى ما، هو أيضاً حيوي. مرات عديدة سمعناه، مرافقاً لعذابنا في العمل وفي المعسكر، تحول إلى رمز يصعد من الهاوية المنسية، مثل روائح معروفة أو لحن معروف، من مشاهد المعسكر.

هنا توجد أختي وبعض الزملاء. ليس واضحاً لي مَن منهم بالضبط، وآخرون كثيرون. كلهم ينصتون. أنا أتكلم عن الصفير. ثلاثة أصوات، الفرشة القاسية، الجار الذي أحاول أن أزيحه، ولكن أخاف أن يستيقظ، لأنه أقوى مني. أنا أقص أيضاً عن الجوع الذي يضايقنا، هنا. وعن المراقبة وعن الكا بو، الذي ضربني على أنفي، وبعد ذلك أرسلني لكي أغسل وجهي بسبب الدم، سعيد جداً أن أكون في البيت، بين

الأصدقاء، سعادة جسدية، لا يمكن التعبير عنها بالكلمات. كم علي أن أقص! ولكني ألاحظ أنهم لا ينصتون إلي باهتمام. بل أنهم لا مبالون فعلاً. يتكلمون فيما بينهم، عن مواضيع أخرى، كما لو لم أكن بينهم. أختي تنظر إلي، تقوم وتترك المكان، بدون أن تقول شيئاً.

أسف لا حدود له ينتشر في جسدي، هكذا أتذكر الآلام من طفولتي البعيدة، آلام معروفة لولد ليست فيها آلام جانبية لإنسان راشد ذي تجارب كثيرة. ألم ساذج بسببه الأولاد يبكون، من الأفضل لي أن أعود إلى الواقع، وهذه المرة أنا أفتح عيني حتى أكون متأكداً أنني حقاً متيقظ.

الحلم ما زال واقعاً قبالة عيني. فعلياً، ومع أنني أصبحت يقظاً، فأنا أواصل الإحساس بالقلق العميق بسببه هذا ليس حلماً عادياً، منذ أن جئت إلى المعسكر، حلمته مرات عديدة. مع تغييرات فقط. الآن، بكل وعيي، أنا أتذكر أنني قصصت لألبرتو عن حلمي ولمفاجئتي، فقد كان حلمه أيضاً، وحلم كثيرين آخرين، وربما حلم الجميع. لماذا؟ لماذا العذاب اليومي يتحول في نفوس جميعنا إلى نفس الكابوس؟ نحن نتكلم عن حياتنا هنا، ولا أحد يريد أن يسمع!

أنا أغرق في الخواطر والتأملات، وخلال ذلك أحاول أن أستغل اليقظة، للتخلص من خوف النوم السابق، حتى أواصل النوم أفضل. أجلس ملموماً على بعضي ، على الفرشة، أنظر حولي، أنصت باهتمام.

نسمع تنفساً وشخيراً، أحد ما يتنهد ويتكلم، كثيرون يمصمصون شفافهم ويحركون أحناكهم، يحلمون أنهم يأكلون، هذا أيضاً حلم يحلمه الجميع، حلم شرس. مَن ألّف القصة الميثولوجية حول عذابات طانطلوس[6] يقيناً جرّب هذا العذاب. في أحلامنا ليس فقط أننا لا نرى الطبيخ، بل أننا لا نحسه بأيدينا. الأكل الشهي، على

[6] شخصية من الميثولوجيا اليونانية طانطلوس الذي كان حبيب الآلهة استخف باحترامهم ولذلك عاقبوه وفرضوا عليه عذاب الجوع والعطش إلى الأبد (المترجم)

أنواعه نشم رائحته وعندها، لسبب أو لآخر، لا ننجح في الأكل. في تلك اللحظة، الحلم يتمزق، وكل تفصيل وتفصيل ينفصل عن التفاصيل الأخرى، كأنما هو قائم، لوحده. ولكن حالاً تعود التفاصيل وتتوحد، والقصة تتكرر ثانية، بشكل شبيه ومختلف معاً، ليلة بعد أخرى، بلا توقف، كل واحد منا يحلم الحلم نفسه.

يبدو أنها مرّت الساعة الحادية عشرة لأن كثيرين يذهبون إلى الدلو، الموضوع قرب الحارس، ويعودون من هناك. تعذيب مهين، عار وشنار. كل ساعتين أو ثلاث، يجب أن نقوم حتى نفرغ كمية السوائل الهائلة التي نضطر أن ندخلها إلى أجسامنا، هي الشوربة التي نشربها حتى لا نحس بالجوع، والماء ينفخ حتى المساء جسمنا وحتى أجفاننا، ويعطينا شخصية مشوهة، وإخراجها يفرض علينا في الليالي عملاً مكثفاً للكلى.

وليس هذا فقط هو المسار المخجل إلى الدلو. هناك قانون آخر أن مَن يستخدم الدلو يجب أن يذهب ويفرغه في المراحيض. لذلك مسموح الخروج من الصريفة في الليل، فقط في اللباس الليلي (القميص والسروال الداخليين)، وذلك بعد تقديم الرقم الشخصي للحارس، ولذلك، عادة، يحرر الحارس من هذا الأمر السيء أصدقاءه، وأبناء بلاده، وأصحاب الحقوق الزائدة. على كل هذا يجب أن نضيف أن عند قدماء المعسكر حواس حادة للغاية. فحتى عندما ينامون في أسِرَّتهم، يمكنهم أن يلاحظوا، يا للعجب، أن الدلو على وشك أن يمتلىء حسب صوت التبول فيه. وهكذا يتملصون من واجب الخروج إلى المراحيض، لذلك يوجد في كل صريفة، مرشحون قلائل لهذه المهمة، ومن كمية اللترات التي يجب صبها، حوالي مئتي لتر. حساب بسيط يدل أنه يجب إخراج الدلو إلى المراحيض حوالي عشرين مرة. وإليكم الاستنتاج القاطع: أغلب الإمكانية، أننا نحن قليلو التجربة الذين ليست عندنا أية امتيازات، نكون الضحايا، يكون علينا أن نقوم بالمهمة. وهكذا، كل ليلة، ليس لدينا أي خَيار إلاّ أن نتوجه إلى السطل، بمعرفة قاطعة أن تلك هي مهمتنا. الحارس، يقفز فجأة من زاويته يقبض علينا ويسجل الرقم الشخصي ، ويعطينا القبقاب والسطل يخرجنا إلى الخارج، إلى الثلج، بينما نحن نعسانون ونرتجف من البرد. علينا أن نذهب في طريق الآلام إلى

المرحاض، بينما السطل مليء حتى الحد الأقصى، مما يجعل السائل يسيل على أرجلنا الحافية، مع كل اهتزازةٍ للسطل. ومع أن هذا العمل حقيرٌ للغاية، فمن المفضل للشخص أن يقوم به ولا يتركه لزميله في الحجيرة.

هكذا تمر علينا الليالي، حلم طانطلوس وحلم قصة البيت يندمجان مع صور أخرى مختلفة، مع عذاب اليوم- الجوع، الضربات، البرد، التعب، الخوف وانعدام الحياة الشخصية، كل هذا يتحول في الليالي إلى كوابيس ضاغطة تضايق خصوصاً إنساناً مصاباً بالحُمّى. في كل دقيقة يرتفع الهلع إزاء كل أمر يزعق به أحد بلغة غير مفهومة. مسيرة السطل، صوت قتل البق على الخشب يتحول إلى مسيرة رمزية أخرى، ونحن الرماديون الذين نشبه بعضنا، كأنما جبلتان من طينة واحدة، صغار، صغار كالنمل، ومع هذا ننظر إلى السماء، الواحد بجانب الآخر، كثيرون لا يمكن تعدادنا، كالرمل الذي على شاطيء البحر، أحياناً يبدو أننا نتحول إلى شيء ما موحد، كتلة مشحونة بالخوف، مخنوقون، نسير في دائرة بلا بداية وبلا نهاية. رؤوسنا دائخة وعيوننا مطفأة، وسط بحر من القرف الذي يصل حتى أعناقنا. إلى أن يعيدنا الجوع أو البرد، أو السطل المليء بالبول يعيدنا إلى أحلامنا الروتينية. عندما يوقظنا الشعور السيء والكوابيس نحن نحاول عبثاً أن نفكك الحلم إلى أُسسه وأن نبعده عن قلوبنا، حتى ننام مرتاحين بدون أحلام سيئة. فقط نغمض أعيننا ومن جديد نحس أن أفكارنا تهرب منا ضد إرادتنا. عقلنا يتفجر، ولا يجد ارتياحاً، وبدون تعب يبدأ بإنتاج الأرواح الرهيبة والرموز المخيفة، يصورها ويهزها في الضباب الأغبر على شاشة أحلامنا.

ولكن كل ساعات الليل – مع كل التقلبات والأحلام والنوم الرهيب والكوابيس المرعبة – نحن نقف بالمرصاد وننتظر لحظة اليقظة، لدينا القدرة العجيبة على أن نخمن هذه اللحظة بدون جهاز الساعة، ومع هذا بدقة، تقريباً. ساعة اليقظة تتغير من فصل إلى آخر، ولكنها دائماً قبل طلوع الفجر، في هذه الساعة يرن الجرس في المعسكر وقتاً طويلاً. والحارس الليلي في كل صريفة يقوم بتحضيراته لإنهاء حراسته، يطفيء

الأنوار، ينشط نفسه ويعلن الأمر اليومي Aufstehen قياماً! وأحياناً يكون الأمر باللغة البولونية Wstawać .

فقط قلائل ما زالوا نائمين عند سماع Wstawać . هذه لحظة معاناة كبيرة جداً، حتى أنه مع اقترابها يتبدد النوم مهما كان عميقاً. أيضاً الحارس يعرف ذلك ولا يعلن بصوتٍ عالٍ، يعلن تقريباً بلطف، لأنه هو يعرف أن ال Wstawać سينزل على آذان منصتة، والكل سوف ينهضون بدون تردد.

الكلمة الغريبة تسقط كالحجر إلى داخل أعماق نفوسنا "قياماً!" السد الوهمي مبني من بطانيات حارة، النوم الخفيف، الهرب من الليل إلى الواقع، مسلسل المخاوف- كل هذا يتفجر مزقاً. نحن نستيقظ، مكشوفين لكل إساءة، عراة ولا ما ندافع به عن أنفسنا، يبدأ يوم آخر شبيه بالأيام السابقة، طويل جداً بحيث لا نتخيل نهايته. برد قارص يتغلغل إلى العظام، جوع وتعب شديد يغرقان بين بدايته ونهايته ولذلك من الأفضل أن نفكر فقط بقطعة الخبز السوداء، وأن نريدها هي فقط. صحيح أن الرغيف صغير ولكن سيكون في يدينا بعد خمس دقائق حتى نبتلعه يكون المُلك الذي تسمح لنا قوانين المعسكر بامتلاكه!

مع سماع Wstawać تنفجر العاصفة. كل ساكني الصريفة يبدأون بنشاط محموم، مع بعض. كل واحد يتسلق إلى أعلى وينزل إلى أسفل، نقف في استعراض الصباح، وفي نفس الوقت نحاول أن نلبس مع المحافظة كل على ملابسه، بعيون مفتوحة. الغبار في الأفق والرؤية ضبابية، السريعون جداً يركضون إلى الحمامات وإلى المراحيض للوصول قبل الآخرين الواقفين في الدور، يشقون طريقهم في مسار ضيق بصعوبة وبمدافشة. حالاً يجيء المسؤولون عن النظافة ويطردوننا جميعاً إلى الخارج، مع صراخ وضربات.

عندما أنهي ارتداء ملابسي وترتيب تختي أنزل إلى أرض الغرفة وأنتعل حذائي، الجراح التي في الرجلين تنفتح . يوم جديد يبدأ.

العمل

قبل أن جاء رونيك اضطجع بقرب يهودي بولوني لم يعرف اسمه، ساكت ومؤدب، جُرحان بشعان في وركيه يبعثان رائحة كريهة لمرض. كذلك ضايقته رائحة علبة البول. ولذلك قام في أوقات متقاربة وأيقظني ثماني أو عشر مرات في الليلة.

وذات مساء، أعطاني قفازين لكي أحفظهما له وذهب إلى المستشفى. نصف ساعة انتظرتُ أن ينسى المسؤول أنني بقيت وحدي في زاوية نومي. ولكن بعد أن سمع رنين الجرس يبشر بإطفاء الأنوار، تزعزعت الغرفة، وشاب طويل القامة وأحمر الشعر صعد واضطجع بقربي. وحسب رقمه فقد كان فرنسياً من ورانسي.

الشريك الثاني في السرير، طويل القامة كان مأساة. الأمر مزعج للنوم. وبالذات لي كانوا يبعثون أشخاصاً طويلي القامة لأنني قصير. واثنان طويلان لا يمكنهما النوم معاً. ولكن حالاً تبين لي أن رونيك ليس رفيقاً سيئاً، أبداً. قليل الكلام ومؤدب، نظيف، ولا يشخر، يقوم على الأكثر مرتين أو ثلاث مرات في الليلة، ودائماً بلطف شديد. في الصباح، تطوع بأن يطوي الفرشة (عمل معقد ومتعب، بالإضافة لهذا مسؤول جداً، لأنه مَن لا يطوي الفرشة على الأصول ما يُسمى بالألمانيةBettenbauer schlechte يعاقب بقسوة)، وعمل ذلك بصورة جيِّدة وبسرعة. لذلك كان مفاجأة طيبة، عندما عرفت بعد ذلك في باحة الاستعراض أنه انضم إلى الكوماندو الذي يخصنا.

في الطريق إلى العمل ونحن نمشي بالقباقيب العالية على الثلج، تحادثنا قليلاً، وهنا عرفت أن رونيك هو

هنا، يبدو ابن سبع عشرة أو ابن خمسين. حدثني حول كل المصائب التي مرت عليه وقد نسيت مع الوقت ما حدث بالضبط. طبعاً كانت هذه قصة جزئية، قاسية

ومؤثرة. وهكذا كل قصص مصائبنا. مئات ألوف القصص، قصص مختلفة الواحدة عن الأخرى، ولكن كلها مليئة بالعذاب والأسى. مآسٍ في الأمسيات يقصها الواحد لزميله، قص العذاب الذي مرَّ به أناس مختلفون وجرى في بلدان مختلفة- في النرويج، في ايطاليا، في الجزائر، وفي أوكرانيا. قصص بسيطة وغير مفهومة، مثل قصص التوراة القديمة، وربما هي أيضاً قصص من العهد الجديد؟

عندما وصلنا إلى مكان العمل، جلبونا إلى Eisenröhreplatz، باحة عليها نفرغ أنابيب من الفولاذ. هناك جرت الأمور كالعادة، كل يوم. الكابو فحص الأمور ونسَّق مع "المستر" المدني ماذا نعمل اليوم. بعد ذلك سلَّمنا لـVorarbeiter – مدير العمل- وذهب لينام قرب الفرن في مخزن آلات العمل. هذا الكابو لا يدخل إلى حياتنا لأنه ليس يهودياً، ولذلك لا يخاف أن تؤخذ منه الوظيفة. مدير العمل وزع للجميع فرشات عالية ومكبرات للمقربين منه. انفجر بيننا الصراع على العصا الأقل خفة، وكان حظي سيئاً اليوم، فالعصا التي حصلت عليها كانت عوجاء وتزن لا أقل من خمسة عشر كيلو غراماً، وأعرف أنني كنت ملزماً أن أرفعها في الفضاء الرحب، بدون أن أحمل شيئاً، وبعد نصف ساعة كنا ميتين من التعب.

نتفرق. كل واحد وعصاه . نعرج في الثلج ، الذي يذوب. مع كل خطوة كان يعلق الثلج بأكعابنا وكذلك الوحل، وبعد ذلك يصبح المشي غير مستقر أبداً. لا يمكن التخلص من هذه المصيبة حتى تفلت إحدى الفردتين من الثانية وعندها نحس أن رِجْلاً أقصر من الثانية.

اليوم يجب أن نُنْزل من السيارة ماسورة حديد عملاقة. أحس أن هذه الماسورة هي لمقتضيات كيماوية ووزنها أكثر من خمسة إلى عشرة أطنان. لنا من المفضل هكذا، لأن من السهل أكثر العمل مع قطع تجهيزات كبيرة. ببساطة، الوزن ينقسم على كل شخص بشكل متساوٍ، وكذلك يعطوننا أدوات عمل مناسبة للقيام بالمهمة. ولكن هذا عمل خطير للغاية وممنوع الكسل بأية حال، وإذا سهوت لثانية واحدة، فقد تفقد التوازن والرجال يفشلون ويقعون.

يراقب عمل التفريغ المفتش مستر نوغلي بنفسه، رئيس الطاقم البولوني، المتجهم، السَّكوت والفظ. الماسورة موضوعة الآن على الأرض والسيد نوغلي يقول:Bohlen holen .

قلبنا يذوب في داخلنا. معنى كلامه: "يجب جلب مواسير التزلج" لكي يصبح ممكناً تركيب مسار على أرض المستنقعات لكي ندفع عليه بالعصي الحديدية المواسير إلى داخل المصنع. مواسير التزلج مغروسة في الأرض وتزن ثمانية كيلو غراماً! وزنها هو الوزن الأثقل الذي بإمكاننا أن نحمله. الأقوياء بإمكانهم حملها عدة ساعات فقط إذا عملوا أزواجاً. ثقلها يؤلم كتفي وأنا أعاني معاناة مفزعة. الحِمْل يضغط على عظام الكتف وبعد الحمل الأول أنا أطرش وتقريباً أعمى من شدة الجهد. أنا مستعد أن أعمل عملاً سافلاً في سبيل التهرب من الحِمْل، مرة ثانية.

أحاول أن أكون شريكاً مع رونيك الذي يبدو رجلاً قوياً، بالإضافة لهذا طويل القامة، ولذلك فإن وزناً أكبر سيقع على كتفيه. أنا أعرف من منطق الأمور أن رونيك سوف يرفضني باحتقار ويختار شريكاً آخر، قوياً مثله. وعندها لا يعود أمامي إلاّ أن أطلب الذهاب إلى المرحاض، وهناك أتسكع وقتاً أطول ما يمكن وبعد ذلك أحاول أن أختبيء في مكان ما مع علمي أنهم سوف يجدونني حالاً، يضربونني ويجعلونني محط الاحتقار والسخرية. ولكن كل شيء، في نظري، أفضل من هذا العمل. ولكن، انظروا أية عجيبة، رونيك يوافق، وأكثر من ذلك: هو يرفع الحِمْل وحده، يضعه برفق على كتفي اليمنى، يرفع الطرف الثاني يحاول أن ينزل تحته، ونبدأ بالسير.

الماسورة مغطاة بالوحل والثلج، ومع كل خطوة أحس أنني لست قادراً أكثر، الركبتان تفشلان، الكتف موجوعة كأنما هي ممسوكة بكماشة، وفي كل لحظة وخطوة أحس أنني أفقد التوازن. مع كل خطوة أحس أن الوحل يبتلع نعلي، الوحل البولوني يغطي كل مساحة، ويملأ أيامنا بلون أحادي، أضغط على شفتي، معروف أنه بمساعدة الألم الخفيف، الثانوي، ممكن تجنيد بقية القوى للتغلب على الألم الشديد، أيضاً الكافو يعرفون ذلك، وبعضهم يضربوننا انطلاقاً من عنف حيواني، ولكن هناك

مَن يضربنا تقريباً بحب، بينما هم يشعرون أننا بعد قليل سوف نسقط تحت حِمْل الآلام. مع الضربات يقولون لنا كلام تشجيع وتقوية كما يتعامل سائقو العربات مع الخيول التي تجر العربات.

وصلنا إلى هدفنا. نقذف باللفافة الحديدية على الأرض. وأنا أبقى في مكاني، جامداً، مع عينين باهتتين وفم فاغر، ويدين ضعيفتين. كلي مبهور بتوقف الألم المفاجيء، مع ضعف للحواس، في انتظار دفعة فظة تجبرني أن أعود للعمل، وأستغل خلال ذلك كل لحظة حتى أنتعش.

لم يدفشوني، رزنيك يمس فخذي. نعود إلى لفافات التزلج، ببطء قدر الإمكان، هناك تدور أزواج أخرى، نحاول أن نتباطأ، قبل أن يحملوا على أكتافهم الحِمل. Allons, petit, attrape[7]. هذه الصفحة يابسة، أكثر سهولة، ولكن في نهاية السفرة الثانية سأقف أمام مدير العمل وأطلب منه التوجه إلى المراحيض.

أفضلية المكان أن المراحيض بعيدة جداً من هنا. لذلك مرة في اليوم مسموح لنا أن نتغيب عن العمل زمناً طويلاً نسبياً. مرة في اليوم نحن مسموح لنا أن نغيب عن الشغل زمناً طويلاً نسبياً. ولأنه ممنوع التوجه إلى هناك وحيداً ضموا لي فاشمان، الأضعف في المجموعة، غير الناجح. ألقي على عاتقه وظيفة Scheissbegleiter المرافق إلى المراحيض. وبحكم هذا التعيين يكون فاشمان مسؤولاً (خوف لا أساس له) عن كل محاولة هرب ولكن عملياً يكون عليه أن يحاسب على كل تأخر كبير هناك.

طلبي قُبِل، وأنا أخرج إلى الطريق، ألبِّط في الوحل، وكذلك في الثلج الرمادي القذر، بين الخِردة، فاشمان قصير القامة يسير معي. لا أنجح في الحديث معه، حيث ليست بيننا لغة مشتركة، أصدقاؤه قالوا لي أنه رابي، وأكثر من هذا فهو معلم وخبير في التوراة، بالإضافة لهذا، في بلاده، في غاليتسيا، له شهرة كطبيب ويمكن بكل تأكيد تصديق ذلك، عندما تراه. أفطس هش، وسكوت، وهو ناجح أن يعمل

[7] مثل شعبي بالفرنسية معناه ، تقدم يا كهل وامسك.

سنتين، بدون أن يمرض أو يموت. نظرته تشع حيوية رائعة، وهو قادر أن يتكلم أمسيات كاملة حول مواضيع من التلمود، بالايديش وبالعبرية مع ماندي الذي هو أيضاً رابي معاصر.

المراحيض هي منطقة هادئة وصامتة. المراحيض هي مؤقتة لم يقم الألمان، بعد، بإقامة سقوف من الخشب لها للفصل بين المناطق المختلفة Nur für Polen, Nur für Engländer, Nur für Ukrainische Frauen.[8]

وهكذا قدماً، وعلى بعد ما Nur für Häftlinge فقط للهافتلنغ. في الداخل، الواحد إلى جانب الآخر، يجلس أربعة هافتلنغ، عامل روسي كهل، على كمه شريط أزرق والحروف ost ، شاب بولوني على ظهره وصدره حرف p كبير بلون أبيض، وأسير حرب إنجليزي، وجهه محلوق بشكل بشع، يلبس ملابس كاكي، نظيف ومكوي ، علامة KG (Kriegsgefangener – أسير حرب) على ظهره، الفتلنغ الخامس واقف إلى جانب الباب، وكل مَن يأتي يسأله بصوت ذي نبرة واحدة وبأناة:Etes-vous français هل أنت فرنسي؟

وعندما أعود إلى العمل، تمر الشاحنات التي تجلب شوربة الظُهر، علامة أن الساعة هي العاشرة، ساعة محترمة لأن فرصة الظهر تبدو في الأفق الضبابي للمستقبل البعيد، وممكن استجماع القوى لساعة الخلاص.

أنا أقوم بعدة مشاوير مع رزنيك، أفتش بالشموع عن لفائف حديدية خفيفة، حتى في الأكوام البعيدة، ولكن كل اللفائف الجيِّدة أخذوها ولم يبقَ إلاّ لفائف حادة وثقيلة، مدهونة بالوحل والثلج، وفي أطرافها زوايا حديدية مضروبة لتعليق الخطوط الحديدية.

فرانس جاء لينادي فاشمان حتى يذهب معه لجلب الشوربة. من هنا نفهم أن الساعة الحادية عشرة. والصباح ولّى تقريباً. لا أحد يفكر ببعد الظهر، بعد ذلك،

---

[8] ألمانية: فقط للإنجليز، فقط للبولونيين ، فقط للنساء الأوكرانيات.

عندما نعود من دورة إضافية من العمل الصعب، في الحادية عشرة والنصف، يبدأ التحقيق التقليدي، كم من الشوربة يوجد اليوم، وما هي نوعيته، وهل أخذنا من الطبقة العليا للقدر ، أو من السفلى. أنا أجتهد أن لا أسأل الأسئلة، ولكن لا أنجح في عدم الإنصات بقوة لسماع الأسئلة ولتوجيه أنفي إلى رائحة الطبيخ المنتشرة في الأفق.

وعندها في النهاية، مثل غزال الفجر الذي يبدو في الأفق، كأنما استجابوا لصلواتنا، نسمع صفير الظهر، الذي يخفف العناء والجوع الذي يعذبنا جميعاً. ومرة ثانية أمامنا المشاهد المألوفة: الكل يركضون إلى الصريفة، يقفون بالدور، والصحون ممدودة أمامهم، كلهم مسرعون كالبهائم المجوعة ليملأوا أمعاءهم بالمشروب المائي الحار. ربما لا أحد يريد أن يكون الأول لأن الوجبات مائية جداً وكالعادة الكافو يطلق الإهانات، ويسخر من جوعنا، ولا يتدخل في محتوى القِدْر لأن من المؤكد أن ما في أسفل القِدْر له. بعد هذا نحس إحساساً مريحاً، وايجابياً. التوتر يخف، البطن حامية، التنور يدفيء الصريفة، المدخنون يتناولون سيجارة دقيقة، بحركات بطيئة وبرهبة قدسية، ملابس الجميع مبللة بالماء دافئة من حرارة التنورتخرج رائحة مثل رائحة الكلاب.

هناك إجماع عام غير مكتوب على المحافظة على الصمت الكامل، وخلال دقيقة ينام الجميع ، مضغوطين الواحد إلى الآخر، مدلوقين إلى الأمام، نغمض أعيننا ومرة أخرى تدور في رؤوسنا أحلام، الأحلام العادية، نحن في البيت نجلس إلى جانب المائدة المعدة لوجبة، أو في البيت نقص ماذا عملنا، عن التعب الدائم ونوم العبيد هذا.

بعد مرور وقت ما، وسط سكوت المضغ الناعس، تتبلور فكرة مؤلمة تتحرك مشاعر موجعة تقطع فرح الاستراحةEs wird bald ein Uhr sein الساعة حوالي الواحدة. ومثل مرض السرطان الذي ينتشر بسرعة هائلة، ينتشر الإحساس الذي يوقظنا ويوقظ فينا الخوف. ننصت للريح التي تولول في الخارج، الثلج ينزل

على الشبابيUhr sein es wird schnell ein الكل متمسكون بالنوم حتى لا يتركنا، وتستعد الأحاسيس للإشارة التي تجيء من وراء الباب، القريب منا.

ضربة على الزجاج. مستر نوجله ضرب كرة ثلج وهو يقف كمن تجمد، يمسك بالساعة، الموجهة نحونا. الكافو يقوم، ويقول بهدوء، فليس في قلبه شك، أن أحداً لن يجرؤ أن لا ينفذ: Alles heraus الكل إلى الخارج !

لو تمكنا أن نبكي! لو تمكنا أن نقف قبالة الريح كما وقفنا قبالتها في السابق، متساوين، وليس كما نحن الآن. كالديدان، بلا نفوس!

نحن في الخارج، كل واحد يرفع عصاه. رزنيك يلملم رأسه بين كتفيه، يُنزل القبعة على أذنيه، يرفع عينيه إلى السماء المنخفضة والغبراء، اللتين انفصل عنهما الثلج بلا رحمة: Si j'avey une chien, je ne le chasse pas dehors.[9]

---

[9] لغة فرنسية مشوشة: لو كانت عندي كلبة ما كنت لأقذفها إلى الخارج.

يوم جيد واحد

الإنسان يؤمن، بكل جوارحه، أن للحياة هدفاً. هذا الايمان هو جوهره الإنساني. الناس الأحرار يفكرون به. يتناقشون حول جودته، ويسمونها بأسماء عديدة بالنسبة لنا، الهدف بسيط للغاية. أن نعيش حتى الربيع. هناك موضوع واحد لا نفكر به. لهذا الهدف فقط موجهة كل طاقاتنا النفسية، وكل آمالنا، في الصباح، في ساحة الاستعراض، نقف صفوفاً صفوفاً، ننتظر ساعات كثيرة، بفارغ الصبر، للخروج إلى العمل، عندما كل نسمة هواء تدخل داخل ملابسنا وتجعل أجسامنا الواهية ترتجف، حيث كل شيء أغبر حولنا، وحتى نحن رماديون. كل صباح نقف في الظلام، ننظر إلى الشرق حتى نلاحظ العلامات الأولى المبشرة بمجيء الموسم الدافيء، يومياً نتكلم حول شروق الشمس، أحقاً أشرقت اليوم مبكرة أكثر من أمس، أحقاً دافئة أكثر من أمس، بعد شهرين أو شهر، يتبدد البرد، ويقل أعداؤنا بعدو واحد.

اليوم، للمرة الأولى، ارتفعت الشمس، واضحة ونقية من الأفق. شمس بولونية باردة، بيضاء وبعيدة. تُدَفيء قليلاً فقط، فقط جلد الجسم. ولكن عندما نُزعت عنها بقايا الضباب الأخيرة، علا هرج انفعال من الجمهور الأغبر، حيث أحسست أنا أيضاً، بالحرارة التي تغلغلت عبر ملابسي، وفهمت كيف من الممكن عبادة الشمس.

Das Schlimmste ist vorüber – الأسوأ وراءنا. يقول تسيكلر. ويدير ظهره إلى الشمس الدافئة، بجانبي تقف مجموعتان من اليونانيين، يهود سالونيكي الرائعين، والمخيفين. أذكياء وقساة وسارقون وعنيدون وموحدون. إرادتهم أن يعيشوا حسمت الأمر، وليست عندهم أية رحمة في الصراع للبقاء، اليونانيون الذين سيطروا على المطابخ. وعلى الأعمال داخل المصنع. يهود حتى الألمان يحترمونهم والبولونيون يخافون منهم. هذه بالنسبة لهم السنة الثالثة في المعسكر، ولا أحد يعرف أفضل منهم الوضع في المعسكر. يقفون في دوائر، قريبين الواحد من الآخر، ويغنون أغنية ليست

لها نهاية. فليتسو اليوناني يعرفني L'année prochaine à la maison! هو يصرخ في اتجاهي، ويضيف: à la maison par la cheminée![10] فليتشو كان في بيركناي. يغنون طول الوقت. أرجلهم تضرب الأرض حسب اللحن كالسكارى من الغناء.

عندما مشينا من طريق البوابة الكبيرة وقف أمامنا السور العالي والأفق كان بلا غيوم.جنوباً كان بالإمكان رؤية سلسلة الجبال ومن الشرق- معروف وليس واقعياً –برج الأجراس لمعسكر أوشفتس. حتى في هذا المكان يوجد برج للأجراس. احتراماً لله! وحول المكان طابات مزهرة معادية للطيارات. دخان زرائب البونا ارتفع في الأفق البارد. وكان ممكناً أن نرى تحته سلسلة جبال منخفضة مغطاة بغابات خضراء، قلبنا يتكوَّم في داخلنا لأننا كلنا نعرف أنه هناك في بيركاني جاءت النهاية لنسائنا وأولادنا، وهناك تجيء نهايتنا بسرعة. هذه المرة الأولى التي نرى فيها بيركناو.

في المرة الأولى، انتبهنا أنه من كلا جانبي الشارع الحقول خضراء، لأنه عندما تختبيء الشمس بين الغيوم فإن الخضرة كأنما تختفي.

مدينة بونا ليست خضراء. أيضاً تحت ضوء الشمس هي غبراء وغامقة، حتى اليأس. في ليل الحديد والباطون والغبار المنتشر على ساحات واسعة، فإن هذا هو القُبْح المتجسد. أسماء عماراتها وشوارعها وطرقها مثل أسمائنا: أرقام أحرف أو أسماء مرعبة وإجرامية. في داخل مساحتها المسيجة لا يمكن أن نرى حتى ورقة عُشْب واحدة. الأرض متشربة بسوائل سامة من الفحم والنفط. لا شيء يتحرك، فيما عدا السيارات والناس، وتوجد سيارات أكثر من الناس.

بونا هي مدينة كبيرة جداً. يعمل فيها، بالإضافة إلى التقنيين والإداريين الألمان، أربعون ألف شخص، غرباء، يتكلمون بخمس عشرة أو عشرين لغة. الكل يعيشون في المعسكرات المختلفة المحيطة بها. معسكر أسرى إنجليز، معسكر نساء أوكرانيات،

---

[10] بالفرنسية: في العام القادم – إلى البيت ... إلى البيت عبر المدخنة

معسكر المتطوعين الفرنسيين، ومعسكرات أخرى لأناس نحن لا نعرف أصلهم، فقط في معسكرنا Judenlager, Vernichtungslager. Kazett (معسكر اليهود) –يوجد عشرات ألوف العاملين من كل أمم أوروبا. نحن عبيد العبيد. كل واحد من حقه أن يعطينا الأوامر، اسمنا هو الرقم المحفور على ذراعنا والمحاك على القميص.

برج المحروقات الذي بنيناه بأيدينا يقف في مركز بونا. ويمكن رؤية سطحه، أحياناً، من خلال الضباب. الحجارة التي بني البرج منها اسمها[11] tegula, ecgli, kamenny, bricks, téglak, briques, Ziegel وقد أسندت الحجارة، الواحد إلى الآخر بإسمنت الكراهية، الكراهية والخصام، كما في برج بابل. وبالفعل نحن نسميه Bobelturm, Babelturm، وكرهنا فيه حلم العظمة المقرف والمرعب لمستعبدينا. إهانة لله والإنسان، إهانة كرامتنا الإنسانية.

وكما في قصة من أيام الأهل، فإننا نحس إلى اليوم باللعنة، وحتى الألمان أنفسهم يحسون بها، ليست اللعنة الإلهية والسماوية، بل اللعنة التاريخية، الدائمة التي تربخ على برج بابل الألماني، وعلى خليط اللغات الذي فيه، الذي يتحدى السماء، لعنة الحجر.

ونقص أيضاً: من مصنع بونا الذي بناه الألمان وتعبوا عليه أربع سنين كاملة، والذي في داخله مات كثيرو العدد، لم يخرج منه أبداً حتى كيلو غرام واحد من المطاط.

ولكن اليوم ترتسم سماء صافية في المستنقعات الكثيرة التي على وجه مائها تطفو طبقة من النفط. من المواسير المتجمدة من الخزانات ومن مخازن المياه الملفوفة بطبقة من الجليد، من التراب عند الحفر، من أكوام الفحم، من حجارة الباطون يرتفع اليوم، في حر الشمس، بخار بقية الشتاء.

---

[11] حجر بناء بلغات مختلفة، الألمانية، الفرنسية، الروسية، الأكرانية، البولونية، الرومانية.

اليوم هو يوم جيّد. نحن ننظر حولنا كالعميان الذين عاد إليهم ضوء عيونهم، ننذهل الواحد مع الآخر، لم ننظر يوماً أحدنا إلى الآخر على ضوء الشمس، أحد ما يبتسم، لو أن الجوع لا يعذبنا!

هذا هو طبع الإنسان: لا يمكن أن نحس في الوقت نفسه بكل العذابات والآلام. الآلام السهلة للغاية تختبيء من وراء الأكثر قوة حسب قانونية دائمة، وهذا هو، نظام سماوي وفقط من قوته نحن قادرون أن نعيش في المعسكر. وهذا هو، أيضاً، السبب، انه خارج المخيم يمكن أن نسمع في أوقات متقاربة، أن الإنسان هو أبداً غير راض. ولكن تقريباً من المؤكد أن هذا ليس بسبب عدم القدرة على الإحساس بالسعادة المطلقة. بل هو عدم قدرة على فهم الطبع المعقد للبؤس. لذلك فإن أسباب البؤس تلبس في نظرنا صورة واحدة فقط، ونحن نسميها باسم واحد فقط، وهو اسم نابع من الضيق الأكثر قوة وعندما يضايقنا هذا الضيق، عندها بانكسار القلب نكتشف، لمفاجئتنا، أنه وراء هذا الضيق هناك ضيق آخر. وفي الحقيقة هناك سلسلة من العذابات.

لذلك. حالاً عندما يتوقف البرد. العدو الأكثر شراسة في أيام الشتاء، نحن نحس فجأة بعذابات الجوع بكل قوتها. نحن نعود على نفس الغلطة ونقول: "لو أننا. فقط، لسنا جياعاً!"

ولكن كيف من الممكن أن لا نفكر بالجوع؟ المعسكر هو هو الجوع بعينه نحن أنفسنا جياع، والجوع جزء منا.

في الجانب الآخر للشارع يعمل تراكتور حفار، الكف العملاقة التي على الكابل تفتح أشداقها، تحوم، بتردد، لفترة قصيرة، تختار، ثم تنغرز بقوة بالأرض اللينة، وتجر في جوع الأرض. من غرفة القيادة يرتفع صوت رضى، ومعه غبار أبيض وكثيف. الكف ترتفع، تدور، وفمها يبصق كل ما في داخله، ويعود على ذلك ثانية.

نحن ننظر مبهورين، نتكيء على المعاول. مع كل نهشة للحفارة أفواهنا تنفتح. وشهوة الرضى ترتفع وتنخفض من تحت الجلد الهزيل. لسنا قادرين أن ندير عيوننا من منظر وجبة الحفارة.

سيغي هو ابن سبع عشرة سنة وجائع أكثر من الجميع مع أنه في كل مساء يأخذ زيادة في الشوربة من شخص هو تابع له، أغلب الظن ليس بدون مقابل.بدأ يقص عن بيته في فيينا وعن أمه، وبعد ذلك بدأ يتكلم عن المطبخ، والآن هو يصف، بتفاصيل التفاصيل، وجبة زواج، ويتذكر، بأسف عميق، أنه لم ينه الصحن الثالث من شوربة الفاصوليا. الكل يسكتونه، لا تمر عشر دقائق وبيلا يبدأ بوصف القرية التي في هنغاريا وحقول الذرة ويقدم وصفة لشوربة الذرة ، الحلوة المصنوعة من حبوب مقلية مع الزيت والبهارات، والناس يلعنونه ويصرخون عليه ولكن بعد لحظة يبدأ الثالث بالقص.

كم كبيرة لعنة الجوع! أعرف جيّداً أنه من هذا الهذيان لا فائدة ترجى، ولكني لا أستطيع أن أكون مختلفاً عن زملائي. وفي عين روحي يرقص صحن المعكرونة الذي طبخناه في ايطاليا، فاندا، لوتشانا فرانكو وأنا.

فعلنا ذلك في المعسكر الانتقالي، عندما عرفنا أننا في اليوم التالي سنخرج من هنا إلى طريق جديدة. أكلنا، المعكرونة كانت ممتازة. ذهبية وجامدة. وبعد ذلك توقفنا. أغبياء لا نفهم نحن! لو عرفنا! وإذا أتيح لنا مرة أخرى، لا يمكن أن يحدث أمر واحد بالتأكيد، وجبة كهذه لا نلتقي بها في طريقنا، مرة أخرى.

فيشر الذي وصل أخيراً إلى المعسكر، يخرج من جيبه رزمة صغيرة ملفوفة بدقة هنغارية. داخلها، نصف وجبة خبز، نصف من وجبة الصباح، ولا أحد منا نحن القدامى غير قادر أن يحافظ على الخبز خلال ساعة. هناك تبريرات مختلفة لانعدام القدرة على ذلك، الخبز الذي يأكلونه في وجبات صغيرة لا يُهضم كما يجب. التوتر الناتج عن الجهد للمحافظة على الخبز بينما أنت جائع جداً مضر ويضر بنفسك. الخبز ييبس ويفقد قيمته الغذائية. ولذلك كلما أسرعنا وأكلناه فإنه يفيد أكثر. ألبرتو يقول إن الجوع والخبز في الجيب هما حقيقتان متناقضتان، وليس بإمكانهما أن يكونا

في مكان واحد. أغلبية الزملاء يقولون ، بحق، إن المعدة هي الخزنة الأكثر ضماناً لتفادي سر السرقات والخدع, Moi, on m'a jamais volé mon pain![12] يقول دافيد وهو يضرب على بطنه الفارغ. هو لا ينجح أن يزيح عينيه عن فيشر الذي يأكل ببطء وبمنهجية. "صاحب حظ"، وفي الساعة العاشرة عنده نصف وجبة خبز! sacré veinard va...![13]

اليوم هو يوم بهيج. لا بسبب الشمس، في الظهر تنتظرنا مفاجأة. بالإضافة للوجبة العادية يوجد في الصريفة قدْر رائع من قدور مطابخ المصنع، وهو تقريباً ملآن. تمبلر ينظر إلينا بمظهر المنتصر، وهذا "الترتيب" هو نتيجة عمله.

تمبلر هو رجل الصفقات الرسمي للكوماندو الخاص بنا. وهو يتقرب من شوربة المواطنين تقرُّب النحل إلى الورد. الكافو الخاص بنا الذي ليس كافو سيئاً يسمح لنا أن نتصرف حسب رغبتنا، وبحق تمبلر يخرج في مسارب غير معروفة مثل كلب الصيد، ويعود وفي فمه معلومة أغلى من الذهب، العمال البولونيون الذين يعملون في إنتاج المنتول، على بعد كيلو مترين من هنا ، أبقوا أربعين لتراً من الشوربة، لأن طعمه حامض بعض الشيء أو أن عربة من اللفت بقيت بلا حارس، على الرصيف الجانبي، إلى جانب مطابخ المصنع.

اليوم يوجد خمسون لتراً من الشوربة، ونحن خمسة عشر شخصاً مع الكابو، ومدير العمل. ثلاثة لترات لكل شخص. نأخذ لتراً في الظهر، بالإضافة إلى الوجبة العادية، واللتران الآخران نأخذهما واحداً بعد الآخر، بعد الظهر في الصريفة. وبشكل استثنائي نتوقف عن العمل لخمس دقائق.

ماذا يمكن أن نريد أكثر؟ العمل يبدو أسهل عندما نعرف أنه ينتظرنا لتران من الشوربة السميكة والساخنة في الصريفة. الكابو يأتي كل دقيقة ويقول: Wer[14]

---

[12] باللغة الفرنسية لم يسرقوا مني خبزي، أبداً

[13] بالفرنسية، اصطلاح شعبي: أي بندوق أنت!

[14] بالألمانية: مَن لم يأكل بعد؟

hat noch zu fressen هذه المرة هو لا يهزأ منا. نحن نأكل واقفين، بسرعة، بغضب، الشفتان والحنجرة تحترق، تقريباً لا نسمع. حقاً، الاسم المناسب لأكلنا هو fressen – الأكل الجشع الحيواني، حقاً هو ليس essen نمط الأكل للناس المجتمعين حول طاولة، كما في طقس الصلاة. fressen هو حقاً التعبير المناسب الذي نستعمله.

المستر نوغله يتجاهل غياباتنا. ويبدو أن المستر نوغله أيضاً جائع. ولولا المسلمات الاجتماعية ربما لم يكن يرفض أن يأخذ لتراً من الشوربة الساخنة من أيدينا.

يجيء دور تمبلر. بموافقة الجميع يُعْطى له خمسة لترات من أسفل القدر. تمبلر، بالإضافة إلى أنه رجل الحيَل، فهو أيضاً يأكل الشوربة بشكل خاص من نوعه. بإمكانه أن يُفْرغ أمعاءه حسب رغبته قبل الوجبة الدسمة. وهذا يكبر بشكل واضح، قدرته على الأكل، التي هي كبيرة أصلاً.

إنه فخور بمواهبه هذه والكل يعرفون ذلك. حتى المستر نوغله. الكل ينظرون إليه بإعجاب، عندما يغلق الباب على نفسه في المرحاض. ويخرج فرحا، مستعداً للاستمتاع بثمرة عمله، والكل يستقبلونه بالتحية Nu, Templer, hast du Platz genug für die Suppe gemacht?[15] مع غروب الشمس، يُسْمع الصفير بانتهاء العمل، حيث كلنا شبعانين، على الأقل لعدة ساعات، لسنا كثيرين. نحن نحس إحساساً جيداً. للكابو لا يوجد سبب للضرب، ونحن قادرون أن نفكر بالأم، والزوجة، الأمر الذي عادة لا نقدر عليه. بعض الساعات نكون قادرين أن نكون تعساء، على طريقة الناس الأحرار.

---

[15] بالألمانية، هيّا تمبلر، هل أفرغت : كاناً للشوربة

أبعد من الجيّد والسيء

كان عندنا توجه مَرَضي أن نفسر كل حَدَث كرمز، وأن نرى فيه علامة لما هو آت. منذ سبعين يوماً ونحن ننتظر Wäschetauschen - احتفال تغيير الحجارة. الإشاعة القوية قالت إن هناك نقصاً في الحجارة لأن الجبهة قريبة إلينا. الألمان ليسوا قادرين أن يجلبوا إلى أوشفتس إرساليات جديدة، ولذلك فالتحرير قريب. مع هذا التفسير سُمع أيضاً عكسه. التأخير هو علامة مؤكدة، إنه في القريب سوف يُصفّون المعسكر. ولكن الملابس وصلت وكالعادة، فقد اهتمت إدارة المعسكر أن يجري الاستبدال بشكل مفاجيء، وفي الوقت نفسه، في كل الصرائف.

يجب أن نعرف أن هناك في المخيم نقصاً دائماً بالنسيج. ولذلك فهو نادر الوجود وغال. وفي الحقيقة بطريقة واحدة فقط من الممكن الحصول على لفافة من الخرَق لتنظيف الأنف،أولفافة نسيج لنربط بها الرجلين، حتى أننا نمزق طرف القميص عند تغييره. نمزّق من الكُمتين إذا كانتا طويلتين، وإلاّ فإننا نكتفي بمربع صغير من أحد أطراف الملابس. على أية حال، هناك حاجة إلى الحصول على خيط وإبرة، وكذلك أن تكون ذا موهبة حتى لا يبدو التغيير للعيان، عند التسليم. الملابس الداخلية المتسخة والممزقة نعيدها مختلطة إلى المخيطة في المعسكر، حيث يصلحون بسرعة، وبعد ذلك يبدأ التذمر (لن يتم الغسل) ويوزعون الملابس ثانية. من هنا، واضح، أنه حتى لا تتمزق الملابس، تحاول سلطات المخيم إجراء التبديل في مفاجأة كاملة.

ولكن ، بطبيعة الحال، غير ممكن منع أن يتغلغل نظر أحد ما ذكي وحاد العين، لغطاء الجهاز الذي خرج من غرفة التعقيم. خلال فترة قصيرة للغاية، عرف كل المخيم أن ال Wäschetauschen على وشك أن يُعمل، وهذه المرة سوف يوزعون قمصاناً جديدة. من إرسالية الهنغاريين التي وصلت قبل ثلاثة أيام.

المعلومة أثارت حالاً سلسلة من ردود الفعل. وكل مَن أخذ قميصاً إضافياً، ليس حسب المواصفات، إمّا مسروقٌ أو أخذه بالحيلة، أو اشتراه مقابل خبز، حتى يحافظ على نفسه من البرد، وهو يركض لكي يتمكن أن يستبدله بالطعام، قبل أن تؤدي الأخبار أو الإشاعة إلى تخفيض قيمة القميص، حتى لا تبقى له قيمة.

النشاط في البورصة دائماً نشيط جداً. مع أن التبديلات ممنوعة، إطلاقاً، (بل ممنوع امتلاك أي مُلْك) ومع أن الكافوس أو رئيس البلوك يقومان بالتفتيشات المتقاربة، ويهربان كل مرة التجار، فإن الزبائن ومجي الاستطلاع، مع كل هذا، حالاً بعد انتهاء العمل تنفتح سوق نشيطة في الزاوية شمالي شرق المعسكر وليس بالصدفة الزاوية الأكثر بعداً من صرائف الإس.إس، في الصيف في الخارج، أما في الشتاء ففي إحدى غرف الحمامات.

في البورصة يتمشى عشرات الناس، شفاههم ضامرة وعيونهم متراقصة، يائسون من شدة الجوع. إن جوعهم يعذبهم، ويقودهم إلى مكان حيث تُعْرض البضاعة المغرية جداً، كل ما في أيديهم نصف وجبة خبز صغيرة، نجحوا أن يوفروها من الصباح بجهد لا يوصف. لقد جاءوا إلى هنا، بأمل خائب، أن يتمكنوا من تبديل أشياء جيدة مع شخص ساذج وغبي لا يعرف قيمة الحاجيات أو الطعام المتداولة في ذلك اليوم. البعض يتصرفون بصبر زائد، ويملكون بنصف وجبة الخبز لتراً من الشوربة، ويخرجون، خفية، بعض بقايا البطاطا من الأسفل، وثانية يستبدلون الشوربة بالخبز، ثم الخبز بالشوربة، وهكذا دواليك إلى أن تنهار أعصابهم، أو حتى يقع أحد ما في الفخ ويضبطهم في عملتهم ويصرخ عليهم ويهين وجوههم أمام الكثيرين. هناك، أيضاً، من يجيء إلى البورصة ليبيع قميصه الوحيد. معروف لهم جيداً ماذا سيحدث عندما يُدْرك الكافو أنه لا يوجد على جسمهم أي تغطية من تحت الجاكيت. يسأل: ماذا فعلوا بهم، وهذا سؤال خطابي، افتتاح للبحث في المشكلة. وهم يجيبون بأن القميص سُرق منهم في الحمامات. أيضاً الجواب هو روتيني ولا أحد يصدّق. والحقيقة أنه حتى حجارة المخيم تعرف أنه خلال تسع وتسعين مرّة من كل مائة، بيع القميص بسبب الجوع. بالإضافة لهذا، القانون هو أن الإنسان مسؤول عن قميصه،

لأنه مُلْك المعسكر. لذلك فإن الكافو يوسعه ضرباً . وبعد هذا يأخذ قميصاً آخر. وحالاً أو بعد ذلك، تتكرر القصة ذاتها. في البورصة يقف التجار المهنيون. كل واحد في زاويته الدائمة. يبرز خصوصاً اليونانيون. أمامهم صحون الشوربة السميكة التي حصلوا عليها بالحيَل وبقوة تماسكهم، صامتون. يونانيون قلائل بقوا على قيد الحياة. وقد أسهموا كثيراً لطابع المخيم ولتشكل اللهجة الأممية التي يتكلمون بها هنا. الكل يعرفون أن caravana هي الصحن أو القدْر، وأن la comedera es buena معناها الشوربة الجيدة. والكلمة التي تشير إلى السرقات بأنواعها هي Klepsi-Klepsi , وأصل الكلمة بالطبع يوناني. هؤلاء اليهود القلائل، الذين بقوا من طائفة سالونيكي الذين يتكلمون لارنيو ويونانية القادرون على كل شيء، هم ذوو حكمة حياتية كبيرة، ذوو فطنة عملية تتمازج فيها تقاليد من ثقافات البحر المتوسط. هذه الفطنة تدحجرت في المخيم إلى نشاط منهجي ، مدروس وعلمي في مجال السرقات والصراع على الوظائف الجيدة، وشراء الاحتكار في البورصة وكذلك الحيَل. ولكن هذه الحقيقة يجب لا أن تغطي على حقيقة أنهم كرهوا كل استعمال للعنف هدفاً بحد ذاته. وأكثر من ذلك: لقد حافظوا بكل قوتهم على كرامة الإنسان. هذه الحقائق حوّلت اليونانيين في المخيم إلى المجموعة القومية الأكثر تماسكاً بل الأكثر إنسانية.

في البورصة، بإمكانك أن تجد المتخصصين بسرقة الطعام في المطابخ، معاطفهم منفوخة بشكل غامض. للشوربة سعر تقريباً ثابت. نصف وجبة خبز مقابل لتر واحد مقابل ذلك أثمان اللفت والجزر والبطاطا تتغير بشكل دائم وطبقاً للجهد، والثمن الذي يجب دفعه لرشوة حراس المخازن.

يبيعون "المحروقة" وهي فتات من التبغ تباع رسمياً في حانوت السجن كل رزمة تتكون من 50 غرام. بالإمكان شراء "المحروقة" مقابل وصولات خاصة كان مفروضاً أن توزعها الإدارة على العمال الممتازين. توزيع الوصولات ليس منظماً ويجري تنفيذه ببخل شديد وبفظاظة. لذلك المسؤولون والProminenten موظفو المعسكر-يأخذونها مباشرة لأيديهم، وعندما لا يحصلون عليها يستخدمون

صلاحياتهم، لكي يأخذوها لأيديهم. ومع هذا، فإن الوصولات تنتقل من يد إلى أخرى في سوق المعسكر، كما لو كانت بديلاً للمال. وقيمتها تتغير حسب القوانين الكلاسيكية للاقتصاد السياسي.

كانت أيام دفعوا فيها مقابل الوصولات وجبات الخبز، وبعد ذلك صار الوصل بوجبة وربع، وحتى بوجبة وثلث. وفي أحد الأيام ارتفع سعر الوصل إلى وجبة ونصف، ولكن بعد وقت ما لم تصل "المحروقة" إلى حانوت المعسكر وعندها انخفض سعر الوصل، دفعة واحدة، إلى ربع وجبة. قيمة الوصولات ارتفعت لفترة قصيرة بسبب فريد من نوعه: تتغير الفتيات في قسم النساء أي عندما وصلت دفعة من الحسناوات البولونيات يستبدلن السابقات. حيث كان الدخول إلى بلوك الأسرى الجنائيين والسياسيين، وليس لليهود، لذلك لم يضايقهم التحديد، وكانت مقابل وصل أو وصلين، وقد اهتم المعنيون أن يأخذوا كمية أكبر. من هنا ارتفاع قيمتها المفاجئة، التي استمرت وقتاً قصيراً، فقط.

بين الأسرى العاديين لم يكن كثيرون يريدون "المحروقة"حتى يدخنوا. وعادةً كانت تجد طريقها إلى خارج المعسكر، وتصل إلى أيدي العاملين المدنيين للبونا. هذه هي إحدى الطرق المألوفة كثيراً أكثر للتحايل. السجين كان ينجح في توفير وجبة خبز ويوظفها في "المحروقة" وعندها، بحذر، يقيم صلة مع "هاوٍ" مدني يشتري التبغ، وهو يدفع مقابل التبغ نقداً. أي أنه بوجبة خبز أكبر من الوجبة العادية، في الحانوت، كان السجين يأكل "الربح" ويدخله إلى صندوقه. المفاصلة على السعر، كانت تخلق صلة بين الاقتصاد الداخلي للمعسكر واقتصاد العالم خارج المعسكر. ذات مرّة، لم يُعْطَ تبغ لسكان مدينة كراكوف وحالاً أثّر هذا الحدث على حياة المعسكر رغم الأسلاك الشائكة التي تفصل بيننا وبين الإنسانية كلها. سعر "المحروقة" ارتفع جداً، وفي أعقاب ذلك ارتفعت قيمة "الوصل".

هذا المثل هو من الأمثلة البسيطة، وهاكم مثلاً معقداً أكثر. الهبتلك يشتري مقابل "محروقة" أو مقابل الخبز أو أحيانا حتى يحصل على هدية، خِرْقة مُقْرِفة، قذرة وممزقة المسماة قميصاً، فيه ثلاثة ثقوب بإمكانه خلالها أن يُدخل الرأس واليدين. مقابل هذا

الملبوس حتى لو كان مستعملاً أو تالفاً كلياً بالإمكان أخذ قميص كامل عند استبدال الملابس الداخلية. الأسير الذي أخذ القميص الخِرْقة يتلقى، على الأكثر، وجبة معقولة من الضربات، بجريرة الإهمال في المحافظة على الملابس.

لذلك، في المعسكر، تقريباً ليس هناك فرق في التقييم للقميص المناسب والقميص الذي هو خِرْقة ممزقة وبالية. الأسير الذي في يديه خِرْقة كهذه لا يجد صعوبة أن يجد زميلاً معه قميص جيِّد ليس قادراً على استغلال قيمته، لأنه لا يعرف اللغات الكثيرة التي يتكلمها رجال المعسكر، أو لأنه ليست لديه موهبة حتى يرتِّب أموره، أو لأنه في عمله لا يلتقي بعمال مدنيين. هذا الأخير يكتفي بوجبة خبز صغيرة مقابل قميصه كله. لا يتضرر أكثر من اللازم لأنه باستبدال القمصان في المرة القادمة عنده أمل أن يأخذ قميصاً أفضل لأن توزيع القمصان السيئة والجيّدة هو محض صدفة. بينما الأسير الذي أخذ قميصاً جيِّداً بإمكانه أن يهربه إلى المعسكر وأن يبيعه لعامل مواطن الذي منه أخذ الخرقة أو لآخر، ومقابلها يأخذ أربعة أو ستة أو عشر وجبات خبز. عملياً، يمكن هكذا الربح أكثر، ولكن في الأمر خطراً كبيراً، أيضاً. هناك خطورة في الخروج من المعسكر مع قميصين وخطيرةٌ أيضاً العودة إليه، بدون قميص.

لهذا الموضوع وجهات نظر عديدة ومختلفة. هناك مَن لا يتردد أن يسمح أن يأخذوا من فمه أسنان الذهب حتى يبيعها في المعسكر مقابل خبز أو تبغ. ولكن هذه المبادلة تجري، في أغلب المرات، بواسطة وسيط. فلان صاحب "رقم عالٍ" أي أسير وصل مؤخراً ولكن عانى بما فيه الكفاية بسبب الجوع والتوتر الرهيب في المخيم، يلتقي بفلان إلى "رقم منخفض". الأخير يلاحظ أن للأسير الجديد "جسراً" في فمه أو شدّة من الذهب. وهكذا"المنخفض" يسلم ويأخذ الذهب إلى البونا. وإذا كان يعرف في البونا عاملاً مدنياً من الممكن الثقة به أن لا يخدع ولا يشي بإمكانه فعلاً أن يربح عشرة أو عشرين وأحياناً أكثر، من وجبات الخبز التي تُعْطى في وقت ما، وجبتان أو ثلاث وجبات من الخبز. يجب التنويه أنه في البونا، من الممكن عقد صفقات على نطاق أكبر، بينما داخل المعسكر بالإمكان التجارة فقط بالبضاعة التي قيمتها على

الأكثر أربع وجبات خبز. حيث هنا لا يمكن على الحساب، كما أن طمع المحيطين بك والجوع الذي يضايقك لا يعطونك إمكانية أن تحافظ على كمية أكبر من الخبز.

التجارة مع العمال المدنيين متطورة جداً، وهي كما رأينا، الأساس لاقتصاد المعسكر، مع أنها معتبرة خروجاً على أنظمة المخيم. وهي مذكورة، بصريح العبارة، وتعتبر خطيرة مثل الخروقات "السياسية". العقاب على التفاوض مع المدنيين Handel mit Zivilisten خطير للغاية. الأسير المتهم بهذه التهمة يُرْسَل إلى ليغليفيتس (1) إلى يانيا أو إلى هايد بارك، إلى مناجم الفحم، إذا لم يكن قادراً أن يجد بين أصحاب السطوة في المعسكر مَن يمنع إرساله إلى هناك. ومَن يُرْسل إلى مناجم الفحم عادة يموت، خلال أسابيع قليلة نتيجة فقدان القوى. وأيضاً العامل المواطن الشريك في الجُنْحة يُرْسل إلى السلطات الألمانية ويرسل إلى معسكر الإبادة، وهناك عليه أن يعيش في ظروف مثل ظروفنا، وهو يعيش هناك، على حد علمي، بين خمسة عشر يوماً إلى شهرين. العمال المدنيون الذين يصلون إلى المخيم يأخذون منهم كل ملابسهم فور وصولهم، كما يفعلون معنا، ولكن يضعون حاجياتهم الشخصية للمحافظة عليها في مخزن خاص،ولا يرسمون رقماً على ذراعهم ولا يحلقون شعرهم، ولذلك يبقون بصورتهم وشخصيتهم. في كل أيام الاعتقال عليهم أن يعملوا أعمالاً شاقة مثلنا ، مع انضباط صارم، مثلنا، ولكن الفصل إلى مجموعات لا يسري عليهم.

يعملون في الكوماندو فرادى، وليست هناك أية صلة بينهم وبين الأسرى العاديين. المعسكر بالنسبة لهم هو عقاب فقط، وإذا لم يموتوا لنفاد القوى أو من الأمراض، عندهم أمل كبير أن يعودوا في نهاية أيام الاعتقال إلى مجتمع إنساني. لو كانوا قادرين أن يتكلموا معنا كانوا يفتحون ثغرة في السور الذي بيننا وبين عالم الحياة ، ويفتحون كوّة ويضيئون، ولو قليلاً، الغموض الذي يلفنا. ولكن بالنسبة لنا هو نمط حياة، لا نرى نهايته، نمط حياة فُرِض علينا في مبنى المجتمع الألماني.

في مخيمنا قسم خاص للعمال المدنيين أبناء جميع الأمم، الذين عوقبوا على اتصالات غير قانونية كانت لهم مع الأسرى. جدار من الحديد يفصل بين القسم المخصص للعمال المدنين وبين بقية أقسام المخيم. هذا القسم يُسمّى E-Lager

(معسكرe) وe ترمز إلى الأسرى الذين يسمون "المدنيين"، وهي الحرف الأول من الكلمة الألمانيةErziehung أي "التربية".

كل التجارة التي وضعناها، حتى الآن، كانت تجارة ببضاعة مختارة من المخيم. الإس. إس يحرصون على أن يمنعوا تهريبات أملاك المخيم. كل ما في المخيم تابع لهم عملياً، وحتى الذهب الذي في فم كل أسرى المخيم، أحياء كانوا أم أمواتاً. كله سيقع عاجلاً أو آجلاً في أيديهم لذلك من الواضح لماذا هم يحافظون إلى هذا الحد. حتى لا يهرب أي شيء من المعسكر.

ولكن ليست عند إدارة المعسكر معارضة مبدئية للسرقات بشكل عام. وبالفعل فإن الإس. إس. يغضون الطرف، بشكل تظاهري، عن التهريبات التي تجري في المعسكر، بالإتجاه المعاكس.

التهريبات من خارج المعسكر وإليه بسيطة جداً عادةً، وهي عادة تهريبات إحدى الأدوات أو الأجهزة والمنتجات المادية ألخ.. التي نستعملها يومياً، نجد تهريباً إلى المعسكر في المساء ونجد لها مشترياً ونأخذ بالمقابل خبزاً أو شوربة، تجارة كهذه، منتشرة جداً، وهناك حاجيات معينة لا غنىً عنها في المعسكر ولا يمكن الحصول عليها إلاّ عن طريق السرقة. منها بشكل خاص المكانس، الأصباغ، أسلاك الكهرباء، الزيت لمسح الأحذية، ولنأخذ مثلاً: التجارة بالزيت لمسح النعال.

كما ذكرنا في مكان آخر، دستور المعسكر يقرر أنه يجب مسح الأحذية كل صباح، ومسحها بالممسحة. رئيس البلوك مسؤول أمام الإس. إس. أن ينفذ كل سكان البلوك هذا الطلب بدقة. ممكن أن نستنتج من هذا أن كل صريفة تأخذ في الموعد المحدد مسحوق دهن النعال. ولكن الأمر ليس كذلك. الترتيب هو مغاير. يجب التوضيح أن كل صريفة تأخذ في المساء كمية شوربة أكبر من المطلوب لسكان الصريفة، الفائض يوزع بفظاظة، حسب مزاج رئيس البلوك. قبل كل شيء، هو يوزع عدة وجبات لأصدقائه وأبناء حظوته، وبعد ذلك يعطي إضافة إلى عاملي النظافة والحراس الليليين لقاتلي القمل ولكل أصحاب الحقوق Prominenten في الصريفة .

ما تبقى، ورئيس البلوك ذكي بحيث يبقى شيء ما، يستخدمه للحصول على حاجيات معينة. البقية مفهومة تلقائياً، الفتلغ يعملون على شراء الزيت والمادة لمسح الأحذية، كلما أوشكت على النفاذ.

كل مساء، تقف، بصبر، مجموعة المهربين الذين يأتون بالحاجيات على باب الصريفة، ساعات طويلة يقفون في المطر والثلج، يتهامسون بتأثر حول الأسعار، حول ثمن الكوبونات. ومن حين لآخر يقفز أحدهم إلى البورصة، ويعود وفي جعبته الأخبار الأخيرة.

فيما عدا الحاجيات المذكورة آنفاً، يمكن أن نجد في البونا عدة حاجيات يمكن أن تكون مفيدة في البلوك، مرغوب بها للبرومننطن. شموع، فرشايات، صابون عادي، وصابون للحلاقة، مبارد، ملاقط، أكياس، مسامير: تجار يتاجرون والكحول الصناعية التي يمكن أن نصنع منها مشروبات، وكذلك البنزين الجيِّد للقداحات، وهو من عجائب الإنتاج السري لفناني المعسكر.

للكي بي هناك مكان مركزي في السلسلة المركبة من السرقات والسرقات المضادة لمن اعتاشوا من الكراهية العمياء بين قادة الإس. إس. وبين الشبكات المدنية في البونا. الكي بي هو مكان خطير، لأن مراقبات الأمن هناك ضعيفة للغاية، ومن السهل التحايل على الأنظمة. كل واحد يعرف أن الأخوة الرحماء أنفسهم هم الذين يخرجون إلى السوق، بأسعار رخيصة، القمصان وأحذية الموتى وضحايا التعذيب الذين يخرجون عراة في طريقهم الأخيرة إلى بيركناو. كذلك هرَّب الممرضون والأطباء إلى البونا إرساليات الأدوية وقد بيعت للعمال المدنيين مقابل الطعام.

الممرضون في كا-بي يربحون أموالاً طائلة من التجارة بالملاعق. لا يعطون الملاعق للأسرى الجدد، مع أنه من غير الممكن أكل الشوربة بدون ملاعق. ينتجها الهفتلغ الذين يعملون في ناحية الحدادين في البونة، بالسر، وقت العمل. الملاعق هي أدوات قاسية وتصنع يدوياً. وعادة يشحذون اليد حتى تكون قادرة أن تستعمل أيضاً كسكين لقطع الخبز. المنتجون أنفسهم يبيعون الملاعق للسجناء الجدد. ملعقة بسيطة ثمنها نصف وجبة خبز. وهناك قانون أنه بالإمكان إدخال الملعقة إلى الكي –بي

ولكن يخرجون بدونها. الممرضون يصادرون الملعقة من الأصحاء ساعة تحريرهم، قبل أن يلبسوا. والملعقة تُعرض في البورصة. وإذا أضيف إلى ملاعق الأصحاء المحررين أيضاً ملاعق الذين يموتون وكذلك ضحايا القتل، فهذا يعني أن الممرضين يمكنهم أن يأخذوا يومياً خمسين ملعقة للبيع. ومقابل الذين يتحررون من الكي- بي هناك مَن يعودون إلى العمل ويكونون مضطرين أن يتنازلوا عن نصف وجبة خبز حتى يشتروا ملعقة جديدة.

وأكثر من ذلك: الكي- بي هو الزبون الرئيسي للبضائع المسروقة في البونة. من الشوربة التي تصل إلى الكي- بي يُنقصون يومياً عشرين لتراً لصندوق السرقات، للشراء من التجار الذين يتاجرون ببضائع مسروقة. هناك مَن يسرق مواسير دقيقة تستعمل في الكي بي لغسل الأمعاء. وهناك مَن يقترح الأقلام الرصاصية والحبر الملون لإدارة حسابات العيادات.

ميزان قياس الحرارة والصحون الصغيرة والمواد الكيماوية التي يجدونها في جيوب الهيفتلغ تعاد إلى المستشفى لمعالجة المرضى.

وحتى لا أبدو متواضعاً، أكثر من اللازم، أعترف أنه في تفكيري وتفكير ألبرتو، كانت فكرة إشراقة: سرقة لفات الورق وبيعها للطبيب الرئيسي. اقترحنا عليه أن يكتب عليها نتائج فحص النبض والحرارة.

استنتاج السرقات في البونة التي تعاقب عليها الهيئات المدنية، تسمح بها الإس. إس. وتشجعها. السرقات في المخيم التي يعاقب عليها رجال الإس. إس. ، بشكل حاد، تبدو في نظر الهيئات المدنية مشروعة تماماً. ولكن السارق وضحية السرقة يعاقبان بنفس المقدار. الآن نحن نطلب من القاريء أن يفكر ما معنى الكلمات التالية في المعسكر: "جيّد"، "سيء"، "عادل" "غير عادل" ويحكم كل واحد، طبقاً للصورة التي رسمناها وطبقاً للنماذج التي قدمناها حول الأخلاقيات المألوفة في عالمنا الحر، وهل بإمكانها أن تنوجد في الجانب الآخر للأسلاك الشائكة.

الناجون والساقطون إلى الهاوية

قصصنا وسوف نقص حول الحياة التي ليست حياة، التي عشناها في المخيم. حياة مشكوك فيها في قاع الحضيض. ولكن حيث أن كل واحد قضى هناك وقتاً قصيراً للغاية، يمكن أن نجد صعوبة ليس مفيداً تذكر حياة شاذة كهذه، وربما مضر أن نتذكر.

نحن نميل إلى التفكير أن هنالك أهمية أن نقص كل ما جرى لنا حقاً، نحن مقتنعون أن لكل تجربة إنسانية هناك أهمية خاصة بها، وكل تجربة هناك قيمة لها، ويمكن فحصها بشكل منطقي. أكثر من ذلك، ممكن ايجاد قيم أساسية مع أنها ليست دائماً إيجابية، في العالم الخاص هذا، الذي نتكلم عنه بودنا لفت النظر إلى أن المخيم كان، بمعنى ما، بمثابة تجربة بيولوجية واجتماعية متعددة الأبعاد.

إذا كانت الأسلاك الشائكة تحبس أبناء كل الأعمار، أبناء كل القوميات المختلفة، المتكلمين بلغات مختلفة، ذوي الثقافات المختلفة والعادات المختلفة، وإذا كانوا يفرضون عليهم ظروف حياة دائمة، ويفرضون عليهم نظاماً صارماً، ولا يعطونهم مقومات الحياة الأساسية، فإنهم بذلك يخلقون ظروفاً مختبرية، صارمة للغاية، يمكن الاستنتاج منها أي تصرف طبيعي وأي تصرف يتعلمه الإنسان الذي يعيش في نضال قاسٍ للحياة.

لا نؤمن بعدالة الاستنتاج البسيط، المفهوم تلقائياً، بأن الإنسان قاسٍ بطبيعته، أناني وكسول في مسلكه حيث كل البناء الأعلى للثقافة مسلوب منه، وحيث أن الهيفتلغ ليس إلاّ إنساناً بلا ضوابط. نحن نميل إلى التفكير أنه غير ممكن الاستنتاج إلاّ استنتاج واحد فيما يتعلق بظروف الحياة هذه، حيث عذابات الجسد قاسية صعبة التحمل، وتصمت وتختفي الحوافز الكثيرة والعادات الاجتماعية الكثيرة.

ولكن، يخيل إلينا أنه من المفيد الانتباه إلى هذه الحقيقة: في هذه الظروف يبدو أن هناك نوعين من البشر يختلفان أحدهما عن الآخر بشكل قاطع، الناجون والساقطون إلى الهاوية المحكومون بالموت. التناقضات الأخرى، السيئون والجيِّدون، وذوو الفطنة والأغبياء، الشجعان والجبناء، المحظوظون وسيئو الحظ تبدو واضحة أقل طبيعية، وبينها ألوان كثيرة.

أكثر صعوبة ملاحظة هذا التوزيع، الناجون والمحكومون بالموت في الحياة الطبيعية، في الحياة اليومية من النادر أن إنساناً يضيع بدون ملاحظة ذلك، وذلك لأنه عادة لا يكون وحيداً في المعركة. في صعوده وفي سقوطه هو مرتبط بمصائر القريبين منه. لذلك، فقط في حالات نادرة للغاية، يملك أحد ما قوة بلا حدود، أو يصاب بهزيمة بعد أخرى إلى حد الضياع. بالإضافة لهذا، يوجد لكل إنسان عادة، قوى نفسية وقوى جسدية، وحتى مال، بحيث أن خطر الهزيمة المطلقة صغير للغاية. تعمل كموانع ذات قيمة كبيرة. البلاد تعتبر حضارية أكثر بقدر ما هي طافحة بالقيم الأخلاقية الصحيحة والناجعة التي تحمي الضعيف لكي لا يصبح ضعيفاً أكثر وتمنع القوي من أن يكون قوياً أكثر.

ولكن ليست هذه هي طبيعة الأمور في المعسكر. هنا الصراع للبقاء هو صراع بلا رحمة، حيث أن كل واحد هو وحيد، وقد وصل إلى أقصى حدود اليأس، ولذلك هو يقاتل بشراسة حيوانية، وإذا نول أكتسن انهار فلن يجد إنساناً يقدم له يد العون.

بالعكس، فدائماً يجد أحداً ما يصفيه بهدوء، حيث لا أحد معني أن يكون موزلمان[16] آخر ينتعل حذاءه ليوم عمل جديد. وإذ بذكاء وصبر، يشبهان الأعجوبة، يجد أحد ما مجالاً لحيلة التهرب من العمل، يحافظ محافظة شديدة على سرِّه، هو،

---

[16] ملاحظة المؤلف: لا أعرف لماذا قدماء المعسكر يسمون الضعفاء موزلمان لأنهم عاجزون عن العمل ومرشحون للتصفية.

وفقط هو يستمتع بالإنجاز الذي حققه، حيث أن القوي أكثر يخافون منه. وإنسان يخافون منه في المعسكر، هو إنسان مرشح أن يبقى في الحياة.

في التاريخ وفي حياة الفرد يبدو أحياناً أن قانوناً شرساً يحكمها. بارز للعيان: " من عنده يأخذ أكثر، ومن لا يملك شيئاً يأخذون منه ما تبقى عنده".

في المخيم، الإنسان منعزل والصراع للبقاء هو الصراع القديم، البدائي، للمحافظة على الحياة، قانون عدم العدل هو المسيطر، علناً، ومقبول على الجميع. المتقدمون أنفسهم، يحافظون على صلة، أحياناً تقريباً صلة فردية، مع الأقوياء، ومع المتكيفين والمخادعين، لأنهم يعتقدون أنهم يمكن أن يحصلوا على فائدة من الصلة مع هؤلاء. ولكن لا فائدة في التوجه إلى المزلمان، إلى المحطمين والمقموعين، حيث أن المعروف للجميع، لأنهم سيبدأون حالاً بالتذمر من مصيرهم ويبدأون بالكلام عمّا أكلوا في البيت. يقيناً، لا فائدة من الصداقة معهم، فليست لهم علاقات مع المهمين في المعسكر. لا يحصلون على إضافة لوجبتهم العادية، لا يعملون في الكوماندو ولا يعرفون كيف يصنعون الحِيَل. كذلك معروف للجميع أنه في هذا المخيم هم حالة انتقالية، فخلال أسابيع، على الأكثر، لن يبقى منهم إلاّ حفنة تراب ورقم هوية في سجِّل مخيم إبادة، ليس بعيداً من هنا. على الرغم من كونهم جزءاً من جمهور كبير من الشركاء في الضائقة، يواصلون تحريك أقدامهم مع الآخرين، بدون أن يتوقفوا، أنهم يعانون من العزلة الغبراء، منزوون داخل ذواتهم، ويموتون معزولين ويختفون، ولا يذكرهم أحد، بعد ذلك.

عن هذا التطور القاسي للتصفية الطبيعية، من الممكن أن نقرأ، في أحصائيات حركة الناس في المعسكرات. سنة 1944 بقي في أوشفتس فقط قلائل من الأسرى اليهود القدامى. لا مجال هنا للبحث عن غير اليهود لأنهم عاشوا في ظروف مختلفة من "الأرقام المنخفضة". من الهفتلنغ الذين أرقامهم كانت صغيرة من ال150000 بقي مئات قليلة. لا أحد منهم كان هفتلنغ بسيط عمل في الكوماندو العادي وعاش فقط على الغذاء العادي في المخيم. بقي عادة الأطباء والخياطون والكندرجيون والموسيقيون، والطباخون والشباب الذين جذبوا هوموسكسوليين وأصدقاء رئيس في

المعسكر أو أبناء مدينته أو قريته، بقي أيضاً أناس قساة عديمو الرحمة بشكل خاص أقوياء غير إنسانيين، حصلوا على وظائف (من ال إس. إس والذين في اختيارهم برهنوا على معرفة شيطانية للطبيعة الإنسانية للكافو، لرئيس البلوك، أو وظائف أخرى.) في الختام بقي مَن لم يكونوا ذوي وظائف خاصة، ممن نجحوا دائماً بمساعدة نشاطهم وخداعهم أن يكسبوا تسهيلات مادية وأيضاً مركز قوّة، ومع كل هذا عرفوا كيف يثيرون مدى من الصفح والتقدير في قلوب سادة المعسكر. من لم ينجح أن يتدحرج أن يصبح "اورغانيزاتور" أو "كومبيناتور" أو "برومننت" –هذه الصفات المقرفة-كانت نهايته أن يتدحرج بسرعة إلى موزلمان. خارج المخيم توجد أيضاً طريق ثالثة، هي هي الطريق المألوفة، وفي معسكر الاعتقال ليس هناك حل وسط.

ليس هناك أسهل من الفشل . يكفي إذا نفد الأكل أن نأكل الأوامر روحاً ونصاً، وإذا لم نأكل الوجبة المخصصة، وإذا واظبنا على انضباط العمل. التجربة علّمت أنه بهذه الطريق ممكن الصمود على الأكثر لثلاثة أشهر. لكل الموزلمانيين الذين يذهبون إلى أفران الغاز، نفس السير الذاتية. أو إذا دققنا أكثر ليست لهم سير ذاتية. تزحلقوا في المنحدر من أوله إلى أسفله، بشكل طبيعي، مثل الأنهار التي تسير إلى البحر. حالاً عندما دخلوا إلى المعسكر، غُلِبوا على أمرهم، قبل أن يتكيفوا، بسبب سوء الحظ، أو بسبب حادثة بسيطة. الزمن انتصر عليهم، وليسوا ناجحين في التعرف على الورطة الشيطانية للقوانين والمحظورات، إلاّ عندما تبدأ أجسامهم بالانحلال، ولا شيء ينقذهم، بعد، من التصفية أو من الموت نتيجة خوار القوى. حياتهم قصيرة ولكن عددهم كبير لا يعد، الموزلمانيون هم هم الساقطون إلى الموت. وهم هم المبرر لوجود المعسكر. هناك جمهور يتدفق ويتجدد بلا انقطاع- لا ، هؤلاء هم بشر متساوون الواحد مع الآخر، يشبه أحدهم الآخر، كما لو كانا نقطتي ماء. يمشون بتعب، بصمت. لا يعانون حقاً. وفي الواقع لا يمكن رؤيتهم كبشر أحياء. هناك المترددون الذين يسمون موتهم موتاً، لأنهم لا يخافون منه، بسبب هزالهم وتعبهم ليس بإمكانهم أن يفهموا ما هو الموت .

ذاكرتي مليئة جداً بحضورهم المجهول. ولو كان بإمكاني، أن أختصر كل الشر في أيامنا، بصورة واحدة ووحيدة لكنت اخترت هذا المشهد القريب جداً إلى قلبي. إنسان، جلد وعظام، جبين منحن، ظهر منحنٍ، على وجهه وعينيه من الصعب أن تجد، أكثر، التفكير الإنساني.

وفي الحقيقة، للمحكومين بالموت لا ماضٍ، والطريق إلى الهلاك واحد ووحيد. واسع. مقابل ذلك فإن طرق الخلاص في المخيم هي كثيرة، صعبة ومفاجئة.

الطريق الأساسية، كما ألمحنا، هي أن تكون بروموننت، من موظفي المخيمات. الدرجة الهامة هي مدير الهفتلنغ (Lagerältester) وبعده يجيء الكابو، الطباخون، الأخوة الرحماء، الحراس الليليون، والأخيرون-عمال النظافة في الصرائف، Scheissminister و Bademeister (وزراء المراحيض وفنانو الحمامات). من المناسب أن نذكر هنا أن البروموننطيين اليهود، لأن الآخرين يأخذون وظائفهم أوتوماتيكياً مع دخولهم إلى المخيم، بحكم تفوقهم العرقي الطبيعي، فإن اليهود ملزمون أن يصارعوا بشدة، وأن يحيكوا المكائد حتى يُقبلوا.

البروممناطيون اليهود هم ظاهرة إنسانية خاصة ومثيرة للحزن. العذاب في المخيم، حزن الأجيال من الأيام العتيقة، التقاليد وثقافة العداء تجاه اليهود، كل هذا يمتزج معاً ليتحول هنا إلى غيلاّن تكره البشر.

هم نتاج مميز لمبنى المعسكر الألماني. اقترحوا لعدة ناس الذين يتحولون إلى عبيد، موقعاً، إلى جانين امتيازات، مهما تكن بسيطة، مع إمكانية البقاء، بالمقابل طلبوا منهم أن يخونوا زملاءهم، بكل تأكيد ينوجد مَن يوافق على الاقتراح. إنسان كهذا لا يكون ملزماً بقانون المكان، يكون ممنوعاً المس به، لذلك كلما ازدادت سيطرته، ازدادت مضايقته لأخيه وكرههم له يزداد. وعندما يعطونه أن يقود مجموعة من البؤساء والحق أن يتصرف معهم حسب مزاجه، يصبح شرساً ومتسلطاً، لأنه يعرف أنه إذا لم يكن هكذا فسوف يغيرونه بشخص آخر"أفضل" منه. بالإضافة لهذا، فإنه يوجه غريزة الكراهية تجاه أسياده، بدون أي تبرير إلى المظلومين تحته، وفقط بعد أن يوزع على إخوته الإهانات التي وجهها إليه أسياده، يشعر بالارتياح.

نحن نعرف أن كل هذا بعيد بُعد الشرق عن الغرب عن الصورة التي عادة يصورونها عندما يصفون المقموعين الذين يقفون بأجسادهم ضد ظالمهم أو على الأقل يتوحدون حتى يعانوا معاً. ربما هكذا هي حقيقة الأمور، عندما القهر لا يعبر حداً معيناً، أو عندما يكون الظالم معتدلاً ولا يقمع بوحشية، نتيجة عدم التجربة أو نتيجة رحابة الصدر. ولكن نحن نقرر أنه في أيامنا في كل مكان حيث يوجد شعب غريب يدوس، بفظاظة، الذين تحت الاحتلال وعندها يستيقظ العداء والكراهية المميتة. في هذا الوضع، كما في حالات إنسانية كثيرة، كان من الممكن توقع ما يحدث في المعسكر، ومن الممكن كان أن نستنتج استنتاجات قاطعة .

عن البروميننطن غير اليهود هناك قليل جداً ما يمكن قوله، مع أنهم كانوا الأغلبية. لم يكن في المخيم أي هفتلنغ من العِرْق "الآري" ليس له وظيفة، حتى لو كانت وظيفة متواضعة للغاية. الغباء والحيوانية كانا من طبعهم. وهذا صحيح خصوصاً، إذا أخذنا بالاعتبار أن أكثرهم سجناء جنائيون اختيروا بعناية في السجون الألمانية حتى يكونوا مراقبين من أنواع مختلفة، في معسكرات الاعتقال الخاصة باليهود. نحن متأكدون أنهم اختيروا بعناية وبتدقيق كبير. لأننا نرفض الايمان أن هذه النماذج للناس البؤساء هؤلاء ، الذين رأينا أعمالهم، ليسوا فقط لا يمثلون الألماني المتوسط، بل لا يمثلون حتى الأسير الألماني المتوسط. من الصعب أكثر تفسير لماذا أيضاً البروميننطن السياسيون الألمان والبولونيون والروس كانوا وحشيين إلى هذا الحد، وربما التفسير يكمن في أنهم في ألمانيا اعتبرت أعمال جنائية أيضاً أعمال مثل التجارة غير القانونية، العلاقات الممنوعة مع اليهود، السرقات التي أضرت بنشطاء الحزب النازي. السياسيون "الحقيقيون" عاشوا وماتوا في معسكرات سيئة السمعة، في ظروف لا تطاق، ومع هذا، بمعانٍ معينة، في ظروف تختلف عن الظروف التي نعيش فيها.

ولكن، بالإضافة للموظفين الذين صورناهم كانوا أسرى ولم يعاملوا معاملة أفضل، في بداية طريقهم في المعسكر. لقد صارعوا بقواهم الذاتية حتى يبقوا، وكانوا مضطرين أن يسبحوا ضد التيار، أن يصارعوا، بقوة، كل يوم، وكل ساعة، لمنع الحرب على الجوع وعلى البرد وعلى الروتين، أن يصمدوا مقابل الأعداء وأن

يتصرفوا بلا رحمة ضد المنافسين، وأن يطوروا القدرة على الاختراع، وأن يتعلموا أن يتصرفوا بضبط النفس. وأن يقوّا القدرة على الإدارة، وأيضاً أن يخنقوا كل بقية لكرامة ذاتية وأن لا يسمحوا للضمير أن يؤنبهم. أن يقفوا في المعركة ضد الآخرين وأن يحافظوا على قوى النفس الكامنة في اللاوعي، تلك القوى غير المعروفة عند شعوب وآدميين في الفترات العصيبة. غير معدودة كانت الطرق التي اخترعناها وسرنا بها، حتى لا نموت: في عدد أنواع الشخصيات للبشر. كلها ألزمتنا بالصراع المضني الذي وقف فيه الواحد ضد الجميع. الكثير منها ألزمنا بحلول وسط غير قليلة، وكانت غير أخلاقية. الصديقون الكاملون أو مقدسو اسم الله تمكنوا أن يبقوا أحياء بدون التنازل عن المبادىء وعن القيم. إذا تصرفت طبقاً لأمر ضميرك تمكنت أن تبقى على قيد الحياة، فقط إذا حالفك الحظ، بشكل خاص.

نحن نحاول أن نُظهر بأية طرق كان من الممكن النجاة بواسطة قصّ سِيَر حياة شافل، الفرد ل، إلياس وهنري.

شافل سكن في المخيمات قبل أربع سنوات. رأى ألوف الساقطين على يساره، والقطارات على يمينه. ولقد رأى في المجزرة في قريته في جاليتسيا الضحايا. كانت عنده امرأة وخمسة أبناء، محل تجاري ناجح للجلود. من زمان لم يفكر بنفسه، بل فكر بالعمل الذي يجب أن ينجزه. شافل لم يكن جميلاً بشكل خاص ولا شجاعاً ولا سيئاً بشكل خاص. بل أنه لم يكن متحايلاً أكثر من اللازم و لم يستطع يوماً أن يجد الراحة للحظة، من الصراعات الدائمة في حياته. بلا انقطاع اضطر أن يحيك الحِيَل الصغيرة، المكائد ، كما كانت تسمى هناك. كل مرة كان يسرق في البونا مكنسة ويبيعها لرئيس البلوك، وعندما نجح في توفير بعض "المال والخبز" طلب أدوات من الكندرجي في البلوك، الذي هو ابن قريته، وقام بعمل شخصي، عرف كيف يعمل كتافات من خيوط الكهرباء. المتفرقة سيغي قال لي أنه في استراحة الظهر، رآه يغني ويرقص أمام العمال السلوفاكيين الذين أعطوه أحياناً مقابل ذلك، بقايا الشوربة. حسب كل ما قلنا حتى الآن ممكن أن ننظر إلى شافل، بتعاطف متسامح، إنسان بائس يوجد في روحه فقط حافز لحياة بسيطة، إنسان متواضع وعديم الأهداف،

يخوض ببطولة معركة صغيرة حتى لا يكون مهزوماً. ولكن شافل ليس بطلاً خاصاً، ولكن إذا سنحت الفرصة أمامه لم يتردد أن يؤذي إلى أن يتلقى مويشل الضربات. وهكذا كان، هو ومويشل قُبِض عليهما وهما يحاولان السرقة من المطبخ.شافل وشى بصديقه لأنه كان يعتقد، خطأ، أنه بقدر ما يثير الإعجاب به في عيني رئيس البلوك فإنه يحظى أيضاً بأن يكون مرشحاً للعمل كغاسل للقدور.

قصة المهندس ألفرد ل تؤكد، بين أمور أخرى، أنه لا حقيقة في الايمان بان لكل البشر إمكانيات متساوية للبقاء. ألفرد ل أدار في بلاده مصنعاً هاماً للمنتجات الكيماوية وكان اسمه معروفاً وإلى الآن معروف بين رجال الصناعة في أنحاء أوروبا. إنسان وسيم، في حوالي الخمسين كان عند مجيئه للمخيم. لا اعرف كيف قُبِض عليه ولكنه دخل إلى المخيم كما يدخل الآخرون، عارياً، وحيداً، ومجهولاً. عندما تعرفت عليه بدت عليه ملامح الذبول الجسدي، ولكن ملامح وجهه بقيت علامات تدل على النشاط والانضباط الداخلي. في تلك الأيام، كل الحقوق الإضافية له تلخصت في تنظيف القدور للعمال البولونيين. هذا العمل الذي أخذ أهمية قوية، جلب له نصف صحن من الشوربة يومياً. يقيناً أن هذه الإضافة لم تكن كافية لإشباع جوعه، ورغم هذا، لم يسمع أحد، يوماً، إياه يتذمر. بالعكس، كان قليل الكلام ومنه كان الانطباع أن عنده مخزوناً وتنظيماً يعطيه ثماره.

مظهره أكد كلامه. كان لألفرد ل "أسلوب" : اليدان والوجه كانوا دائماً نظيفين للغاية. وظاهرة نادرة في المعسكر، كان دائماً يغسل قميصه كل خمسة إلى عشرة أيام، بدون أن ينتظر لتغيير الملابس الداخلية كل شهرين. (نلاحظ هنا أنه لغسل قميص هناك حاجة إلى صابون، وايجاد وقت، وكسب زاوية قرب المغسلة، حيث كثيرون يجتمعون حولها، وأن تراقب بسبع عيون القميص وهو ينشف، وطبعاً أن تلبسه بينما لا يزال رطباً عند إطفاء الأنوار). كان عنده زوج قباقيب، للذهاب إلى المغسلة، وحتى ملابس مخططة، بدت دائماً نقية وجديدة وناسبت جسمه. عملياً، ألفرد ل نجح أن يبني شخصية برومننت مدة طويلة قبل أن يصبح كذلك. فقط بعد عدة أشهر من معرفتي له عرفت أن كل هذه الشخصية بناها ألفرد ل بشكل منهجي

لا يصدق. كل مركبات شخصيته كسب بثمن قصاصات من الخبز من وجبته اليومية الهزيلة، حيث هو يفرض على نفسه نظاماً صارماً للتنازلات الإضافية من شروط حياتنا البائسة .

برنامجه كان بعيد المدى، وهناك بالتأكيد مجال للإعجاب، لأنه هو صاغ هذا البرنامج والتزم به في مكان سيطرت فيه الصدفة. ألفرد ل ملأ برنامجه بانضباط داخلي صارم . لم يرحم نفسه وطبعاً لم يرحم الرفاق الذين وقفوا في طريقه.عرف أن هناك خطوة بين مَن يقدرونه كصاحب قوة وبين ما هو على حقيقته. كذلك عرف أنه في كل مكان، خصوصاً في المعسكر، حيث الكل يبدون تعساء، المظهر المحترم هو الضمانة الأفضل أن يحترموك، جمع كل قواه حتى لا يبدو واحداً من الغنم الذي يساق إلى الذبح، عمل بإخلاص تظاهري، وكان يقدم الملاحظات إلى الزملاء الكسالى بلهجة مقنعة ووعظية. ألفرد ل لم يشترك في الصراع اليومي على مكان جيِّد في الطابور إلى الشوربة واهتم أن يأخذ دائماً الوجبة الأولى الرخوة حتى يلاحظ رئيس البلوك كم هو منضبط، وحتى يؤكد أنه يختلف عن زملائه وتصرف بأدب كامل لاءم أنانيته المطلقة.

عندما أقيم كوماندو الكيمياء، الذي سنتكلم عنه لاحقاً، فهم ألفرد ل أن ساعته قد حانت. لم يكن بحاجة إلى شيء بالإضافة لملابسه النقية، لوجهه النحيل ولكن المحلوق بأناقة، مما يبدو للعيان بالمقارنة مع الزملاء المهملين والقذرين، من أجل أن يقتنع الكابو ورئيس فريق العمل أنه ينتسب إلى النوع الحقيقي للناجين أي البرومننط الحقيقين. ولذلك، فإن مَن عنده يأخذ أكثر، وقد أخذ درجة "اختصاصي" وعيَّن رئيس تكنيكيي الكوماندو. إدارة البونا شغلته كممتحن في قسم التركيبات. وبعد مدة ألقوا عليه مهمة أن يمتحن المرشحين الجدد لكوماندو الكيمياء، لتقدير مستواهم المهني، هذه الوظيفة التي قام بها بدقة فائقة خصوصاً عندما امتحن أناساً رأى فيهم منافسين ممكنين، في المستقبل.

لا أعرف بقية سيرة حياته، ولكني أفترض أنه نجا من الموت، والآن يعيش حياته الباردة كصاحب مكانة، ولكن ليس في قلبه فرح .

الياس لندزن 141565 يهبط في أحد الأيام من السماء وغير معروف لماذا، مباشرة إلى كومندو الكيمياء، قزم، حوالي متر ونصف طوله، طول حياتي لم أشاهد عضلات مثل عضلاته، وعندما يكون عارياً، يمكن أن نشاهد كيف أنَّ كل عضلة تتحرك من تحت جلده قوية ومرنة مثل حيوانات صغيرة تتحرك بحرية في ذراعيه ورجليه. لو كان طويلاً أكثر، كان بإمكانه أن يكون نموذجاً رائعاً لهرقل، ولكن ليس مناسباً النظر إلى رأسه.

من تحت جلد جمجمته تبدو جلياً عظام الجمجمة. تبدو قوية كما لو أنها من المعدن أو الحجر . يرون بشكل جيّد نمو شعراته، السود والمقصوصة قصيرة، المرتفعة إصبعاً واحداً فوق العينين. الأنف، الجبين، اللثتان، وكل ملامح وجهه المكتنز، تبدو متناسقة، والرأس يبدو رأساً من الحديد رأس مناسب لأن يكون مزروعاً في منطقة حربية من أيام الآباء، شخصيته تبث قوة حيوية.

الناظر إلى الياس في العمل، يستيقظ في قلبه القلق. السادة البولونيون والألمان حتى هم يقفون مذهولين إزاء الياس العامل. لا شيء غير ممكن بالنسبة له. بينما نحن قادرون بصعوبة أن نحمل كيس إسمنت واحد، الياس يحمل على كتفيه اثنين، ثلاثة، وحتى أربعة. هي أحجية حقاً، كيف ينجح أن يحملها جميعاً، مع توازن في الوزن. يسير بسرعة، محمولاً على رجلين قصيرتين ومرعوبتين، يضحك، يشتم، يكشِّر وجهه، يصرخ، يغني، يغني بلا انقطاع كما لو كانت رئتاه مصنوعتين من الفولاذ. مع أن حذاءه مصنوع من الأخشاب، فإنه يتسلق على السقايل باتزان كامل فوق سقايل معلقة في الهواء، بإمكانه أن يحمل على رأسه عشرة حجارة. يعرف كيف يُرَكِّب كفاً من قطعة من الصفيح وسكيناً من قطع الفولاذ. في كل مكان يجد ورقة، أشجاراً وفحماً يابساً، وخلال ثوانٍ معدودة يشعل ناراً، حتى تحت المطر. بإمكانه أن يكون خياطاً، نجاراً، كندرجياً، حلاقاً، يبصق إلى أبعاد مدهشة. يغني بصوت "باس" جميل جداً، أغنيات بالبولونية والايديش، لم أسمعها في حياتي. بإمكانه أن يبلع ستة أو ثمانية أو عشرة لترات من الشوربة، بدون أن يتقيأ وبدون أن يصيبه إسهال، وأن يعود فوراً إلى العمل. ينجح أن يركض في الصريفة. منحنياً بشكل غريب، يكركر،

ويلقي الأبيات الشعرية غير المفهومة، مما يثير متعة المسؤولين في المعسكر. رأيته يتصارع مع بولوني أطول منه. ضربه في بطنه ضربة قوية ودقيقة وسقط البولوني كما لو أطلقوا الرصاص عليه، لم أره يوماً مستريحاً، جالساً بهدوء أو ساكتاً لم يكن يوماً مريضاً أو جريحاً.

لا يعرف أحد شيئاً عن نمط حياته قبل أن يجيء إلى المعسكر، ومطلوب مدى غير قليل من الوحي والخيال حتى تفكر كيف بدأ في دورته السابقة. يتكلم البولونية والايديش المشوشة بلهجة وارسو. لا أتذكر أن أحداً نجح أن يدفعه إلى أن يخرج من فمه فكرة منطقية. ربما هو ابن عشرين، وربما أربعين، من الصعب أن نعرف . هو نفسه يقول، عادة، إنه ابن ثلاث وثلاثين وأنجب سبعة عشر ولدا. ًربما لا يكون هذا مفاخرة فارغة. الياس يقول أموراً باطلة، بلا انقطاع، في كل المواضيع الممكنة. دائماً بصوت عالٍ، بلهجة خطابية، بحركات قاطعة لإنسان لا ينسق بين حركاته, كأنما دائماً ينصت جمهور كبير لخطابه. والحقيقة أن الجمهور ليس ناقصاً بالنسبة له، ولا مرة. من يعرفون لغته، يشربون، بعطش، خطاباته، وينفجرون من الضحك، ويربتون بحماس على ظهره القوي ويشجعونه أن يواصل . أما هو فيغضب ويدور مثل حيوان مفترس، بين حلقة المستحقين له، ويتوجه مرة إلى بولوني ومرة أخرى إلى مجهول وفجأة يمسك أحداً ويشد به ويبصق في وجهه المذهول شتيمة غير معروفة، وبعد ذلك يقذفه كما لو كان ورقة في الريح. تُسمع تصفيقات والكل يضحكون، بينما هو يرفع يديه إلى السماء، كحيوان بشع رهيب الذي يحمل نبوءة ما. وبعد هذا يعود ويواصل بغضب، خطابه المجنون .

بسرعة صارت له سمعة كعامل ممتاز بشكل غير عادي. من تلك اللحظة، حسب قوانين المخيم، التي لا منطق لها، توقف عملياً عن العمل. عمل فقط عندما "السيد" توجه إليه مباشرة لأعمال يجب أن ينجزها بسرعة استثنائية وبقوة كبيرة. وهكذا اعتاد أن يدور بيننا، منفوضاً من شدة الوقاحة، وأن يراقب عملنا. في أوقات قريبة، كان يختفي ويخرج إلى زيارات سرية وإلى مغامرات في زوايا بعيدة عن المعمل ويعود ببطن مليء وبجيوب مليئة مما لذ وطاب.

الياس يسرق بسذاجة وبطبيعية، بخداع غريزي مثل حيوانات البر. لم يقبضوا عليه يوماً وهو يسرق، لأنه يسرق فقط عندما يكون متأكداً أنه لن يُقْبض عليه. ولكن عندما تسنح أمامه فرصة، الياس يجب أن يسرق، تماماً كما أن حجراً وقع يجب ان يتساقط إلى أسفل. حتى لو كان بالإمكان القبض عليه، من الواضح أن أي عقاب هو عديم الفائدة، فبالنسبة له، السرقة هي عمل حيوي كالتنفس والنوم..

الآن بإمكاننا أن نسأل أنفسنا من هو الإنسان الياس. هل هو مجنون وغير مفهوم، شاذ. الذي وصل إلى المعسكر بالصدفة. أو أنه بقية من عالم قديم ، غريب في العالم المعاصر، ولكن مناسب للغاية لأحوال البقاء القديمة، في المخيم. أو إنه بالذات من إنتاج المعسكر، إنتاج نحن جميعاً نشبهه عن قُرْب، إلاّ إذا متنا بسرعة أو أن المعسكر يكف عن البقاء، قبل ذلك.

يبدو أن هناك جزءاً من الحقيقة بالافتراضات الثلاثة. الياس بقي سالماً بجسمه لأن جسمه وسيم للغاية، نجح أن ينجو من الهلاك الداخلي لأنه ليس سليم الروح، ولذلك فهو ناجٍ يتكيف جيداً للظروف الجديدة، نموذج إنساني مناسب للغاية، لصورة حياة المعسكر.

إذا أصبح الياس، مرة أخرى، حراً، سوف ينوجد على هامش المجتمع، في السجن، أو في مستشفى المجانين. ولكن هنا في المخيم لا يوجد مجرمون ولا مجانين، لا يوجد مجرمون لأنه لا توجد حقوق أخلاقية يمكن أن تضر بهم. ولا يوجد مجانين لأن كل أفعالنا تقررت سلفاً وكل عمل نعمله هنا والآن- هو الوحيد الممكن.

الياس يزهر في المعسكر ويحظى بالمجد. هو يعمل جيداً وهو رجل المناورات. لذلك لا يخاف القتل. الكابو والرفاق يحترمونه، ومَن ليست عنده قوى نفسية قوية ومن ليس قادراً أن يختزن القوة لمواصلة الحياة- الطريق الوحيدة التي يمكن أن تجلب له الخلاص هي طريق الياس، أي عدم العقلانية والتبهم المخادع. كل السبل الأخرى هي بلا مخرج.

والآن، عندما أنهينا خواطرنا حتى الآن، ربما يكون هنالك مَن يشعر بالإغراء أن يستخلص خلاصات بل ويقرر مقاييس ومعايير لحياتنا العادية، حياتنا اليومية. ألا يتحول بيننا الياسات تشبهه جداً؟ ألا نصطدم بأناس ليس لهم هدف في الحياة، وليس لهم نقد ذاتي؟ وهم ليسوا أحياء رغم هذه النواقص، ولكن بسبب قوتهم، تماماً مثل الياس، بالذات من قوتهم.

السؤال خطير وصعب للغاية، ولن نبحثه، لأنه ليس في نيتنا أن نقص سيرة للمعسكر، عن الإنسان من خارج المعسكر، كُتب الكثير. ولكن نضيف نقطة واحدة، فقط. بقدر ما يمكن أن يشهد مراقب من الجانب، وبقدر ما هناك مغزى لما سنقول : الياس كان، أغلب الظن، إنساناً سعيداً.

هنري هو نقيض الياس. حضاري جداً وذو وعي. عنده نظرية متكاملة للبقاء في المعسكر. هو ابن اثنتين وعشرين فقط، ذكي جداً، يتكلم الفرنسية، الألمانية، الإنجليزية، والروسية. صاحب ثقافة علمية وكلاسيكية عميقة.

أخوه توفي في البونا في الشتاء الأخير ومنذ ذلك اليوم قطع هنري كل صلة عاطفية مع الناس. أغلق على نفسه وصارع للبقاء في الحياة بدون أن تفتر قواه للحظة صغيرة. لقد استعان بكل الوسائل التي بإمكانه تجنيدها من أعماق فطنته وثقافته الراقية حسب نظرية هنري، من أجل الخلاص من الإبادة، بإمكان الإنسان استخدام ثلاث وسائل ومع هذا يبقى جديراً بلقب الإنسان: الحيلة، الرحمة ، السرقة.

هنري نفسه يستخدم الوسائل الثلاث،ليس هناك مناور أرقى منه، للاقتراب من أسرى الحرب الإنجليز. إنهم يتحولون في يديه، إلى دجاج يبيض بيض الذهب، بكل معنى الكلمة. فكروا من فضلكم : إذا كانت معك سيجارة إنجليزية فقط، في المخيم أنت قادر أن تأخذ مقابلها أكلاً ليوم كامل. ذات مرة رأوا هنري يأكل بيضة مسلوقة حقيقية!

التجارة بحاجيات من أصل إنجليزي هي احتكار لهنري. إلى هنا فيما يتعلق بالحِيَل. ولكن وسائل الدخول إلى قلوب الإنجليز وإلى قلوب الآخرين، هي الرحمة، مبنى

جسم هنري ووجهه لطيف، في وجهه بعض التشويه اللطيف لسبسطيان القديس من سودوما[17]. عيناه سوداوان وعميقتان، ليست له بعد ملامح كهل، يسير بضعف مثير للاحترام واتساع معدته صغير قليلاً بالمقارنة مع معدة الياس . هو يعرف جيداً الميزات الطبيعية هذه، ويستخلص منها فائدة، ببرود أعصاب لمتخصص يستخدم وسائل علمية. والنتائج رائعة للغاية.في الحقيقة هذا اكتشاف . هنري وجد أن الرحمة بوصفها حساً أولياً، تضرب جذورها إذا زرعت كما يجب، وتزداد قوة في النفوس البهيمية والبدائية للمتقدمين، أولئك الذين لا يترددون أن يطرحوا أرضاً، بضربات القبضة، بدون أن يعرفوا لمن يوجهون الضربة ولماذا، وأن يدوسونا، بينما نحن مرميون بلا حول ولا قوة. هو يعرف جيداً ما هي القيمة العملية الكبيرة لاكتشافه وذكي في استخدامها بشكل ممتاز، لصالحه.

كما أن الحيوان المفترس المرن يعرف كيف يجرح بضربة واحدة فريسته ويعرف نقاط الضعف عند العدو، ويعرف كيف يشله، هكذا يعرف هنري أن يقدر، بنظرة واحدة، الشخص الذي أمامه، وشخصيته. يتكلم قليلاً، ولكن إلى كل شخص يتكلم باللغة المناسبة. و"النموذج"- الشخص- ينبهر، يستمع إليه بتعاطف متزايد، ولا يمر وقت كثير حتى يبدأ بقطف الثمار.

هنري ينجح في أن يكسب حتى قلباً من الحجر، إذا قرر أنه يجب أن يكون أجر لجهوده. في المعسكر وأيضاً في بونا يوجد كثيرون ممن يضمهم تحت جناحيه. جنود إنجليز، عمال مدنيون فرنسيون، أوكرانيون، بولونيون، "سياسيون" ألمان، على الأقل أربعة رؤساء بلوكات، الطباخ ، وحتى واحد من الإس. إس. ولكن مجال نشاطه الرئيسي هو الكا-بي. هنري بإمكانه أن يدخل إلى هناك حسب رغبته. دكتور سيطرون ودكتور فايس أكثر مما هما مدافعان عنه، هما صديقاه. وكلما طلب

---

[17] جوباني أنطونيو باتسي، الملقب سودوما- رسام من فترة الرنسانس الايطالي، المتأخر (من 1477 إلى 1549). تعذيب سبسطيان وموته كان موضوعاً مقبولاً ومحبوباً لعدد من رسامي المرحلة. (المترجم)

يدخلونه إلى الفحص الطبي في القسم الذي يريد، خصوصاً في الفترات عندما تكون الأعمال صعبة بشكل خاص، "للنوم في الشتاء" كما يقول هنري.

لأنه يوجد أناس كثيرون يمكن أن يثق بهم، من الطبيعي أنه لفترات نادرة، هنري يضطر أن يذهب في الطريق الثالثة-السرقة. ولكن بالطبع هذا الموضوع لا يتحدثون عنه برغبة.

من الملذ جداً التحدث معه في ساعة الاستراحة. وكذلك مفيد: لا يوجد شيء قي المعسكر لا يعرفه هنري بتفاصيل التفاصيل. لا شيء لم يفكر بشأنه بطريقته المثابرة والمنطقية. هو يتكلم عن إنجازاته بتواضع منضبط.كما لو كانت أموراً صغيرة، ولكن يجب أن يتكلم بالتفصيل، كيف نجح أن يقترب من المغتصب، فقد سأله عن ابنه في الجبهة، وعندما ذهب إلى السيارة اهتم بجراح وركه.

من الملذ والمفيد الحديث مع هنري. أحياناً، نحس تجاهه بحرارة واقتراب عاطفي. وأحياناً يبدو أن بالإمكان إقامة صلة، والإحساس بمحبة. أحياناً، أنت تحس، بوضوح، بالخلفية الإنسانية، الموجعة، لشخصيته الخاصة. ولكن في طرفة عين، ابتسامته الحزينة تتجمد على شفتيه ويتحول إلى حيوان مفترس ولكن بعدها هنري يطلب السماح بأدب... j'ai quelque chose à faire...j'ai quelqu'un à voir[18]...ومرة أخرى يغرق كله في... الصيد، في الصراع، بعيداً، مغلقاً، ملموماً داخل ذاته، عدواً لدوداً للآخرين، عارياً وغير مفهوم، مثل الأفعى القديمة من كتاب العهد القديم.

كل محادثة مع هتري، حتى القلبية للغاية، أبقت فيّ دائماً، شعوراً غامضاً، أنني هُزمتُ، واستيقظ بي الشك أنني بدون أن أحس أنا أيضاً لم أحسب إنساناً في نظره بل أداة في يد أسياده.

---

[18] بالفرنسية: علي أن أفعل شيئاً ما. أنا يجب أن أرى أحداً ما.

أعرف أن هنري حي إلى اليوم . مستعد أن أدفع كثيراً حتى أعرف ما هو نمط حياته كإنسان حر، ولكني لا أريد أن أعود لأراه ثانية.

امتحان الكيمياء

كوماندو 98 المسمى كوماندو الكيمياء، من المفروض أن يكون مكوناً من اختصاصيين. في يوم نشر البيان الرسمي عن إقامته اجتمعت في ساحة الاستعراض، في فجر رمادي، مجموعة حوالي خمسة عشر هفتلنغ حول الكابو الجديد.

حالاً تفجَّر الوهم الأول: هذه المرة أيضاً، يقف قبالتنا "ثلاثي أخضر"، أي مجرم مهني. مدير العمل لم يكن يعتقد أن كوماندو الكيمياء يجب أن يكون صاحب مهنة رسمية. لا حاجة إلى بذل الجهد لمحاولة الحديث معه. هو لا يجيب أو أن أجوبته تكون صارخة ومعها وابل من اللبطات والضربات. من الممكن ايجاد القليل من التعزية في مبنى جسمه الذي ليس جميلاً بشكل خاص وقامته قصيرة نسبياً.

بعد أن خطب باختصار بالألمانية الضعيفة لغوياً، لم يبقَ ظل من الشك حول شخصيته: وهكذا أنتم الكيماويون، حسناً، أليكس سوف يريكم، إذا ظن أحد ما أنه سوف يدخل إلى جنة عدن، فإنه مخطيء خطأً فاحشاً. وقبل كل شيء، يجب أن يكون واضحاً: إلى أن يبدأ الإنتاج، كوماندو 98 لن يكون إلاّ كوماندو عادياً، لنقل سيارات الشحن، وسيشتغل في مخزن ماغنيزيوم كلوريد. بالإضافة لهذا، إذا ظن أحد أنه لكونه مثقفاً بإمكانه أن يخدعه، نقصد أليكس، ال Reichsdeutscher فإننا نقول له: هو يريكم. وعندما يقول ذلك سوف يحرك إصبعه بحركة التهديد الألماني التقليدي. لا يظنن أحد بأنه سينجح في خداعه، إذا وُجِد مثل هؤلاء فليقفوا في الكوماندو الجديد، وليسوا كيميائيين حقيقة، فليعرفوا: هناك امتحان أيها السادة، وليس مجرد امتحان، في الأيام القريبة. يمتحنون في الكيمياء، من قبل كبار العلماء في القسم، الدكتور هاجن، الدكتور بروبست، والدكتور المهندس فانبيتس.

والآن "سادتي"، لقد ضيعنا وقتاً طويلاً، كوماندو 96 و97 انطلقنا إلى العمل منذ زمن. وهكذا، تقدموا، مارش! ومَن لا يتقدم بالوتيرة، أليكس سوف يريه.

نحن نخرج من المعسكر ونمر بقرب الغرفة الموسيقية ونقطة المراقبة للإس. إس. نسير، واحداً وراء الآخر، في حماسيات، القبعة في اليد، اليدان ملتصقتان بالجسم، العنق والرأس مرفوعان، ممنوع الكلام. في الخارج يصطفون ثلاثة ثلاثة، وعندها يمكن تبادل بعض الكلام الواحد مع الآخر، في قلب الضجة بحضور عشرة آلاف أزواج القباقيب الخشبية.

مَن هم أعضاء الكيماويون، بجانبي يسير ألبرت، طالب جامعي سنة ثالثة هذه المرة أيضاً نجحنا أن نبقى معاً، الثالث من يساري لم أره في حياتي، يبدو شاباً جداً، باهت مع الشيد، على ذراعه رقم الهولنديين. أمامي ثلاثة وجوه لأناس غير معروفين، من الخطير النظر إلى الوراء، وأنا ممكن أن أتزحلق، ومع هذا، في حذر، أنا أحول نظري للحظة، وأرى وجه أيس كلاوزنر.

طالما أنك تمشي، ليس بإمكانك أن تغرق في الخواطر، لأن عليك أن تراقب جيداً أن لا تدوس على قباقيب الذين يعرجون أمامك، وأنت يجب أن تحافظ على قبقابك، بحيث لا يفلت بسبب العرَّج وراءك. كل مرة، يجب أن تقفز عن خط متوتر، أن تقفز من فوق ماء يمكن أن يغرقك، أنا أنجح في الفهم أين أنا موجود، لأنني عبرت هنا مع الكوماندو السابق. هنا h- strasse، شارع المخازن. أنا أعلن لألبرت: يبدو أننا ذاهبون إلى مخازن الماغنيزيوم-الكلوريد، على الأقل هذه المرة ليست واحدة من خِدَعهم العادية.

وصلنا، ننزل إلى داخل قبو رطب. رائحة قوية من كل اتجاه. هنا يعمل الكوماندو. الكافو يقسمنا إلى ثلاث مجموعات . أربعة يفرغون الأكياس من العربات وسبعة ينقلونها إلى هنا، وأربعة يرتبونها في المخزن. بين الأخيرين ألبرت وأنا، ايس والهولندي.

من الممكن الكلام. بدا لنا جميعاً أن كلام أليكس ليس إلاّ حلمه المجنون.

امتحان في الكيمياء! مّن يُمْتَحَن؟ الوجوه الذاهلة التي جماجمها محلوقة، والتي تلبس ملابس ممزقة مرقعة تسبب لنا العار. سيكون علينا أن نُمْتَحَن باللغة الألمانية، طبعاً.

نضطر أن نقف في مواجهة دكتور من العِرْق الآري، نرتجف من الخوف، خوفاً أن لا نقدر على تنظيف الأنف. ربما الدكتور لم يعرف أننا لا نملك محارم للتمخيط، ويقيناً، سيكون غير ممكن أن تفسر له، لماذا. بصعوبة ننجح أن نقف بدون أن نتحرك عندما مرافقنا الدائم، الجوع، يضايقنا. والدكتور، طبعاً يحس بالرائحة النتنة المنبعثة من أجسادنا هذا العفن لا يعطينا إمكانية للراحة، في الأيام الأولى لمكوثنا هنا، ولكن الآن نظمنا أنفسنا، رائحة اللفت والملفوف المطبوخ جزئياً.

حقاً هكذا يفكر كلاوزنر، وربما هكذا هي حال الأمور. وربما حقاً، هناك حاجة إلى كيميائيين للألمان؟ أو ربما، مع هذا، فليس الأمر إلاّ مناورة ما شريرة جديدة، pour faire chier les Juifs[19]. ألا يحسون أن الامتحان ليس إلاّ لعبة وحشية، عديمة المنطق، لأناس رجلهم الواحدة تقف في عالم الحقيقة، بينما تقريباً فقدوا الوعي بسبب الانتظار إلى أين؟ كلاوزنر يُريني أسفل الصحن. هناك، الآخرون يسجلون رقمهم الشخصي وألبرت وانا سجلنا أسماءنا. كتب كلاوزنر:

Ne pas chercher à comprendre [20]

نحن نعرف، بيقين، أن نهايتنا عند الفرز. مع أننا لا ننجح أن نفكر حول ذلك أكثر من عدة دقائق في اليوم وبشكل غريب ومتباعد. أنا أعرف جيداً، أنه شبه مؤكد أننا لن نتمكن من الصمود. أنا ما زلت أشغل مخي أكثر من اللازم، وجسدي يتهدم، بوتيرة أسرع من العمل. الآن، واضح لي أنني نجحت أن أحظى بمكانة "اختصاصي"، فقد أنجو، وبمكانة اختصاصي أحظى، فقط إذا لم أرسب في الامتحان.

اليوم، تحت سماء ايطاليا، وأنا جالس بجانب الطاولة وأكتب هذه السطور، فإنني لست متأكداً بعد، أن الأمور التي نقصها هنا، جرت حقاً، وبالفعل.

---

[19] بالفرنسية: نخيف اليهود إلى أن يخرؤوا في بناطيلهم

[20] بالفرنسية: لا تحاول أن تفهم.

مرت ثلاثة أيام، ثلاثة أيام مرعبة، كالعادة. كانت طويلة جداً، وهي تعبر علينا وقصيرة جداً بعد أن تكون قد عبرت. الكل لم يعودوا يؤمنون بقيام الامتحان في الكيمياء .

في الكوماندو بقي اثنا عشرة رجلاً، فقط. ثلاثة اختفوا، بالطريقة، الروتينية، هنا. ربما في الصريفة المجاورة، ربما بين ساكني الرماد. من الإثني عشرة، خمسة لم يكونوا كيميائيين. كل الخمسة طلبوا من أليكس أن يعودوا إلى الكوماندو السابقة لهم. الضربات أخذوها، ولكن انظروا العجب العجيب، أحد ما قرر، ليس معروف مَن، أن يبقى في الكوماندو الكيميائيون، كقوة مساعدة.

أليكس يخرج فجأة من الكانتينا المتعلقة بالماغنيزيوم-كلوريد ويدعونا إلى أن نذهب إلى الامتحان. مثل خمسة فراخ مضحكة، يركضون وراء الدجاجة، نحن نتقدم في أعقاب أليكس، ونصعد الدرج، إلى المكتب. نصل إلى مساحة صغيرة، نقف مقابل الباب الذي عليه يافطة، مكتوب عليها ثلاثة ألأسماء المشهورة. أليكس يخمن بأدب، يخلع قبعته ويدخل، صوت ضعيف يصل إلى آذاننا، أليكس يعود: Ruhe, jetzt. Warten. . الآن اصمتوا. انتظروا.

نحن راضون جداً. عندما ننتظر، الوقت يمر بسهولة، لا حاجة إلى المدافشة، إلى الأمام. عندما نعمل، كل دقيقة تتقدم بصعوبة، ويجب بذل الجهود حتى يمر الوقت. نحن دائماً راضون عندما يكون مطلوباً منا أن ننتظر. نحن قادرون أن ننتظر ساعات بدون أي عمل يتعب حواسنا مثل العناكب العجوز الواقفة، بدون أن تتحرك.

أليكس عصبي، يتحرك هنا وهناك، يمر بيننا وعندها يحركنا. ونحن لسنا ساكتين. فقط موندي لا يبدي علامات عصبية. موندي هو "راب"، جاء من روسيا، من منطقة الكاربات، هناك يعيش معاً أبناء قوميات مختلفة، وكل واحد منهم يتكلم على الأقل ثلاث لغات، موندي يتكلم سبع لغات. يعرف أموراً كثيرة جداً. هو صهيوني نشيط، لغوي، كان مقاتلاً ثورياً (بارتيزان)، وهو دكتور في القانون. ليس كيميائياً، ولكنه يريد أن يجرب حظه، قصير القامة، ذو إرادة حديدية، شجاع وحكيم جداً.

لبيلا يوجد قلم رصاص. الكل يهجمون عليه. لسنا متأكدين أننا ما زلنا قادرين أن نكتب. نريد أن نحاول Kohlenwasserstoffe, [21] Massenwirkungsgesetz . في ذاكرتي تعلو الأسماء الألمانية لقوانين الكيمياء والتركيبات المختلفة، أنا مدين بالشكر لمخي الذي لم يخني، وما زال يعمل جيداً، إلى حد أنني توقفت عن استعماله تقريباً، كلياً بالقضايا الروحية.

أليكس يقترب. أنا كيميائي، مالي وأليكس هذا. وقف إلى جانبي، مد بفظاظة عنقه، يخلع قبعتي، ثم يضعها مجدداً على رأسي ويربته بقوة، يتراجع خطوتين إلى الوراء، لكي يرى نتائج إصلاحه. يبتعد ثانية، بتعبير القرفان ويتمتم Was für ein Muselmann Zugang أي مزلمان يمكن أن يعمل هنا، إنه لقية! الباب ينفتح. الدكاترة الثلاثة قرروا أن يفحصوا هذا الصباح ستة مرشحين. السابع لا. أنا السابع. رقمي الشخصي هو الأكبر بين الجميع. علي أن أعود إلى العمل. أليكس جاء يأخذني بعد الظهر. أي حظ سيء! ليس بإمكاني أن آخذ أموراً مع الآخرين، لفحص"أية أسئلة يسألون".

هذه المرة، بدون شك هي ساعة الحقيقة بالنسبة لي. في الطريق، أليكس ينظر إلي بغضب. يبدو أنه يعتبر نفسه مسؤولاً عن منظري البائس. هو يكرهني لأنني ايطالي، لأنني يهودي، ولأنني في فرقته أنا الأكثر بعداً عن الرجل البدائي، الذي تخيله. ولذلك، من ترتيب على الصورة التي تخيلها، في جهله المطلق الذي يعتز به، فإنه متأكد أنه لا أمل لي أن أعبر الامتحان.

ندخل. في الغرفة يوجد فقط الدكتور فانوفتش. أليكس، والقبعة في يده، يتكلم معه تقريباً بالهمس. ايطالي جاء إلى المعسكر فقط قبل ثلاثة أشهر، وها هو أصبح نصف كابوت Er sagt er ist Chemiker[22] ولكن هو، أليكس يشك في الأمر.

---

[21] بالألمانية: قانون تأثير المقالات، فحمية

[22] بالألمانية : يقول هو يقول أنه كيميائي.

الدكتور بانوفيتش يتوقف عن تقديم الملاحظات ويحولها جانباً. أنا أحس مثل أُديبوس الذي يقف أمام السفنكس. أفكاري واضحة للغاية. أيضاً في هذه اللحظة، من الواضح لي أنني أقف أمام وضع مصيري، ومع هذا أنا أحس بدافع قوي أن أختفي أن أهرب من الامتحان.

فانوفيتش هو رجل نحيل، فاتح الشعر، عيناه، شعره، وأنفه، الألوان وتركيبة الوجه كما يجب أن تكون عند ابن العِرْق الآري. يجلس بثقة وراء طاولة كتابة واسعة. أنا الهفتلنغ رقم 174517 أقف في مختبره، مختبر يستحق اسمه، مرتب، نظيف، لامع في نقائه، يبدو لي أنه في كل مكان إذا مسسته أبقي بصمة وسخة. عندما أنهى الكتابة رفع عينيه ونظر إلي.

من ذلك اليوم، فكرت بالدكتور فانوفيتش مرات عديدة وبأشكال مختلفة، سألت نفسي كيف قضى وقته خارج القسم، ليس بحكم كونه ابناً للعِرْق الهندو- ألماني. بشكل خاص أردت أن ألتقيه، مرة أخرى، بعد التحرر. ليس بهدف الانتقام، بل بسبب حب الاستطلاع الذي فيَّ. استطلاع إنسان.

لأن النظرة التي مرت عليّ لم تكن نظرة إنسان إلى إنسان. النظرة مرت عليّ كأنما من خلال زجاجة. كأنما هو نظر إلى مخلوق من عالم آخر، لو تمكنت أن أفسر ماهية تلك النظرة كنت عندها، بيقين، تمكنت أن أفسر ماهية هذه النظرة، وعندها، بيقين، تمكنت أن أفسر أيضاً، ماهية الجنون الكبير للرايخ الثالث.

في تلك اللحظة كان من الممكن الملاحظة، بشكل غير مباشر، بقضايا فكرنا فيها عن الألمان، بأمور قلناها عنهم. العقل الذي وراء هذه العيون الزرقاء، الذي يدفع الأيدي المدللة هذه، ربما فكر: "هذا الأمر الذي أمامنا تابع لنوع يجب أن يباد، بدون أدنى شك. ولكن يجب التأكد من الإبادة، إذا كان في هذا التفصيل أساس أياً كان يمكن إنقاذه". وفي رأسي، تقاطرت الخواطر: العيون الزرقاء والشعر الفاتح، شريرون بطبعهم. لا يمكن التفاوض معهم. أنا خبير في كيمياء المناجم، أنا خبير في كيمياء المناجم، أنا خبير ...".

وبدأ التحقيق بينما أليكس يقف في زاويته. يتثاءب ويكشف عن فمه، يعرض الجنس الحيواني الثالث في الغرفة.

" Wo sind Sie geboren[23] يتكلم معي بالضمير Sie, للسيِّد المهندس فانوفتش ليس هناك حس فكاهي. ليكن معلوماً! لا يقوم بأي جهد، مهما كان بسيطاً، للكلام معي بالألمانية البسيطة.

"لقبي حصلت عليه في طورينو، سنة 1941.بتقدير ممتاز summa cum laude"" أنا أتكلم وأحس أن الرجل لا يصدقني. وفعلاً، تكفي نظرة إلى يدي القذرتين والمجروحتين، وبنطلون الهفتلنغ الوسخ الذي ألبسه. ومع كل هذا، فأنا لا أشك أنني هو، لأنه مما يفاجئني ، أنني أنجح أن أنتشل من ذكرياتي كل ما هو معروف لي في الكيمياء العضوية، على الرغم من أنني تركت كل هذا منذ مدة طويلة. سُكْر المعرفة والحماس يملآن قلبي حرارة معروفة جداً لي. انفعال الامتحانات، انفعالي، امتحاناتي. تلك المقدرة الفائقة في تجنيد مخزون المنطق، وكل المعرفة التي حسدني عليها زملائي في الدراسة.

أنا أنجح في الامتحان. ومع مشاعر الثقة المتأصلة فيَّ يبدو لي أن قامتي أيضاً، تنتصب كالأرز. الآن هو يسألني عن أي موضوع أخذت اللقب. أنا يجب أن أحك ذاكرتي حتى أتذكر تفاصيل التفاصيل حول ما كان قبل أيام كثيرة للغاية. كأنما أردت أن أنتشل من خزانة الماضي سر حادث سابق.

قوة غامضة تدافع عني. الرجل فاتح الشعر، ابن العِرق الآري ، الذي حياته آمنة، يهتم خصوصاً بما يهددني. يسألني إذا كنت أعرف الإنجليزية، ويريني كتاب التدريس الذي وضعه جارطمان*******. من الصعب التصديق. هنا. في الجانب الآخر للجدار من الأسلاك الشائكة توجد نسخة لجارطمان، مشابهة تماماً للنسخة التي كانت عندي في ايطاليا، في بيتي، عندما تعلمت في السنة الرابعة في الجامعة!

---

[23] بالألمانية اين ولدتم؟

كل شيء انتهى. التأثر الذي لازمني كل وقت الامتحان يتبدد، دفعة واحدة. أنا أنظر نظرة بكماء، أنظر إلى ذات الجلد الفاتح والشعر الساطع التي تقرر مصيري بعلامات غير معروفة على صفحة ورقة بيضاء.

Los, ab- إلى الخارج! أليكس يعود إلى مركز المسرح. أنا ثانية، تحت قيادته. أحيي بالسلام فانوفيتش طالباً حذاء. بسرعة. للحظة، أنا أحظى في عتمة عدم معرفة اللغة الألمانية، أفتش عن كلمة توديع مناسبة. عبثاً، أنا أعرف كيف يقولون بالألمانية "آكل"، "أسرق"، "أعمل". كذلك معروف لي كيف يقولون حامض كبريتي، الضغط الجوي، مُوَلِّد للأمواج القصيرة، ولكن ليست عندي أية معرفة كيف نطرح السلام على إنسان من الطبقة العليا.

ننزل على الدرج. أليكس يركض، كأنما هو يطير، يحتذي حذاء من الجلد، لأنه ليس يهودياً، وهو سريع الحركة. يصل إلى أسفل، يرفع نظره وينظر بغضب شرير إلى خطواتي الفاشلة، في منحنى الدرج. أنا أنزل، بضجة، بسبب القبقاب الخشبي الضخم، أسير مثل عجوز متقدم في السن.

يبدو أنني نجحت . ولكن فقط غبي ينتظر خيراً هنا. أنا أعرف بما فيه الكفاية عن المعسكر، حتى أعرف أنه بأية حال لا يجوز التعلق بنبوءات فارغة، وبشكل خاص لا يمكن توقع الخير. مع هذا، هناك شيء مؤكد: مر علي يوم عمل، ولذلك أكون الليلة أقل جوعاً، وهذا امتياز ملموس، امتياز هو مكسب مضمون في يدي.

حتى أعود إلى البودة، يجب العبور في طريق مليئة بقضبان الحديد وكوابل الفولاذ الملقاة فوق بعضها. كابل فولاذ يسد الطريق أمامنا، أليكس يمسك به حتى يقفز من فوقه. "إلى جهنم" ينظر إلى يده. خلال ذلك أنا أسبقه. بدون كراهية وبشكل طبيعي للغاية. أليكس يربت بيده على ظهري. في البداية يربت بكف اليد، وبعد ذلك بظهر اليد. هو ينظف جيداً، أليكس الفظ والساذج كان يستغرب لو أن أحداً قال له أنني أفعل معه هذا، حتى يعيد لي الدين ، هو والدكتور فانوفتش. هم وآخرون مثلهم. أكثر من أن يعدّوا صغار وكبار ، كانوا في أوشفتس وفي كل مكان آخر.

مزمور يوليسس[24]

عملنا، ستة رفاق، في خزان مطمور داخل الأرض. مطلع الفجر وصل إلينا من فتحة الدخول الضيِّقة. عمل تنظيف ليس تحت قبة السماء كان لا حاجة له حيث لا إنسان يراقبه. ولكنه كان بارداً ورطباً للغاية. غبار الصدأ أعشى العينين وملأ الحنجرة والفم، وطعمه كان تقريباً كطعم الدم.

سُلَّم الحبال التي أنزلت من المدخل توترت. أحد ما استعد للنزول. دويتش أطفأ السيجارة. غولدنر أيقظ سيودين. كلنا بدأنا نجمع العصا، بنشاط.

لم يكن ذلك مدير العمل. كان ذلك جان من الكوماندو الخاصة بنا. جان هو طالبٌ جامعي من الإلزاس، في الرابعة والعشرين، الأفتى في الهفتلنغ، في كوماندو الكيمياء، لذلك أخذ وظيفة البيكولو، أي موظف- مبعوث. عمله: المسؤول عن نظافة الصريفة، وعن إعطاء أدوات العمل ثم استلامها وعن تنظيف الأدوات وتسجيل ساعات العمل للكوماندو.

تكلم الفرنسية والألمانية، بطلاقة. حال رؤيتنا من النازل توقفنا عن العمل.

Also, Pikolo, was gibt es Neues?[25]

Qu'est-ce qu'il y a comme soupe aujourd'hui?[26]

---

[24] إشارة إلى قصيدة في عهد دانتيأليغري. داني يصف يوليسس الذي يعيش في الدائرة الثامنة لجهنم، بشخصية مُرَكَبة يجتمع فيها خرق إرادة الآلهة وحب الاستطلاع الثقافي الذي يريد أن يخترق حدود الايمان ووضع الإنسان في مركز الكون. بهذا المعنى يرمز يوليسس إلى الروح الإنسانية لمرحلة الرنسانس (المترجم)

[25] بالألمانية: وبعد بيكولو، ما الجديد؟

أي مزاج يوجد للكابو؟ وماذا مع الخمس وعشرين ضربة من شطيرن؟ ما حالة الطقس في الخارج؟ هل قرأ جريدة؟ أية رائحة تخرج من المطبخ المدني؟ ما الساعة؟

أعضاء الكوماندو جميعاً، أحبوا جان جداً. يجب أن نعرف أن وظيفة بيكولو أنه أرقى الموظفين في سُلَّم التدريج في البرومننطن. بيكولو، عادة ليس ابن أكثر من سبع عشرة، لا يعمل عملاً جسدياً، يمكنه أن يأخذ تقريباً حسب رغبته من الشوربة من قاع القدر، ويمكن أن يتدفأ، كل النهار، قرب التنور. "لذلك" له الحق أن يأخذ إضافة نصف وجبة غذاء وحظوظه كبيرة أن يصير رجل سر الكابو. يأخذ رسمياً ملابس وحذاء على عجل. جان كان بيكولو متميزاً. جسمه رشيق- ماكر ومع ذلك جيِّد وطيِّب القلب. هو أيضاً يخوض حربه الشخصية والسرية ضد المعسكر وضد الموت، ولكن يعرف كيف يحافظ على العلاقات مع الزملاء عديمي الحقوق الزائدة. جان نجح، بذكاء كبير، أن يكسب ثقة أليكس، الكابو، وهكذا هو يحافظ على مكانته.

أليكس نفَّذ تهديده. يتصرف كحيوان عنيف وغدار. مغلق بسبب جهل مطبق، وغباء شديد. إنه يسيطر، بلا ضوابط، على كل أسرار التعذيب والتسلط. في كل مناسبة يعلن باعتزاز أن في عروقه دماً آرياً نقياً. ويبرز المثلث الأخضر المرسوم على صدره. يظهر دائماً، استخفافه بمرؤوسيه الكيميائيين الجياع والقذرين:

IhrDoktoren! Ihr Intelligenten ![27]

كل يوم هو يسخر منا عندما يرانا في وقت الوجبة. نتدافش وفي أيدينا الصحون الممدودة إلى الأمام لنأخذ الشوربة. يتعامل مع السادة المدنيين بدناءة وبنفاق، ومع الإس. إس. له علاقات ودية قلبية.

---

[26] بالفرنسية: أية شوربة موجودة اليوم؟

[27] بالألمانية: أنتم الدكاترة. أنتم المثقفون!

إدارة دفاتر التسجيل للكوماندو وكتابة التقارير عن العمل أخافتنا. كان هذا الموضوع الذي اختاره بيكولو لكي يكسب ود أليكس. كان هذا مشروعاً بناه جان بحذر، بحكمة، وتدريجياً. كل رجال الكوماندو تعقبوا إنجازاته باهتمام. وأخيراً، سقطت خطوط الدفاع، وبيكولو أخذ نهائياً ورسمياً وظيفته، مثيراً فينا جميعاً الارتياح.

جان لم يستغل بشكل سيء مكانته، مع أنه كانت له قوة وتأثير كبير على أليكس. انتبهنا أكثر من مرة أن كلمة قالها بشكل صحيح أثرّت تأثيراً هائلاً. عدة مرات نجح أن ينقذ بعضنا من ضربات ومن تسليمنا إلى الإس. إس. منذ أسبوع نحن أصدقاء، اكتشف أحدنا الآخر في مناسبة فريدة من نوعها: الزامور ضد قصف جوي. ولكن عندما كنا مربوطين بالسلاسل القاسية للعمل في المعسكر لم ننجح أن نتبادل أكثر من كلمات قليلة في المراحيض والحمامات.

جان مربوط بيد واحدة على السلم المتحرك، في الهواء، ويشير إلي: Aujourd'hui, c'est Primo qui viendra avec moi chercher la soupe[28] حتى ذلك اليوم شطيرن الترانسلفاني الأحْوَل هو من ساعد بيكولو. ولكن هو قُبِض عليه وهو يسرق أدوات من المخازن وبسبب هذا رُفض للوظيفة، وجان نجح أن يقنع أليكس أن يُعَيِّنني بديلاً له، كمساعد له، في عمل- Essenholen أي عمل الخدمة اليومية في جلب الشوربة.

جان تسلق عالياً وأنا في أعقابه، مغمضاً عينيه خوفاً من الإشعاع المفاجيء للشمس. في الخارج كان الطقس حاراً. حرارة الشمس تُخرج من الأرض زيوتاً على شكل بخار من الألوان والزفت مما أثار بي ذكريات طفولة على شاطيء للسباحة في الصيف. بيكولو أعطاني واحداً من القضيبين وأنا خرجت إلى الطريق وفوقنا سماء حزيران الصافية.

---

[28] بالفرنسية: اليوم يجيء بريمو معي لأخذ الشوربة.

أردت أن أشكره، ولكنه أسكتني. لا حاجة. تنفست ملء رئتي الهواء النقي وشعرت أن رجلي أصبحتا خفيفتين، فجأة.

Tu est fou de marcher si vite. On a la temps tu sais.[29]

وزعوا الطعام على بعد كيلومتر من مكان عملنا. بالطبع. في طريق العودة كان علينا أن نحمل على أكتافنا قِدْراً مربوطاً بعصي، وزنه حوالي خمسين كيلو غراماً. العمل مرهق جداً، ولكن لذَّ لنا جداً أن نمشي بدون حمل. بالإضافة لهذا، دائماً من المستحسن أن تكون بقرب المطابخ.

ذهبنا، ببطء، عن قصد. بيكولو كان ذا تجربة واختار بذكاء طريقاً طويلة، فهكذا نضطر أن نسير على الأقل ساعة حتى نصل بدون أن نثير شكاً. تحدثنا عن بيوتنا في ستراسبورغ وطورينو، وعمّا تعلمنا وعمّا تعودنا أن نقرأ، وعن أمهاتنا. كم هن متشابهات، أمه أيضاً تعودت أن تقدم له الملاحظة كيف أنه دائماً لا يعرف كم من المال في جيبه. أمه أيضاً كانت تستغرب إذا قالوا لها أن الكسول حتى الآن يومياً يصارع للحفاظ على حياته وعادة ينجح في البقاء.

جندي الإس. إس. يمر راكباً على دراجة. رودي، رئيس البلوك يأمرنا بالألمانية أن نقف وقفة رسمية وأن نخلع القبعة

Sale brute, celui-la.[30] Ein ganz gemeiner 'Hund'.[31]

هل تعرف الألمانية جيداً، مثل الفرنسية؟ نعم، أنا بإمكاني أن أفكر بكلتا اللغتين بدون مشاكل. كنت في ليغوريا حوالي شهر. ايطاليا تعجبني جداً. كنت أود لو

---

[29] بالفرنسية: لا تكن مجنونا بحيث تذهب هكذا إلى الجبل. عندنا وقت كافٍ وزيادة.

[30] بالفرنسية: ساقط قذر مثله.

[31] بالألمانية: كلب شرس مثله.

أتعلم الايطالية. هل نحاول؟ لنبدأ حالاً، من فضلك. دعنا لا نضيع الوقت، إذا مرّت هذه الفرصة المواتية بدون فائدة، تكون خسارة لا تُعَوَض.

يمر ليمنطاني، ايطالي مولود في روما، يجرجر رجليه، يخيء صحناً تحت معطفه. بيكولو ينصت ويلتقط بعض الكلمات من محادثتنا ويعود مبتسماً : Zup-pa, 'cam-po. ac-qua[32]

يمر فرنكل، الفسّاد. علينا أن نسرع، لا نعرف. إنه شرير لأجل الشر.

... مزمور يوليسس. الشيطان يعلم كيف ولماذا تذكرته الآن. ولكن لم يبقَ وقت للاختيار. قسم كبير من ساعة الحظ مرّ, جان حكيم وهو يفهم: أنا أحس اليوم كابن آدم.

من هو دانتي. ما هي الكوميديا الإلهية. كم غريب الإحساس الذي أحسه، وأنا أحاول أن أفسر باختصار شديد ما هي الكوميديا الإلهية. كيف ينقسم الجحيم إلى أقسام أقسام وما هو ال-Contrappasso[33]. فيرغيليوس الذي يرمز إلى العقل. بياتر بتسا التي ترمز إلى الثيولوجيا.

جان يستمع بانتباه. أبدأ رويداً رويداً بالإنصات.

Lo maggior corno della fiamma antica
Cominciò a crollarsi mormorando,
Pur come quella cui vento affatica.
Indi, la cima in qua e in là menando
Come fosse la lingua che parlasse

---

[32] بالايطالية: شوربة، معسكر، ماء.

[33] مبدأ شعري في إبداع دانتي: موضوع ونقيضه.

Mise fuori la voce, e disse: Quando…

وأكبر أغصان الريح العاصفة

بدأ يرتعد ويسمع صوتاً من الاهتزاز

يتصارع مع الريح

ويهتز قرنه كأنما

هو اللسان الذي تتكلم من خلاله

وصوت انطلق: "عند فراقي"[34]

هنا أنا أتوقف وأحاول أن أترجم. رهيب ومخيف. الويل لدانتي والويل للغة الفرنسية. مع هذا يبدو أنني أنجح في ذلك. جان يبدي إعجابه من القرابة بين اللغتين ويقترح علي هنا وهناك، كلمة ملائمة أكثر فالترجمة الفرنسية تبدو "عتيقة" أكثر.

وبعد ذلك، "مع افتراقي"... صفر. هنا تخونني الذاكرة. " قبل أن يُكَنّى كذلك اينياس". مرة أخرى تخونني الذاكرة. تبدر إلى ذهني مقاطع من أبيات شعرية لا حاجة لقولها." لم أحمل احتراماً للأب الكهل، وغير سعيد بواجبي بولع المحب لفينيليوبي". أحقاً ذاكرتي لا تخونني؟

Ma misi me per l'alto mare aperto …

ولأعماق البحر العظيم، أبحرت.

هكذا، أنا متأكد من هذه الجملة وحتى قادر أن أفسرها لبيكولو، لماذا " misi me" ليس معناها بالضبط مثل الاصطلاح الفرنسي "je me mis" ، ووضعتُ خطواتي. الاصطلاح بالايطالية أقوى بكثير، شجاع أكثر. التأكيد هنا هو على كسر

---

[34] الجحيم نشيد 85- 90 فيما بعد جُمَل من القطع المجاورة. في هذا المقطع يصور دانتي آلام يوليسس وغيرميدوس في الجحيم.

المألوفات. يوليوس يريد أن يُعَبِّر بهذا، عن شجاعة الروح التي كان عليه أن يتحلى بها حتى يتغلب على المصاعب. نحن هنا نعرف جيداً هذا الدافع. عبقري البحر! بيكولو أشرع في البحر ولذلك يفهم تماماً معنى الاصطلاح " عبقري". عندما ينغلق خط الأفق بخط مستقيم وبسيط وفي الفضاء ترتفع فقط رياح البحر. ذكريات حلوة وبعيدة بشكل مخيف.

وصلنا إلى منطقة الأعمال الصعبة، هنا يعمل الكوماندو لواضعي الكوابل. قريباً نجد، بالطبع، المهندس ليفي. ها هو، نرى فقط رأسه من فوق الحفرة. يُلَوِّح بيده سلاماً هذا الإنسان لم أرَ أنه انكسر، ولا يتكلم أبداً عن الطعام.

"مناطق البحر العظيم"، مناطق البحر العظيم".

أعرف أن هذه الجملة مناسبة ل"تركيتي"، ومع الأصدقاء الذين، بإيمانهم، لم يتركوني. ولكن لا أتذكر أي بيت شعر سابق للآخر. والمسيرة، المسيرة الشجاعة إلى ما وراء أعمدة الركولس. كم مُحْزن أنني لا أتذكر التتمة، وأنا مضطر أن أقص بلغتي. الإساءة إلى المقدس، بكل معنى الكلمة. أنا أنجح أن أنقذ من هوة النسيان فقط سطراً واحداً، ولكن يجب أن أقوله بلغته: Acciò che l'uom piú oltre non si metta.

لكي لا يخاف الإنسان أن يسير قدماً...

"لكي لا يخاف". كان علي أن أصل إلى المعسكر حتى أفهم أن الاصطلاح حاد مثل " وإلى آفاق البحر العظيم أقلعت". ولكني لا أكشف كوامن نفسي لجان. لست متأكداً أنني كشفت هنا شيئاً هاماً حقاً. يمكن القول أشياء كثيرة ولكن الشمس أصبحت في قبة السماء. الوقت ظُهْر. قلبي مليء بالأفكار الهامة التي يجب قولها بكل ثمن. ها قد تذكرت. أنصت يا بيكولو. إنتبه وفكِّر هل تفهم المعنى على حقيقته.

Considerate la vostra semenza:

Fatti non foste a viver come bruti,

Ma per seguir virtute e conoscenza

أنظروا إلى صخرة أصلكم، أنظروا

لم تولدوا لتعيشوا مثل حيوانات برية

ولكن لكي تبحثوا عن الغالي وعن الفهم وعن المعرفة[35]

يا رب الكون! يبدو أنني أنا أيضاً أسمع الكلام للمرة الأولى مثل نفخ في البوق. للحظة نسيت من أنا وأين أنا.

بيكولو يطلب أن أعود على الأبيات. بيكولو طيِّب القلب. لقد انتبه كم يسعدني إلقاء الأبيات. ولكن هنا يوجد شيء أكثر عمقاً.

رغم الترجمة البائسة التي قمت بها والمعنى الفقير، المتسرع فإن بشرى الكلام تمس قلب كل إنسان في ضائقة، تؤثر عليه بشكل خاص. وهي هامة بالنسبة لكلينا نحن الذين نفكر فيها، بينما على أكتافنا قضيبان لحمل الشوربة.

Li miei compagni fec'io si acuti

شجعت رفاقي كثيراً للسفر

أنا عبثاً أحاول، بقوة، أن أفسر كم غني عن الاصطلاح "شجعت". مرة أخرى تخونني ذاكرتي. هذه المرة لا أنجح في أن أتذكر، بأية حال. "في القسم الأسفل للقمر". أو شيء ما شبيه. ولكن ما هي الأبيات قبل ذلك؟ لا أعرف. " keine Ahnung" كما يقولون هنا. فليغفر لي بيكولو، نسيت على الأقل أربعة أبيات.

Ca ne fait rien, vas-y tout de même[36].

وجبلاً رأيناه، غامقاً من شدَّة بعده.

عالٍ جداً إلى درجة خيل لنا أن لا شبيه له

---

[35] الجحيم قصيدة صفحة 118-120

[36] بالفرنسية: هذا لا يهمّ. إمش على أي حال.

خلال كل ما شاهدت عيوننا [37]

نعم نعم،" شاهق للغاية" وليس "الأكثر ارتفاعاً". جملة تلخيصية. والجبال عندما نراها من بعيد، يا بيكولو، يا بيكولو، تكلم عن شيء ما بحياة الله – لا تتركني أتذكر جبالي، التي كانت ظاهرة لعينيَّ في الغروب، عندما كنت معتاداً أن أعود في القطار، من ميلانو إلى طورينو!

كفى، يجب المواصلة. هذه مواضيع يفكر فيها الإنسان ولكن لا يكشفها للآخرين. بيكولو ينظر إليّ وينتظر.

كنت مستعداً أن أعطي وجبة الشوربة الخاصة بي حتى أنتشل من ذاكرتي الأبيات التي بعد " كل ما رأت عيناي" حتى نهاية النشيد. أحاول أن أتذكر، أغمض عيني، أعض أصابعي، أغضب من نفسي، عبثاً. هرب من ذاكرتي. مقاطع من القصائد، من المزامير الأخرى تقوم في ذاكرتي، ولكن ليست الأبيات الصحيحة. صار متأخراً. متأخراً جداً. تقريباً وصلنا إلى المطبخ. علي أن أنهي:

Tre volte il fe' girar con tutte l'acque,

Alla quarta levar la poppa in suso

E la prora ire in giú, come altrui piacque

وكأ رجوحة مع كل أمواج الريح

ثلاثة عهود، رغبة أخرى دفعت

إلى الوراء، إلى أعلى، وأنفها إلى أسفل[38]

أنا أوقف بيكولو. يجب أن يسمع، بلا تأجيل، أن يفهم

---

[37] الجحيم 133-135

[38] الجحيم ، نشيد 139-141

"رغبة أخرى دفعت" قبل أن يصير متأخراً. ربما غداً هو وأنا لا نكون، أكثر، بين الأحياء، أو لا نلتقي بعد إلى الأبد. أنا مضطر أن أفسر عن العصور الوسطى الغابرة، ما هو ضروري وإنساني ومفاجيء جداً. وهناك أمور سامية فهمتها أنا الآن فقط بالغريزة. ربما أقدر أن أوضح له السبب لمصيرنا، لوجودنا هنا، اليوم..

نحن نقف في الصف لأخذ الشوربة، وسط جمهور قذر، والملابس البالية، لحاملي الشوربة. القادمون وراءنا يندفعون ويتدافشون وراءنا.

Kraut und Rüben? Kraut und Rüben. قنبيط ولفت. يعلنون رسمياً أن الشوربة طُبِخَت اليوم من القنبيط واللفت.

Choux et navets –Káposzta és répak[39]

Infin che 'l mar fu sopra noi rinchiuso-

حتى انغلق البحر فوق رؤوسنا [40]

---

[39] بالفرنسية والبولونية: القنبيط واللفت.

[40] الجملة الأخيرة في قصيدة يوليسس ورفاقه

أحداث الصيف

في أشهر الربيع وصلت دفعات من هنغاريا. مع مجيئهم، كل أسير ثانٍ كان هنغارياً، وهكذا كانت لغتهم اللغة المحكية أكثر من غيرها في المخيم، بعد الايديش.

في آب 1944 كنا نحن الذين دخلنا قبل خمسة أشهر إلى المعسكر، بين القدامى، كقدامى كوماندو 48 . لم نتفاجأ، أنه لم تكن أية نتائج لامتحانات الكيمياء، التي قدمناها بنجاح. ولم يفوا بالوعود المرتبطة بهذه الامتحانات. لم نتفاجأ، ولم نخزن أكثر من اللازم. في نهاية الأمر، كلنا قلقنا من التغييرات. "كل تغيير هو تغيير للأسوأ". يقول أحد أمثال المعسكر. حقاً، التجربة علمتنا أن لعبة التوقعات والتنبؤات لا أساس لها. ما الفائدة أن نتعذب في محاولات التخمين بشأن المستقبل، حيث لا يوجد لأي من أعمالنا أو كلامنا أي تأثير، حتى لو كان ضئيلاً للغاية، على سير الحياة في المعسكر؟ نحن هفتلنغ قدامى، ، وأساس حكمة الحياة التي كسبناها هي: " لا تحاول أن تفهم" لا تحلم في اليقظة حول المستقبل، لا تتعذب في التخمينات حول موعد نهاية هذه الحياة باختصار: لا تسأل الأسئلة، لا تفترض الفرضيات.

حافظنا في قلوبنا على ذكريات حياتنا السابقة مع أن هذه أصبحت ضبابية وبعيدة ولذلك فهي حلوة وحزينة مثل ذكريات الطفولة البعيدة وذكريات الأمور التي تمت وانتهت ولن تعود أبداً. يوم مجيئنا إلى المعسكر كان بالنسبة لكل واحد وواحد البداية لسلسلة ذكريات قريبة وصعبة التحمل، آلمتنا كل يوم كما البداية، مثل جراح تنفتح بلا توقف، كل لحظة.

المعلومات حول تخلف الحلفاء في نورماندیا، حول هجوم الروس في الشرق وتقدمهم وحول محاولة اغتيال هتلر، المحاولة التي فشلت، أثارت فينا شعاع أمل، ولكن هذا اختفى كلمح البصر. كل واحد أحس أن قواه منهكة يومياً، وأن إرادة الحياة تتضاءل وأن العقل ينغلق. نورماندیا وروسيا كانتا بعيدتين، بعيدتين جدا، بينما

الشتاء يقترب، يقترب جداً. الجوع واليأس عمليان جداً، وكل ما عداهما ضبابي. كنا تقريباً مقتنعين أن أي عالم آخر وأي زمن آخر ليسا موجودين خارج عالمنا المحدد وزمننا العاقر المتجمد. لم نكن قادرين أن نتخيل في خيالنا نهايتيهما.

الزمن هو ذو قيمة أكبر بالنسبة لأناس، كلما كانت حياة النفس غنية. ولكن بالنسبة لنا الساعات والأيام والشهور تدفقت وحدها من المستقبل إلى الماضي، ودائماً ببطء شديد. ماهية سلبية ولا قيمة لها التي حاولنا أن نتخلص منها بسرعة قدر الإمكان لأن الأيام التي كان فيها الزمن طيباً، الأيام الساحرة التي على ما يبدو لن تعود ثانية، بدا المستقبل أسود، صعباً كالصخر، عقبة من الصعب التغلب عليها. بالنسبة لنا، الزمن توقف عن التقدم.

في أغسطس 1944 بدأت أعمال القصف على شلزيا العليا واستمرت بتتابع، مع توقفات طويلة جداً، كل أيام الصيف والخريف وحتى نهاية المعركة.

النشاط المعقد لمصانع البونا الجهنمية توقف فجأة، وحالاً تطور إلى نشاط مبلبل، مجنون، محموم وغير طبيعي. في شهر آب كان من المفروض أن يبدأ إنتاج المطاط الاصطناعي. وهذا الموعد تأجل كل يوم إلى أن توقف الألمان أنفسهم عن ذكره.

أعمال البناء توقفت، قوة جماهير العبيد الكثيرة التي لا تعد، جرى توجيهها إلى اتجاه آخر، ويومياً أصبح عصرياً أكثر وخطيراً أكثر. بعد كل قصف كانت هناك ضرورة لإصلاح الأضرار، لتفكيك الماكنات التي قبل أيام قليلة أنهوا تركيبها بجهد جهيد. كان يجب إقامة ملاجيء وجدران واقية التي يا للسخرية، انهارت كبنيان من الورق في القصف التالي.

آمنّا أن كل تغيير في الأيام الطويلة وذات اللون الواحد سيكون للأحسن، وأن كل تغيير يجلب انفراجاً لمن يعيشون في البونا في بؤس منهجي ومنظم. ولكن بسرعة فائقة غيرنا رأينا، عندما البونا بدأت تنفجر، كأنما اللعنة حلّت عليها وعلينا معاً. أجبرنا أن نعرق بين ركام الهدم الملتهب وبين غيوم الغبار، ارتجفنا من الخوف، كحيوانات مطاردة، ونحن ملتصقون بالأرض، خوفاً من غضب الطائرات. في بولونيا. وجدنا

المعسكر مخربطاً، بلا ماء للشرب، بلا ماء للغسيل، توقفوا عن إعطائنا الشوربة. و لم يكن ضوء، حتى نتمكن أن نتدافع الواحد أمام جوع الآخر، صراعاً على وجبة الخبز البائسة . و لم يكن ممكناً أن نجد في الصباح الأحذية والملابس، في جهنم الظلام، في ضجيج البلوك.

العاملون المدنيون الألمان تيبسوا في البونا. كان هذا غضب أناس كانوا مؤمنين ضد كل سوء، استيقظوا من حلم وردي، طويل، حلم حكام قادرين على كل شيء . فجأة رأوا، وجهاً لوجه، نهاية الحلم الكاذب، و لم يفهموا. أيضاً الألمان- الآريون في المعسكر، السجناء الجنائيون والسياسيون، أحسوا جيداً بساعة الخطر، بعلاقات الدم والصلة مع وطنهم. هذا الوضع الجديد أدّى إلى تفاقم الكراهية وإلى القطيعة بين سكان المعسكر. السجناء السياسيون المثلثون والإس. إس، رأوا أو آمنوا أنهم يرون أن معرفة وجوهنا تقول إنهم سوف يعاقبون قريباً على شرهم، وأن في قلوبنا فرح الانتقام. كانوا موحدين في الرأي حولنا وشراستهم ارتفعت عشرات الأضعاف.

الآن، أي ألماني لم يتمكن أن ينسى أكثر أننا من الجانب المعاكس، أننا نؤيد أعداءهم زارعي الموت للذين حرثوا سماء ألمانيا، بلا انقطاع، ووجهوا الضربات إلى قدس أقداس القلعة النازية. يومياً، هم جلبوا الدمار والقتل إلى بيوت الألمان الذين قبل وقت قصير كان كل شخص عاجز أن يصل إليهم.

ولكن نحن لم تبقَ فينا قوة للخوف، حقاً. القلائل الذين بقيت فيهم القدرة للتفكير وللفهم تشجعوا من أعمال القصف. مَن لم يتمكن الجوع أن يذللهم استغلوا ساعات الهلع العام حتى يخرجوا في رحلات مغامرة نحو المطابخ والمخازن التابعة للمصنع. (هذه الأعمال كانت خطيرة بشكل مضاعف، لأنه بالإضافة إلى خطر التواجد في منطقة مفتوحة وقت القصف، فأن العقاب على سرقة ساعة الطواريء كان الموت شنقاً). ولكن أكثرية الأسرى تعاملوا بلا مبالاة مع العذابات الجديدة. لم يكن ذلك استسلاماً عن وعي، للمصير، بل كان بلادة الحواس لحيوانات جرى تدجينها بالضربات، و لم يعد ممكناً ايلامهم أكثر بالضربات.

كنا ممنوعين من التوجه إلى الملاجيء المسلحة. وعندما ارتجفت الأرض، هربنا ذاهلين ونحن نعرج وسط غيوم الدخان المرتفعة إلى حقول الحفرة الفارغة والمنتنة بين جدران البونا. هناك اضطجعنا صامتين، الواحد على الآخر، مثل كومة من الجثث، ومع هذا نشعر بالارتياح لأننا نريح أجسامنا المتعبة. نظرنا حولنا، بعيون مغلقة نظرنا عندما امتلأ الفضاء بالصفارات المهدّدة التي عرفها كل أبناء أوروبا في تلك الأيام، كنا نجمع من الأرض التي ديست مئات المرات، نباتات البابونج ونأكلها، في صمت.

مع سماع صوت التهدئة عدنا من كل جوانب الحقل إلى أمكنتنا، قطيعاً صامتاً، مثل الجراد، على الأغلب، وقد تعودنا لذلك. عائدون إلى العمل الدائم والمكروه منذ اليوم الأول، وبالإضافة لذلك الآن، بكل يقين، ليست فيه أية فائدة.

في هذا العالم الذي زادت فيه الفوضى من يوم إلى آخر، مع سماع بشارة يوم الدين القريب، بين المخاوف والآمال التي استيقظت الآن، في التوقفات القصيرة عن العمل، التقيت، بالصدفة، مع بلورنتسو.

قصة صلتي مع بلورنتسو هي طويلة وقصيرة معاً، بكل بساطة، ومع هذا فهي أحجية. إنها قصة كانت في وقت وفي ظروف ليست موجودة الآن في الواقع. لذلك أنا أفكر أن بالإمكان فهمها فقط كما يفهمون الأساطير أو أحداث العصور القديمة.

عملياً، يوجد قليل جداً ما يمكن قصه. عامل- ضيف ايطالي جلب لي كل يوم، خلال ستة أشهر، قليلاً من الخبز، أعطاني قميصاً ممزقاً، كتب لصالحي رسالة إلى ايطاليا، وجلب لي جواباً. مقابل كل هذا، لم يطلب شيئاً ورفض أن يأخذ شيئاً، لأنه كان إنساناً طيباً وبسيطاً و لم يفكر أنه يجب أن يعمل عملاً حسناً مقابل ثمن أياً كان.

يجب أن لا يتصور أحد أن كل هذه هي مواضيع ليست مهمة. وهكذا حدث لي أكثر من مرة. كما قصصنا، كانت لزملاء آخرين علاقات من أنواع مختلفة مع المواطنين. هذه الصلات مكنتهم أن يصمدوا، ولكن طبيعة هذه العلاقات كانت مختلفة. الزملاء قصوا عن ذلك بلهجة ثنائية المعنى، مليئة بالرموز، كما هي العادة أن يجري الحديث عن هذه العلاقات مع النساء، أي كما لو كانت مغامرة تستحق

المفاخرة بها، وفيها ما يثير الحسد في قلب الآخر. ولكن حتى الأكثر غطرسة عرفوا في أعماق ضميرهم أنهم على حدود المسموح وحدود اللائق. لذلك لا يبدو مناسباً الكلام المكشوف. ولذلك الهفتلنغ يتكلمون حول "الأوصياء" عليهم، وعن "رفاق" مدنيين بتكتم تظاهري. بدون ذكر الأسماء (حتى لا نورط أو نهدد أمنهم) وبالأساس حتى لا يقيموا لأنفسهم منافسين غير مرغوبين. ألأكثر عرياً، الذين يقومون بشكل مهني باغراء، مثل هنري، لا يتكلمون عن هذه العلاقات إطلاقاً. على الأكثر، يخلقون حول أنفسهم هالة غامضة حول نجاحاتهم، بالرموز الدقيقة، التي تهدف إلى الإثارة في قلوب السامعين للإحساس بأسطورة. إنهم يلجأون تحت وصاية شخصيات قوية وكريمة. بهذا هم يحاولون أن يكسبوا هدفاً واضحاً: خلق سمعة لأصحاب الحظ، حيث كما أشرنا، في مكان آخر، هذا الانطباع يجلب فائدة كبيرة لمن يعرف كيف يخلقه.

السمعة لصانع المؤامرات تثير الحسد أو الازدراء أو الاحتقار أو الإعجاب معاً، أن تأكل شيئاً ما تظاهرياً، بعد أن حصلت عليه، يعتبر أمراً خطيراً، ويرون فيه غطرسة، عدم خجل، وعدم حساسية، عملاً غبياً، وهو بنفس المقدار غبياً ووقحاً أن تسأل: "مَن أعطاك؟" أين وجدتَ؟" "كيف فعلت ذلك؟" ، فقط"المتكلمون الكبار" عديمو الفهم، المكشوفون لكل ضرر، الذين لا يعرفون شيئاً من قوانين المعسكر يسألون أسئلة من هذا النوع. عن أسئلة كهذه لا يجيبون إطلاقاً، أو يجيبون "Uciekaj" "Schiess in ،"Hau' ab"،Verschwinde Mensch" " 'den Wind" "Va chier، باختصار واحد من الاصطلاحات الكثيرة للغة المعسكر التي معناها تقريباً "إلى جهنم"، هناك أيضاً المتخصصون برحلات التجسس المعقدة، من أجل اكتشاف العامل- المواطن أو مجموعة المواطنين الذين نجح فلان من بيننا أن يقيم صلة معهم، وعندها يحاولون أن يجدوا طريقاً للمجيء مكانه من هذا تنتج حروب لا نهاية لها، التي بالنسبة للخارج والفاشل هي قاسية ومرة بشكل مضاعف لأن عاملاً- مواطناً قد جرى "حلبه" متأكد أكثر أنه سيجد فائدة من عامل- مواطن يقيمون معه اتصالاً في المرة الأولى. مواطن كهذا هو أيضاً ذو قيمة

عالية أكثر بكثير، بسبب أسباب حسية وتكنيكية مفهومة من ذاتها: العامل المواطن نفسه يعرف أسرار "الحِيَل" والأخطار. كذلك مجرد تعاونه معنا يثبت أنه كان قادراً أن يتغلب على حاجز القذارة . وحقيقة، نحن في نظر المواطنين قذرون. يحسون تجاهنا أكثر أو أقل ، مزيجاً من الاحتقار والشفقة فإذا حكموا علينا بحياة كهذه فهذا معناه أننا متهمون بجرائم خفية وخطيرة للغاية. هم يسمعون أننا نتكلم لغات كثيرة لا يفهمونها. أصوات هذه اللغات يسمعونها كأصوات مقرفة لحيوانات غير معروفة. يومياً يرون كيف يستعبدوننا بصورة مهينة يرون كيف نتلقى الضربات بلا انقطاع وكيف نغرق في غياب الإحساس وفي الغباء. لم يلاحظوا أبداً في عيوننا بريق احتجاج أو تمرد أو ببريق ايمان وأمل. هم يعرفوننا كسارقين، خداعين، قذرين، ملفوفين بخرق بالية، وجائعين دائماً. ولكنهم يخلطون بين السبب والنتيجة. فإنهم يستنتجون بكل تأكيد، نستحق الإهانة. مَن، أصلاً، بإمكانه أن يلاحظ ملامح إنسانية في وجوهنا؟ في نظرهم نحن Kazett جسم واحد، بلا قيمة.

ومع كل هذا واضح أن وضعنا ورأيهم فينا لا يمنع الكثيرين منهم أن يرموا في اتجاهنا، من حين لآخر، قطعة خبز أو بطاطا، أو أن يعطونا صحنهم أو بقايا Zivilsuppe - الشوربة للمدنيين، حتى نلعق البقايا وننظف الصحن. غير مرة، هم يتصرفون هكذا ببساطة حتى يبعدوا عنهم من يغرز فيهم نظرة جائعة ويضايقهم بذلك، أو بسبب دافع إنساني مؤقت، مرات كثيرة يفعلون ذلك بدافع التسلية فقط، ليروا كيف من كل الجهات تركض جماهير لتتصارع على فتات الأكل، كالبهائم، بدون أي كرامة ذاتية أو انضباط للنفس، حتى أن الأقوى ينجح أن يأخذ ويبلع بينما الآخرون يجرون أرجلهم ويعودون برؤوس خفيضة.

أي شيء كهذا لم يحدث، يوماً، بيني وبين لورنتسو . إذا كان هناك طعم في محاولة فهم لماذا استغللت أنا بالذات، من بين ألوف البشر، أنا أعتقد أنه أولاً وقبل كل شيء، بفضل لورنتسو، حدث هذا الأمر. وليس بالذات بسبب مساعدته المادية. أكثر من ذلك، بسبب موقفه مني وأعماله، وبسبب مسلكه البسيط وطيبة قلبه، ذكّرني يومياً، أنه ما زال هناك عالم إنساني وعادل، في الجانب الآخر للأسلاك

الشائكة. خارج المخيم هناك أُناس ذوو قلوب وعندهم قِيَم طاهرة. ليس كل شيء ملوثاً وقاسياً. يوجد عالم آخر، الكراهية والخوف غريبان عنه. صحيح أن كل هذا ملفوف بالضباب في هذه اللحظة، ويبدو بعيداً وغير مفهوم، ولكن يجب بذل الجهد للبقاء للعودة إلى حضن هذه القِيَم.

الشخصيات الموصوفة في هذه الصفحات ليست بني آدميين. إنسانيتهم دُفنت في مكان ما، أو أنهم هم دفنوها بأيديهم، بسبب الإهانة التي تعرضوا لها أو سببوها للآخرين. الإس. إس، القساة والحمقى، الكابو، السجناء السياسيون والجنائيون، البرومننطن الكبار والصغار، الهفتلنغ، العبيد بدون روح إنسانية. عالم كامل من الدرجات والهررخيا المفسودة التي أوجدها الألمان مجبولة، للغرابة، بيأس داخلي يمتلكها.

ولكن لورنتسو كان إنساناً. إنسانيته كانت نقية وغير فاسدة. لقد وقف خارج العالم الذي كله شر. بفضل لورنتسو لم أنسَ أنني أنا أيضاً إنسان.

أحداث تشرين الأول 1944

بكل قوانا خرجنا ضد الشتاء. حتى لا يقترب ويصل إلينا. تنهدنا لحرارة أشعة الشمس. طلبنا أن نحافظ عليها. في ساعات المساء قمنا بجهد لنؤجل غروب الشمس، ولكن عبثاً. أمس اختفت الشمس نهائياً ودخلت في الغيوم. هذا الصباح استقر الشتاء.

نحن القدامى، نعرف ماذا ينتظرنا، لأننا كنا هنا في الشتاء الماضي. الآخرون يتعلمون بسرعة فائقة جداً ما معنى الأمر، قبل كل شيء: خلال هذه الأشهر من تشرين أول إلى نيسان يموت سبعة من كل عشرة. ومن لا يموت يتعذب عذاب أيوب. كل دقيقة، كل يوم، كل الأيام من ساعات الصباح قبل مطلع الفجر وحتى توزيع الشوربة في المساء، تكون كل عضلاته متوترة، كل اليوم يقفز على رجل وأخرى، يفرك يديه تحت إبطه حتى يدفئها قليلاً. يكون عليه أن يتنازل عن وجبات الخبز حتى يأخذ كفوفاً، وبعد ذلك يتنازل عن ساعات النوم. لأنه غير ممكن الأكل في الخارج نضطر أن نبتلع طعامنا في الصريفة، واقفين، حيث بقي لنا مكان واحد ضيِّق للوقوف فيه. واقفون لأنه ممنوع أن نتكيء على الأسِرِّة. أيدي الجميع مجروحة، وحتى نأخذ ضمادات نضطر أن ننتظر في الأمسيات ساعات طويلة في الثلج والريح.

كما أن إحساسنا بالجوع لا يشبه إحساس مَن هو خارج المعسكر، فقد تنازل عن وجبة واحدة، هكذا أيضاً إحساسنا بالبرد مختلف كلياً. نحن نقول "جوع" و "تعب" و "خوف" , و "ألم" نقول: "الشتاء ". ولكن هنا كل هذه الأمور تختلف . هذه كلمات اخترعها أناس أحرار واستعملوها كأناس أحرار، عاشوا، وتنعموا وعانوا في بيوتهم. لو أن عالم المعسكرات كان مستمراً وقتاً أكبر، كانت تتشكل لغة أخرى للتعبير عن أحاسيس لم تكن معروفة حتى الآن. لذلك نحن نحس أن علينا أن نشرح ما هو "العمل" في يوم ريح وبرد تحت الصفر، بالنسبة لأناس يلبسون القميص

والغيارات الداخلية وجاكيت خفيفة وبنطلون من القماش يعذبون أجسادهم باستمرار بالجوع والضعف، وهم يعرفون أن ملاك الموت يتربص بهم في مكان قريب.

هذا الصباح عرفنا بيقين، أن الشتاء قد جاء، لأننا مع مجيئه أحسسنا أننا فقدنا الأمل. عرفنا أنه هكذا عندما خرجنا من الصريفة وذهبنا لنستحم، لم نرَ النجوم، في الفضاء البارد وفي الظلام برزت رائحة الثلج . في ساحة الاستعراض، على ضوء الفجر الطالع، عند التنظيم للخروج إلى العمل، لم يتكلم أحد. عندما رأينا السقطات الأولى للثلج فكرنا أنه لو قال لنا أحد في السنة الماضية أننا سوف نستقبل شتاء آخر في المعسكر لكنا قذفنا أنفسنا على جدار المخيم المكهرب. وفي الواقع، الآن أيضاً، علينا أن نفعل ذلك إذا بقيت لدينا ذرة من الفهم، وبقية كرامة ذاتية، لو لم تمنعنا من ذلك بقية أمل مجنون.

لأن "الشتاء" معناه بالنسبة لنا شيء آخر.

في الربيع أقام الألمان خيمتين على طرف المعسكر. في كل واحدة منهما سكن أكثر من ألف إنسان خلال الموسم الحار. الآن، فكوا الخيمتين وألوف الناس يملأون الصرائف، والكثافة صعبة الاحتمال. نحن أسرى المعسكر القدامى بغرف الألمان يقرفون من عدم الالتزام بالأنظمة، ولذلك فهم متأكدون أن شيئاً ما سيحدث قريباً، من أجل تقليص عددنا.

التصفيات نحسها في الأفق. كلمة Selekcja كلمة من مقطعين، لاتيني وبولوني، بدأنا نسمعها بالصدفة، هنا وهناك. وتقريباً لا ننتبه عندما تقال، رويداً رويداً، الكلمة تُسْمَع أكثر فأكثر، وهي بدأت تتغلغل في وعينا. وفي النهاية هي تتغلغل إلى عظامنا، تطالنا.

في الصباح البولونيون يقولون سلكتسيا. البولونيون هم الأوائل الذين تصل الأخبار إلى آذانهم. عادةً يحاولون أن لا ينشروها لأنهم أحياناً عندما تعرف هنا شيئاً ما قبل الآخرين، فإن الأمر يعطيك قوة أكثر.

وهكذا عندما يعرف الجميع أن السلكتسيا على وشك أن تنفذ القليل الذي يمكنهم أن يفعلوه سيكون محاولة الهروب (بواسطة رشوه طبيب أو برمننت بوجبات خبز أو بتبغ، من أجل العبور من صريفة الكا –بي أو في الاتجاه المعاكس، من أجل الوصول إلى مكان تكون فيه المراقبة قد عُمِلت).

في الأيام القريبة عندما يتضح أن الخبر صحيح، يكون الجو في المعسكر وفي المصنع مشبعاً بالسلكتسيا، وفي واقع الأمر، لا أحد يعرف شيئاً بثقة كاملة، ولكن كلهم يتكلمون حول هذا الأمر، حتى العمال الأحرار، البولونيون والايطاليون والفرنسيون. الذين نلتقي معهم، سراً، في وقت العمل.

لا يجوز القول إننا نحس بالضيق العام. قوة الصمود ضعفت إلى حد لم يعد معه من الممكن إضعافها أكثر. الصراع ضد الجوع والبرد والعمل الصعب تُبْقي قليلاً جداً من القوة للتفكير، وحتى الأفكار في هذا الموضوع. كل واحد يرد على طريقته، ولكن تقريباً ولا واحد يرد بشكل طبيعي مناسب للوضع، أي التسليم بالمصير أو اليأس العميق.

مَن يُمْكنه أن ينقذ حياته يعمل كل ما بإمكانه، ولكن هؤلاء أقلية قليلة. إن الهروب من السلكتسيا صعب للغاية، والألمان يتعاملون مع السلكتسيا بجدية كبيرة ويصرون على تنفيذ كل القوانين.

مَن ليس بإمكانه أن يهتم بنفسه، بشكل ملموس، يفتش عن دفاع من صنف آخر، في المراحيض يُظْهِر الواحد منا للآخر صدره ومؤخرته، والوركين، والزملاء يلتزمون: "أنت بإمكانك أن تكون هادئاً، هذه المرة سيتركونك du du bist kein Muselmann (أنت لست مسلمان) بينما أنا..." وعندها هو نفسه يرفع بنطلونه ويرفع قميصه.

لا أحد يرفض أن يفعل هذا المعروف لصديقه، لا أحد متأكد من مصيره إلى حد أن يتجرأ أن يصدر أمراً بالموت ضد زميله.

أنا أيضاً، كذبت بلا خجل لبرتهايمر العجوز، قلت له إنه إذا سألوه كم عمره عليه أن يجيب أنه في الخامسة والأربعين، وأن لا ينسى أن يحلقوا ذقنه في المساء، حتى بثمن رُبْع وجبة خبز، ولا يجب أن يهتم بشيء غير هذه الأمور، وبالإضافة لهذا، أضفت أن لا ضمان أن تكون السلكتسيا إلى أفران الغاز، ألم يسمع من رئيس البلوك أن المختارين يُرْسلون هذه المرة إلى ياورسانو في بولونيا، مخيم الاستجمام.

إذا كانت في قلب فاتيهايمر آمال، فأنها آمال فارغة، فهو يبدو كابن ستين وفي وجهه بقع كبيرة، ولم يعد يحس حتى بالجوع ومع هذا، فهو يذهب للنوم هادئاً ومستريحاً، ولكل مَن يسأله يجيب بكلماتي. هذه هي عادة الكلام في المعسكر منذ ثلاث سنوات. هو مليء بالثقة الذاتية لأنه قوي وجميل وأنا صدّقته.

مرتكزاً إلى قصبة ركيكة أنا أيضاً عبرت السلكتسيا في تشرين الأول 1944، بهدوء عجيب. كنت هادئاً لأنني نجحت أن أخدع نفسي بالقدر الكافي. إذا لم أبعث إلى أفران الغاز فقد كان ذلك بالصدفة. بقائي لا يثبت، بأية حال، أن هدوئي النفسي كان مرتبطاً بالواقع.

أيضاً السيّد فينكراط عُد، من البداية، مع المحكومين بالموت: يكفي أن تنظر في عينيه. بحركة يد هو يدعوني أن أجيء إليه، وبلهجة قرابة يحدثني أنه عرف (مع أنه لا يقول مصدر معلوماته) أنه في هذه المرة هناك جديد: الكرسي المقدس، بواسطة الصليب الأحمر الدولي.. وفي النهاية يضمن لي أن لا خطر يتهددنا، أنا وهو، والأمر مؤكد قطعاً، عندما كان مواطناً خارج المعسكر، كان، كما هو معروف، ملحقاً في سفارة بلجيكا في وارسو.

على أية حال. أيضاً أيام الانتظار هذه (كما نتحدث هنا تبدو صعبة التحمل) تمر شبيهة ببقية الأيام.

الانضباط في المعسكر وفي البونا لا يتزعزع بأية حال، العمل، البرد والجوع تكفي حتى تشغلنا بلا انقطاع، كل قوانا النفسية.

اليوم "سبت العمل" Arbeitssonntag: نعمل فقط حتى الساعة الواحدة بعد الظهر. نعود إلى المعسكر حتى نستحم، نحلق ذقوقنا ونمر في فحوص. في المصنع وصلت إلى آذاننا. بشكل غامض. إشاعة بأن السليكتسيا تكون اليوم.

الخبر انتشر. كالعادة، ومعه فيض من التفاصيل غير الموثوقة والمتناقضة: هذا الصباح كانت سيليكتسيا في العيادات سبعة بالمائة من كل الناس في المعسكر، ثلاثين أو خمسة وثلاثين بالمائة من المرضى، أرسلوا إلى أفران الغاز. من مداخن الأفران في بيرنكاو يرتفع دخان كثيف منذ عشرة أيام. يُعِدّون مكاناً لإرسالية كبيرة ستصل من غيتو بوزنن. الشبان يقولون للشبان إنهم سوف يختارون فقط الكهول. الأصحاء يقولون للأصحاء إنهم سوف يختارون المرضى. السيليكتسيا لن تصيب الاختصاصيين. كما أنها لن تطول اليهود الألمان. كما لن تطول ذوي الأرقام المنخفضة. هي سوف تطولك أنت، بينما لن تطولني!

المصنع يفرغ من الناس بالضبط في الساعة الواحدة، كالعادة، وصفوف غبراء لا نهاية لها تتقدم واحداً وراء الآخر وتمر، خلال ساعتين، أمام نقاط المراقبة التي فيها يعدوننا مرة وأخرى، وبعد ذلك نمر أمام الجوقة الموسيقية، التي تعزف أناشيد مارشات ساعتين بالتمام والكمال بدون توقف، كما في كل يوم، وعلينا أن ننسق خطواتنا مع وتيرة الموسيقى، ونحن خارجون من المعسكر، وفي طريق العودة.

يبدو أن كل شيء يسير، كما دائماً، ومدخنة المطبخ تخرج الدخان كالعادة، لقد بدأ توزيع الشوربة، ولكن فجأة يُسْمع صوت الجرس، هذا هو، لا شك أن ما حسبناه هو ما يقع لنا.

عندما يدق هذا الجرس في الصباح، قبل طلوع الفجر، فهذه إشارة للاستيقاظ، ولكن عندما يدق في الظهر، فهو إشارة إلى Blocksperre أي منع التجول في الصريفة. عندما تكون سيليكتسيا يقرعون الجرس حتى لا يتمكن أن يهرب أي شخص وحتى لا يرى شخص الخارجين في طريقهم الأخيرة.

رئيس البلوك خبير بمهنته. حالاً فحص إذا كان الجميع قد عادوا، أغلق الأبواب وزع لكل واحد بطاقة عليها رقم الهوية، الاسم، المهنة، السن والقومية. أعطى أمراً أن يخلع الجميع كل ملابسهم وفقط لا يخلعون النعال. علينا أن نقف عراة والبطاقة في أيدينا وأن ننتظر حتى تصل اللجنة إلى الصريفة. رقم الصريفة 48، ولكن لا يمكن أن نُخَمِّن متى يصلون، لأنه غير معروف متى يبدأون بالصريفة رقم 1 أو رقم 60. على كل حال، يكون علينا أن ننتظر على الأقل ساعة واحدة، وليس هناك سبب أن لا نضطجع من تحت البطانيات وندفيء أجسادنا.

كثيرون أصبحوا ينعسون بينما فجأة انهمر علينا مطر من الشتائم والضربات والأوامر. وهذا علامة أن اللجنة على وشك الوصول. رئيس البلوك ومساعدوه يبدأون بالدفش بضربات القبضات وبالصرخات الأجسام العارية والمرعوبة إلى داخل Tagesraum الذي هو غرفة الإدارة والمخزن. التاغستاوم هو غرفة سبعة أمتار بأربعة أمتار. كلنا مصطفون فيه، واقفين مضغوطين في كتلة حامية ونملأ كل زاوية فارغة. ونضغط على الجدران بقوة حتى نسمع صوت الخشب.

الآن كلنا في التاغستاوم، لا وقت ولا مكان لنحس بالخوف. اللحم الدافيء الذي يضغطك من كل جانب يثير إحساساً خاصاً لذيذاً للغاية. على الواحد رفع الرأس عالياً حتى يتمكن أن يتنشق الهواء ويجب الحذر أن لا نفقد ولا نطوي بطاقة الهوية.

رئيس البلوك أغلق الباب بين التاغستاوم وقاعة النوم وفتح البابين اللذين يفتحان إلى الخارج من غرفة النوم والتاغستاوم. هنا مقابل كلا البابين يوجد سيِّد مصيرنا- ضابط صغير من الإس. إس. إلى يمينه يقف رئيس البلوك وإلى يساره موظف الصريفة. كل واحد منا يخرج عارياً من التاغستاوم إلى الهواء البارد لشهر تشرين الأول، يقدم تذكرة الهوية إلى الإس. إس. ويدخل من خلال باب قاعة النوم. بينما نحن نمر أمام الإس. إس.، هو ينظر إلينا نظرة قصيرة من الأمام ومن الوراء، ويقرر في مقطع من الثانية مصيرنا حياة أو موتاً. خلال ثلاثة أرباع الدقيقة "ينهون" الصريفة مع المائتين الذين فيها، وخلال بضع ساعات كل المعسكر مع عشرة آلاف ساكنيه.

وقفت مغروساً في مذبح التاغستاوم وأحسست كيف ينقص تدريجياً ضغط الناس حولي، وبلمح البصر جاء دوري. مثل الجميع عبرت بخطواتي وأنا أحاول أن أحمل رأسي مرفوعاً، وصدري متوتراً وعضلاتي بارزة. في زاوية عيني حاولت أن أنظر إلى الوراء وكان يبدو لي أن بطاقة الهوية الخاصة بي قد أعطيت للجانب اليميني.

نعود إلى قاعة النوم. يمكن أن نلبس. لا أحد يعرف، بيقين، مصيره. حتى الآن نحن لا نعرف أي جانب هو للحياة وأي جانب للموت. الآن لم يعد هناك طعم للرحمة وللحسابات وللمعتقدات التافهة ولذلك الكل مصطفون حول الكبار والأكثر جوعاً، باختصار الأكثر مسلمانيين. إذا أعطيت بطاقاتهم لجهة اليسار هو جهة المحكومين بالموت.

قبل أن تنتهي السيليكتسيا، يعرف الجميع أن جهة اليسار هي schlechte Seite –الجانب السيء . بالطبع، هناك استثناءات الذين الحكم عليهم ليس مقبولاً. رينيه، مثلاً، شاب وجميل. تذكرته أعطيت لجهة اليسار، ربما لأنه يلبس نظارات، ربما لأن ظهره مقوس، على عادة قِصار الرؤية، ربما حدث هنا خطأ، رينيه مر أمامي وبكل تأكيد يمكن أنهم تبلبلوا في إعطاء الهوية، أنا أفكر، أتحدث مع ألبرت ونستنتج أنه افتراض معقول جداً. لا أعرف ماذا أفكر حول هذا الحادث غداً أو بعد وقت ما، اليوم ليس في قلبي أي إحساس واضح.

خطأ من هذا النوع حدث أيضاً مع ستيلر، المزارع من ترانسلفانيا رجل قوي فقط قبل عشرين يوماً كان ما زال في بيته. ستيلر لا يفهم الألمانية، لم يفهم شيئاً مما حدث حوله، يقف في إحدى الزوايا ويرقّع قميصه، هل علي أن أتقدم إليه وأن أقول له إنه في القريب لن تعود عنده حاجة للقميص؟!

هذه الأخطاء ليست غريبة إطلاقاً. التصنيف السريع والسطحي. وفوق هذا ليس مهماً للألمان إذا جرت تصفية أيضاً عدة أناس ذوي فائدة، المهم بالنسبة لهم أكثر هو إخلاء أمكنة حسب نسب مئوية تقررت سلفاً.

في صريفتنا انتهت السيليكتسيا، ولكن هي ما زالت مستمرة في أماكن أخرى ولذلك نحن في منع تجول. قدور الشوربة وصلت، رئيس البلوك يقرر البدء بالتوزيع، فوراً. للمحكومين بالموت تُعْطى وجبة مضاعفة. لم أنجح يوماً أن أفحص هل هذا الأمر تقرر بمبادرة رؤساء البلوكات، الذين يقومون بعمل خيِّر تجاه مَن يمرمرون نظامهم، أو كانت هنالك فريضة حسب أنظمة المعسكر. على أية حال فالحقيقة هي أنه خلال يومين أو ثلاثة (وأحياناً أكثر) من السلكسيا وحتى إعدام المحكومين بالموت، كان يستمتع ضحايا مونوفيتش- أوشفيتس من هذا الامتياز.

تسيغلر يقدم صحنه، يأخذ الوجبة العادية ولكن يظل واقفاً، ينتظر. ماذا تريد بعد؟ يسأله رئيس البلوك، لا يعتقد أنه يستحق تسيغلر إضافة، يطرده بدفعة ولكن تسيغلر يعود ويتوسل، بِذُلّ، هو من جماعة الناحية اليسارية، وكلهم يمكنهم أن يشهدوا، يذهب رئيس البلوك ويفحص التذاكر، له حق كامل بوجبة مضاعفة، وعندما أخذ في آخر الأمر الإضافة توجه بهدوء إلى سريره حتى يأكل.

الآن الكل يقحطون باهتمام ما بقي في أسفل الصحن. يحاولون أن يُخْرِجوا من هناك نقاطاً من الشوربة الأخيرة، في الأفق موسيقى معناها أن النهار قد انتهى، ورويداً رويداً يسود الصمت. من مكاني في الطابق الثالث، نرى ونسمع كون الكهل الذي يُصلي بصوت عالٍ، قبعته على رأسه، يترنح بقوة. كون يشكر الله لأنه لم يُحْكم عليه بالموت.

كون هو أفّاق، أحقاً لا يلاحظ وجود الفافو اليوناني. الذي هو فقط ابن عشرين وبعد غدٍ يذهب إلى أفران الغاز. فافو يعرف ذلك، ولكنه مشاغب ولا يُنْزل نظره من اللامبة. لا يفتح فمه، ولا تدور في ذهنه أية فكرة؟ هل كون لا يعرف أنه في المرة القادمة يجيء دوره؟ ألا يفهم أن ما يجري اليوم هو قرف، ولا يوجد صلاة أو تكفيرة أو جواب أو أي شيء بإمكان الإنسان أن يفعله ولا بإمكانه أن يطهِّر أبداً.

لو كنت أنا الله لكنت أتقيأ على الأرض صلاة كون.

كراوس

عندما يهطل المطر يحاصرك شعور بالبكاء. شهر تشرين الثاني. هذه عشرة أيام انفتحت فيها مزاريب الماء والأرض مثل بِركة ضخمة جداً. كل ما هو من الخشب تعبق منه رائحة الحطب المبلل.

لو تمكنت أن أتحرك عشر خطوات يساراً، كنت سأجد ملاذاً تحت عريشة، كنت سوف أكتفي بكيس يحمي ظهري، أو فقط بأمل أن أجد في مكان ما ناراً، حتى أنشف ملابسي قليلاً. كنت سأكتفي حتى بخرقة ناشفة أحشوها بين القميص وظهري. هكذا أنا أفكر بينما أنا أحفر بالمنكوش. أنا أومن حقاً لو كانت في يدي خرقة ناشفة لكنت سعيداً .

المطر يرطبنا حتى عظامنا. عليَّ أن أكون حذراً أن لا أتحرك، وبالأساس أن لا أقوم بحركات جديدة حتى لا يمس جسمي ملابس مشربة بالماء البارد مثل الثلج.

هناك حظ بأنه منذ اليوم لن تهب ريح. شيء غرب: لسبب ما أنت تفكر أنك محظوظ وأن ظروفاً معينة، ولو صغيرة وذات قيمة ضئيلة، تقويك، تمنعك أن تغرق في هاوية اليأس وتعطيك الإمكانية أن تواصل الحياة. يسقط مطر، ولكن على الأقل لا تهب ريح، أو يسقط مطر وتهب ريح، ولكنك تعرف اليوم أن دورك أن تأخذ شوربة إضافية وعندها تختزن قوة أكثر للصمود أمام الجوع، أو يسقط مطر، تهب ريح، والجوع يضايقك كالعادة، ولكن يخطر في بالك أنك إذا وصل الماء "حتى الخناق" فإنك لن تتمكن من الصمود، بأية حال، وإذا أردت حقاً هذا الأمر. ففي كل لحظة، بإمكانك الركض إلى الجدار المكهرب أو أن تقذف نفسك على خطوط سكة الحديد تحت القطار، وعندها لا يعود يضايقك المطر...

من هذا الصباح نحن غارقون في وحل عميق : نقف بأرجلنا المهزوزة، لا نتحرك من النقطتين اللتين وضعتهما النعلان في الوحل العميق، نترنح إلى الجهتين كل مرة

عندما نضرب الفأس الكبيرة في الأرض. أنا أقف في وسط الحفرة الكبيرة، كراوس وكلاوزنر في قاع الحفرة، وغونين فوقي قريباً من وجه الأرض. فقط غونين بإمكانه أن ينظر حوله. بكلمات قليلة يعلن لكراوس أن يزيد الوتيرة أو يستريح، وهذا يرتبط بمن يمر في تلك اللحظة على الشارع. كلاوزنر يحفر، كراوس يدفع التراب إلي. وأنا معولاً بعد معول، أزيح التراب الذي يتكوم إلى غونين الذي يكوم التراب إلى جانبه. آخرون يأخذون التراب، مَن يعرف إلى أين، ولكن هذا لا يعنينا. اليوم كل عالمنا هو هذه البئر الكبيرة الملعونة. كراوس يرفع الفأس، بضربة صغيرة للغاية. كتلة من الطين تطير ثم تعلق بوركي. ليست هذه هي المرة الأولى حيث يحدث له هذا الأمر، وأنا أطلب منه أن يكون حذراً، مع أنني لا أومن أن كلامي سوف ينفع. هو هنغاري، يفهم قليلاً اللغة الألمانية، وأنا لا أفهم أية كلمة فرنسية. طويل الرجلين، يُرَكِّب نظارات، وجه صغير وأعوج بصورة غريبة يشبه ولداً وهو يضحك، وهو يفعل هذا مراراً. يعمل أكثر من اللازم، بنشاط كبير جداً. لم يتعلم، بعد، منا فن التوفير في كل شيء. التوفير والتنفس بالحركات وحتى الأفكار. لا يعرف أن من الأفضل تلقي الضربات لأنه عادة لا يموت أحد من الضرب، بينما من خوار القوى نموت حقاً. وإلى أن نتعلم هذا المبدأ أحياناً تكون قد تأخرت عن الموعد. هو ما زال يُفَعِّل مُخي. هيه، لا، يا كراوس المسكين، ليس هذا تفعيلاً للمنطق بل عادة غبية لموظف صغير جاء بها هنا، ويبدو له أنه في المعسكر أيضاً، كما كان متعوداً خارجه، المحافظة على أخلاق العمل هي عادة حميدة. منطقية ومفيدة. لأنهم دائماً علموه أنه كلما عمل الإنسان أكثر هكذا نربح أكثر ونأكل أكثر

Regardez-moi ça!... Pas si vite, idiot ! [41]

يشتم غونين من أعلى: وحالاً يتذكر أن عليه أن يترجم إلى الألمانية،

[41] بالفرنسية: أنظروا إليه! ليس بهذه السرعة، يا أهبل!

langsam du blöder Einer, Langsam verstanden? [42]

إذا كان كراوس يريد أن يقتل نفسه في العمل مبروك عليه. ولكن يجب أن لا يفعل هذا اليوم بينما نحن نعمل في سلسلة ووتيرة عملنا مرتبط بوتيرة عمله.يُسْمع الصفير في المصنع. بعد قليل يعود الأسرى الإنجليز، وهذا معناه أن الساعة أصبحت الرابعة والنصف. بعد ذلك تمر الفتيات الأوكرانيات والساعة تكون عندها الخامسة. بإمكاننا أن نرفع ظهورنا، لأنه حتى الاستراحة بقي علينا أن نمشي ثانية وان نعبر الاستعراض والفحص.

ساعة الاجتماع العام الAntreten- أزفت، من كل المعابر يزحف إلى الخارج فزّاعات هزيلة، ينشطون أعضاءهم المتحجرة، يعيدون أدوات العمل إلى الصرائف. نحن نرفع أرجلنا من الحفرة، بحذر، لكي لا تظل القباقيب عالقة، ونمشي والماء ينقّط منّا، ونترنح لكي نقف في مسيرة العودة. Zu dreien ، ثلاثة ثلاثة. حاولت أن أقف قرب ألبرت، اليوم عملنا في أماكن مختلفة، وبودي أن أسأله كيف قضى اليوم. ولكن أحداً ما دفعني ببطني وأنا طرت إلى الوراء، أي عجب أنني توقفت بقرب كراوس.

نتحرك. الكابو يعطي الأوامر بوتيرة وبصوت فظ، Links, links, links[43]، في البداية الأرجل متوجعة، ولكن رويداً رويداً، تدفأ. والتوتر يخف. اليوم أيضاً، في هذا اليوم الذي بدأ في الصباح أنه سوف يستمر إلى يوم القيامة، ولن نتمكن أن نقطعه، ها قد هزمنا، على كل لحظاته. الآن هو ملقى مهزوماً ومنسياً، و لم يعد قائماً. لم يُبْقِ أثراً في ذاكرة أحد. نحن نعرف أن الغد سيكون مثل اليوم. ربما يهطل المطر، قليلاً أو كثيراً، وربما بدل أن نحفر نُنْزِل الحجارة. وربما تنتهي الحرب، وربما غداً يقتلوننا جميعاً. أو ينقلوننا إلى معسكر آخر. ربما يحدث تغيير كبير منذ أن أقيم

---

[42] بالألمانية: رويداً رويداً يا غبي. رويداً، هل فهمت؟

[43] بالألمانية يساراً يساراً، يساراً.

المعسكر، يتناوبون دائماً بأن هذا التغيير آتٍ. ولكن مَن يخطر على باله أن يفكر بالغد، بكل جدية؟

الذاكرة هي أداة غريبة. كل فترة إقامتي في المعسكر خطر ببالي بيت من الشعر كتبه أحد رفاقي منذ زمن بعيد:

وسوف يأتي يوم

لا يعود معه طعم أن نقول: غداً

هكذا هو الوضع في المعسكر. هل تعرفون كيف يقال: "لن يكون أبداً" بلغة المعسكر: Morgen früh – غداً صباحاً.

الآن ساعة الlinks, links, links und links- ساعة يجب المواظبة على السير. كراوس هو الفاشل. لقد أخذ حتى الآن لبطة من الكابو لأنه لا يعرف كيف يمشي كما يجب. ها هو يتكلم بمساعدة إشارات اليدين. ويرطن لغة ألمانية ركيكة، إسمع، إسمع يتوجه إليَّ طالباً السماح على كتلة الطين التي وقعت علي. حتى الآن هو لا يفهم بأي عالم يعيش، لا مفر من الإحساس أن الهنغاريين هم أناس فريدون بنوعهم.

أن تمشي وتحاول أن تفسر بالألمانية فكرة معقدة- مهمة تقريباً غير ممكنة. الآن أنا أحذره أن لا يغلط بمشيته وأن ينظر أمامه. أرى عينيه من وراء نقاط المطر التي تغطي نظارتيه، عينا كراوس، عينا إنسان.

في تلك اللحظة حدث شيء ما هام للغاية يجب أن أقصه الآن. وربما يجب أن أقصه لنفس السبب الذي بسببه حدث الأمر عندها. بعد كل جملة عدت وفحصت إذا كان قد فهم ما قلت.

قصصت له أنني حلمت أنني في بيتي، البيت الذي ولدت فيه، أجلس مع أفراد عائلتي حول الطاولة المليئة بالطعام الكثير، أمد رجلي باسترخاء، تحت الطاولة. كان الوقت صيفاً والأمر جرى في ايطاليا . في أنابوليس ؟ نعم، نعم، في أنابوليس، وَلِمَ لا؟ على أية حال لا حاجة للإصرار على التفاصيل. وفجأة، يرن الجرس، وأنا أتقدم

لأفتح. ومَن أرى؟ إياه، كراوس بالي، بنفسه. نقي ومتحمم، جسمه سمين، شعره منعوف فوق رأسه، لابساً كإنسان حر وفي يده رغيف خبز، من ذوي الكيلو غرامين. ما زال الرغيف طازجاً وحاراً Servus Pali. wie geht's[44] دعوته بفرح أن يدخل. وشرحت لأبناء عائلتي مَن هو كراوس. أنا أفسر أنه جاء من بودابست ولماذا هو مبلل إلى هذا الحد: لأنه كان مبللاً، كما الآن . أعطيته أن يأكل ويشرب، وبعد ذلك اقترحت له سريراً مريحاً حتى ينام. كان الوقت ليلاً، ولكن من تلك الليالي الحارة في نابولي، وهكذا في لحظة نشفت ثيابنا (نعم، أنا أيضاً كنت مبللاً جداً).

أي شاب رائع هو كراوس، عندما هو مواطن من خارج المعسكر. هنا في المعسكر، ليس هناك أي أمل أن يعيش الإنسان زمناً طويلاً، وهذا يمكن ملاحظته من النظرة الأولى، وأن يبرهن الأمر كما تبرهن النظرية في الرياضيات. أنا متأسف لأنني لا أعرف الهنغارية، لقد تأثرت تأثراً شديداً. وهذا برز خارجياً بلغة الكلمات الهنغارية الغريبة. فهمت فقط أنه يذكر اسمي ولكن حسب حركات يديه الاحتفالية أنا أقدر أنه يتنبأ ويقسم أنه سيكون صديقي إلى الأبد.

كراوس المسكين، المتسيب، لو عرف أنه لا توجد ذرة من الحقيقة في كل هذا، وأنني لم أحلم عليه إطلاقاً، وهو صفر كامل في نظري، ما عدا هذه اللحظة الإنسانية، باطل الأباطيل، مثل كل شيء هنا، فيما عدا الجوع والبرد والمطر المحيط بنا.

---

44 بالهنغارية-الألمانية: سلا ؟

Die drei Leute vom Labor[45]

مرّت عدة شهور منذ وصلنا إلى المعسكر؟ كم من الوقت مرَّ من يوم تحررنا من كا-بي؟ ومن يوم الامتحان في الكيمياء؟ ومن السيليكتسيا في تشرين أول؟

حول هذه الأسئلة محتارون أنا وألبرت، في أوقات متقاربة. دخلنا إلى هنا ستة وتسعون ايطالياً، في السفرة رقم 74 ألفاً، تسعة وعشرون فقط بقوا أحياء حتى تشرين أول. ثمانية ذهبوا في طريقهم الأخيرة بعد السيليكتسيا. الآن نحن واحد وعشرون. والشتاء فقط في أوله. كم منا سوف يبقون حتى السنة الجديدة؟ وكم حتى الربيع؟

منذ أسابيع عديدة توقف القصف من الجو. في تشرين الثاني بدأ الثلج بالسقوط وغطّى الخرائب. الألمان والبولونيون يجيئون إلى العمل بالملابس الداخلية ، بقبعات من القطن ومعاطف ضد الريح. الإنجليز يجيئون بمعاطف فرو ممتازة. في معسكرنا جرى توزيع معاطف فقط لبعض ذوي الامتيازات الخاصة. نحن كوماندو الخبراء، عادة نعمل داخل المباني، لذلك أبقونا بالملابس الصيفية.

لأننا كيماويون علينا أن نعمل بنقل أكياس بانيل باتا. المادة اللصيقة بالجسم المعروق وتؤثر عليه مثل البرص قطع من الجلد المحروق تتفتت من الوجوه. أفرغنا المخزن عندما بدأت غارات القصف في أواسط الصيف. بعد ذلك ، عندما توقف القصف أعدنا الأكياس إلى المخزن ومرة أخرى يجب أن نعيد الأكياس ونرتبها في داخله. الرائحة الكريهة للفانيلباتا امتصتها ملابسنا الوحيدة وترافقنا طول النهار والليل كظلنا. حتى الآن أفضليات كوماندو الكيمياء هي التالي: الآخرون أخذوا ملابس دافئة، نحن لا، الآخرون يحملون أكياس الإسمنت، ذوات الخمسين كيلوغراماً

---

[45] بالألمانية: رجال المختبر الثلاثة.

بينما نحن نأخذ أكياس فنيلباتا من ذوات الستين كيلوغراماً. وماذا مع امتحانات الكيمياء وأوهام تلك الأيام؟ خلال الصيف تكلموا على الأقل أربع مرات حول مختبر الدكتور فانوفيتش في العمارة 939 وانتشرت إشاعات أنهم سيختارون من بيننا المحلل لقسم الفوليمرزاتسيا.

انتهى كل شيء، الصيف انتهى، المعركة الأخيرة بدأت. الشتاء ومعه المعركة الأخيرة. بدون أدنى شك، هذه هي المعركة الأخيرة. كل ساعة من ساعات النهار، نحن ننصت لجسدنا. نسأل أعضاءنا: الجواب ؟ قاطع، ليس بإمكاننا أن نصمد أكثر. حولنا إشارات بالنهاية وأن الحسم يقترب، نصف عمارة 939 ليس سوى حطام حيطان، حجارة بلوكات مكسورة، حديد أعوج، وعلى المواسير التي كان فيها، مرة، ضغط عالٍ، معلقة الآن ككتل من الثلج ذوات منظر مرعب، فهي كثيفة مثل أعمدة البناء.

في البونا هدوء. عندما تهب الريح من الشرق وأنت تنصت يمكن أن تلاحظ بشيء من الاهتزازات تحت الأرض الغامضة، الجبهة تقترب منا.

وصل ثلاثمائة أسير من غيتو لودج الذي أخلاه الألمان وقت تقدم الجيش الروسي. جلبوا لنا بشارة التمرد الرائع في غيتو وارسو. كذلك قصوا كيف صفّى الألمان قبل سنة معسكر لوبلين، أربع ماكينات قصف بأربع زوايا وصرائف محترقة. العالم الحضاري لن يعرف عن ذلك شيئاً أبداً. متى يجيء دورنا؟

هذا الصباح شكَّل الكابو، كالعادة، فِرَق العمل. الرجال العشرة من قسم كلوريد ماغنيسيوم يذهبون إلى كلوريد ماغنيسيوم. هم يخرجون وفي الحقيقة يزحفون ببطء قدر الإمكان لأن العمل في الكلوريد ماغنيسيوم صعب للغاية. كل اليوم نتبلل بمياه مالحة ونجمد من البرد الذي يرطِّب الأحذية والملابس وجلد الجسم.

الكابو يرفع حجراً ويقذفه على المجموعة. هم يدافعون عن أنفسهم. بحركة ملتوية ولكن لا يزيدون وتيرة المشي. هذا تحول إلى عادة دائمة. والأمر يعود على نفسه كل صباح ، وليس دائماً يمكن القول إن الكابو يقصد أن يضر .

الرجال الأربعة لScheisshaus-المرحاض- يذهبون إلى عملهم، الأربعة الذين يجب أن يبنوا المراحيض الجديدة يخرجون إلى العمل. يجب المعرفة أنه منذ أن وصلت الإرساليات من لودج ومن ترانسيلفينيا نحن نسلِّح الهيفتلنغ بالكوماندو. البيروقراط الألماني السري المسؤول عن هذه الأنظمة سمح بإقامة Zweiplatziges Kommandoscheisshaus أي المراحيض ذوات الغرفتين للكوماندو الخاصة بنا. لسنا لا مبالين أن لا نهتم بجعل الكوماندو الخاصة بنا ذات مكانة، ولكن واضح أن هذا الحق الخسارة فيه ساوت الربح، من الآن لا يمكننا أن نتحجج بالذريعة الجيِّدة جداً للغياب من العمل، ولا نتمكن أن نلتقي العمال المدنيين. "النبل يلزم" قال هنري أنه يوجد آخرون قادرون أن يساعدوا في ساعة الضرورة.

الإثنا عشر رجلاً الذين يعملون في الحجارة . لمايستر داهم. الإثنان المسؤولان عن خزانات الماء. كم ينقص؟ ثلاثة. هومولكا دخل هذا الصباح إلى كا-بي. الحدّاد مات أمس، وفرانسوا نُقِل، لا أحد يعرف إلى أين ولماذا. العدّ كان جيِّداً. الكابو راضٍ، يسجِّل. الكل خرجوا إلى العمل. بقينا فقط نحن، الثمانية عشرة التابعين للفينيلباتا والبرومننطيين من الكوماندو. فجأة، مثل رعد وبرق الصيف فوجئنا!

الكابو يقول "دكتور بانوفيتش أعلن لمدير العمل إن ثلاثة من الهيفتلنغ اختيروا للعمل في المختبرات. 169509 –بركيار، 175633-كاندال، 174517 – ليفي. خلال دقيقة، كاملة كانت أذناي تصنان والبونا ترقص حولنا. نحن ثلاثة ليفي في الكوماندو 98 ولكن

Hundert Vierundsiebzig Fünf Hundert Siebzehn[46]

هو أنا وليس غيري، لا شك في ذلك. أنا واحد من الثلاثة المختارين.

[46] بالألمانية: 174517

الكابو يقيسنا في نظرته من الأعلى إلى الأسفل ويسخر ويستهزيء. بلجيكي، روماني، ايطالي، باختصار ثلاثة Franzosen –فرنسيون، كيف هذا أن الثلاثة فرانسوزين يبعثون، إلى جنة عدن، وهي المختبر؟

زملاء كثيرون فرحوا لأن حظنا كان جيِّداً. أكثرهم فرحاً كان ألبرت. ببساطة وبدون ذرة حسد. ليس فقط أنه لا يفوت فرصة، بل أنه فرح انطلاقاً من الصداقة، الحقيقة ولأنه هو أيضاً من شأنه أن يستفيد من حظي الجيّد. بين كلينا حلف قوي، حيث في كل إضافة طعام ينجح أحدنا في تحقيقها يتقاسم مع صديقه بالتساوي. ليس عنده سبب أن يحسدني لأنه لم يأمل و لم يرد أن يدخل إلى المختبر. ألبرت إنسان مستقل جداً، والالتزام بالأنظمة ليس مناسباً له. هو يميل إلى المجهول، إلى غير المتوقع، إلى الجديد. وألبرت يفضل على "وظيفة" جيّدة، بدون تردد، المفاجآت، والصراعات "لرجل مهنة حر".

استلمت بطاقة من مدير العمل وعليها مكتوب أن الهيفتلنغ 174517 هو عامل خبير، ولذلك من حقه أن يأخذ قميصاً وملابس داخلية جديدة كذلك يجب أن يحلق كل يوم أربعاء في الأسبوع.

البونا مقسومة من القصف، مغطاة بالثلج، هادئة ومتجمدة. تبدو مثل جيفة ضخمة. يومياً تنبح صفارة الإنذار ضد الطائرات. الروس موجودون على بُعد ثماني كيلومترات، محطة القوة لا تعمل، خزانات المتا نول لا تعمل أكثر، ثلاثة من أربعة مراكز الغاز أبيدت. إلى المعسكر يصل يومياً الأسرى "السياسيون" من كل معسكرات شرق بولونيا . البعض يبقون ليعملوا، والأكثرية يواصلون إلى بيركناو- إلى الطريق . وجبة الطعام تقلصت . الكا- بي مليء بحيث لم يبقَ مكان فارغ. ال- E-Häftlinge جلبوا إلى المعسكر مرضاً معدياً خبيثاً وكذلك الدفتيريا وتيفوس البطن.

ولكن الهفتلغ 174517 رُفِّع إلى رتبة خبير ويحق له قميص وملابس داخلية جديدة، وكذلك يجب حلقه كل يوم أربعاء، ولا أحد يمكن أن يدّعي أنه يفهم الألمان .

دخلنا إلى المختبر خائفين أن نحرك ساكناً، مشككين ومليئين بالخوف مثل ثلاثة حيوانات برية في مدينة كبيرة. كم نظيفة وملساء أرض الغرفة، مذهل كم المختبر هنا الذي يشبه كل مختبر آخر. ثلاث طاولات عمل طويلة مليئة بالحاجيات المعروفة. في إحدى الزوايا توجد أدوات مختلفة وميزان وكنورهاروس، وترمستات هوفلر. الرائحة تدخل أنفي وأنا أتزعزع كأنما ضربوني بالسوط، الرائحة البسيطة المميزة للمختبرات الكيماوية العضوية. بوضوح كبير تدخل مخي صورة القاعة الكبيرة والمظلمة إلى حد ما، التابعة للجامعة. السنة الرابعة للدراسة، الطقس الحار لشهر أيار في ايطاليا، هذه الصورة تبددت كلمح البصر.

الهيرستيينوغا يوزع العمل. ستيينوغا هو شاب من أصل ألماني- بولوني، وجهه نشيط ومع هذا فهو متعب ومنقبض. هو أيضاً دكتور، ليس دكتوراً في الكيمياء بل ne pas chercher à comprendre[47] لعلم اللغة. رغم هذا هو يقف على رأس المختبر. لا يتكلم عن طيبة خاطر، ولكنه أيضاً ليس معادياً. عندما يتوجه إلينا يلقبنا "مسيو" (أي سيِّدي) وهذا التوجه مضحك ومثير للتلبك.

مدى الحرارة في المختبر ممتاز، ميزان الحرارة يشير إلى 24 درجة. بالطبع لا يهمنا إذا شغلونا بغسل أجهزة الفحص أو بتنظيف أرض الغرفة أو بنقل بالونات الهيدروجين، كل شيء يبدو جيِّداً بشرط أن نبقى في الداخل. هنا لا تضرنا مسألة الشتاء، وبالإضافة لهذا، في تفكير ثانٍ، أيضاً مسألة الجوع تجد هنا حلاً لها. هل يفتشوننا كل يوم بدقة، بعد نهاية العمل؟ ولنفترض أنهم سيفعلون هكذا، هل يفتشون 'على أجسادنا كل مرة، عندما نريد أن نخرج إلى المرحاض؟ غير معقول. وهنا يوجد صابون وبنزين وكحول. أخيط لي جيباً سرياً في المعطف، أجد طريقاً للقاء مع الإنجليزي الذي يعمل في الورشة ويتاجر بالبنزين. نعيش ونرى كم صارمة المراقبة .

---

[47] بالفرنسية: لا تحاول أن تفهم.

منذ سنة أنا في المعسكر وأعرف أنه إذا قرر أحد ما أن يسرق واستخدم كل قواه، لا توجد مراقبة أو فحص بإمكانها منعه أن يفعل ذلك.

الكل يحسدنا لأن حظنا كان جيِّداً على ما يبدو. إيانا بالذات اختار القَدَر من بين عشرة آلاف محكومين. ويد القدر اختارت هذا الشتاء، أن لا نعاني من البرد والجوع . معنى الأمر أن الفرص كبيرة أن لا نمرض مرضاً عضالاً، أن لا نتجمد من البرد، وأن نعبر بسلام من السيليكتسيا . أناس ذوو تجربة قليلة في المعسكر، يمكنهم أن يصابوا بالإغراء أن يفكروا أنه في هذه الظروف مضمون لنا الخلاص. يمكنهم أن يؤمنوا أن الحرية سوف تجيء وهذا ليس أملاً مجرداً. لسنا نحن. نحن نعرف جيِّدا، كيف سوف تنتهي الأمور، وعملياً، وضعنا الآن هو هبة من القدر وعلينا أن ننعم بها قدر الإمكان، الآن وحالاً. الغد ليس مضموناً، أبداً، المختبر الأول الذي أكسره، الغلطة الأولى في الحساب، عدم الاهتمام الصغير جداً-كل هذا يعيدنا إلى البرد، إلى الريح، وإلى الجوع حتى أنني أنا سأكون مستعداً للطريق. وأكثر من ذلك. مَن يمكنه أن يعرف ماذا سيكون مصيرنا عندما يصل الروس؟

لأن الروس، يقيناً سيجيئون. الأرض تهتز ليلاً ونهاراً، تحت أقدامنا. في صمت الموت في البونا، يُسمع الرعد المدوي للمدافع واضحاً وبلا انقطاع. الجو في المعسكر متوتر، جو يوم الحساب. البولونيون توقفوا عن العمل، الفرنسيون يسيرون برؤوس مرفوعة، الإنجليز يغمزوننا ويشيرون سراً بإشارة(V) –الانتصار، بأصابع أيديهم، وليس دائماً بشكل سري.

والألمان، لهم عيون ولا يرون. لهم آذان ولا يسمعون، يديرون ظهورهم ويتجاهلون الواقع. للمرة لا يعرف كم، قرروا تاريخاً لبداية إنتاج مطاط إصطناعي. الإنتاج من المفروض أن يبدأ في أول شباط 1945. يواصلون بناء الملاجيء وحفر الحفر، يصلحون ما دمره القصف، يقيمون بنايات للمقاتلين. يأمرون، ينظمون ويقتلون. هل يعرفون أن يصنعوا شيئاً آخر؟ أعمالهم ليست نتاج تفكير وقرار واعٍ بل نتيجة طبعهم والمصير الذي اختاروه. لا يمكنهم أن يروا بطريقة أخرى، إذا جرح إنسان وهو يحتضر، يبدأ الجرح بالآلام حتى لو كان كل الجسم لن يعيش يوماً آخر.

كل صباح يوزع الكابو العمل للفرق المختلفة، والآن هو يدعو أولاً ثلاثتنا، العاملين في المختبر "die drei Leute vom Labor". في المعسكر. في المساء وفي الصباح، لا شيء يُفَرِّق بيني وبين القطيع، ولكن في العمل أنا تحت سقف، في غرفة دافئة، ولا أحد يضربني. أنا أسرق صابونة وبنزين وأبيعه، وعملياً ليس هناك خطر أن أضبط خلال السرقة. ربما آخذ أيضاً وصولات لنعل الجلد. هل يمكن أصلاً، أن نسمي ما نعمله "عملاً"؟ العمل معناه دفش الألواح، حمل الألواح، اقتلاع الحجارة، الحفر في الأرض، الإمساك بالحديد الجامد بيدين مكشوفتين ومرتجفتين، بينما أنا كل يوم عندي دفاتر وقلم، والغريب الغريب! أعطوني أيضاً كتاباً مهنياً حتى أنعش ذاكرتي بأساليب التحليل والبحث. عندي جارور لقبعتي وكفوفي. وعندما أريد أن أخرج يكفي أن أعلن للهيرستبينوغا ولا يرفض طلبي أبداً، وإذا تكاسلت في العمل أكثر من اللازم لا يسألني لماذا وما السبب. منظره كإنسان يعاني في جسده حقيقة، بسبب الهدم من حوله.

الزملاء من الكوماندو يحسدونني، وبحق، ألا يجب أن أكون راضياً؟ ولكن عندما أهرب في الصباح من عقاب الريح التي تهب، وأمر على حدود المختبر، يمر بجانبي الزميل الذي يرافقني خلال فترة الاستراحة، الزميل المعروف من الكا-بي ومن أيام سبت الاستراحة. آلام الذكريات، المعاناة، القديمة، الشعور أننا مع كل ما نعانيه بشر. والشعور هذا يهجم علي مثل كلب يعض، في لحظة الوعي الذي يستيقظ من هاوية النسيان. عندها أمسك بقلم الرصاص وأفتح الدفتر وأكتب أموراً لست قادراً أن أقولها والنساء. كم من الشهور مرت قبل أن رأيت في المرة الأخيرة امرأة؟ في فترات متقاربة كان من الممكن أن ألتقي في البونا بعاملات من بولونيا وأكرانيا. لابسات بناطلين ومعاطف جلدية قاسيات وعدوانيات كالرجال.مهملات يتصببن عرقاً في الصيف ملفوفات حتى العنق بملابس من القطن الكثيف في الشتاء. عملن بالمنكوش، ولذلك لم يحسسن بأنوثتهن .

هنا يختلف الوضع. إلى جانب فتيات المختبر، تمنينا ثلاثتنا أن تبلعنا الأرض، من شدَّة الخجل والإحراج. نحن نعرف جيِّداً ما هو منظرنا لأن شخصيتنا تنعكس إلينا بصور غيرنا. أحياناً شخصيتنا تبرز لنا من خلال قطعة زجاج، نحن مقرفون ومُنَفِّرون. كل يوم أحد الجمجمة صلعاء كلياً، وفي يوم الجمعة مغطاة بما يشبه الطحلب البني. الوجوه منفوضة، وتميل إلى الصفرة، مجروحين من سكين الحلاقين، جسدنا مجروح وعليه آثار ضربات وبرد. رقبتنا طويلة ومغطاة بآثار مثل دجاج ممعوط. علقت بقمصاننا قذارة كما على قمصان العاملين بتنظيف حفر المجاري والوحل والزيوت والدم. بنطلون كاندل يصل فقط إلى تحت الركبتين وعظامه بارزة. معطفي معلق علي كما لو كنت علاّقة من الخشب. ولأن حشرات موجودة بكثرة على أجسادنا فأننا نحك في أوقات متقاربة بلا خجل وبدون تردد. علينا أن نطلب أن نذهب في أوقات متقاربة إلى المرحاض. القبقاب الخشبي الذي نصفه في أقدامنا عليه باستمرار رائحة الزيوت وله ضجيج.

هذا وأكثر منه: نحن أصبحنا متعودون على القذارة التي تنضح من أجسادنا. ليست تلك رائحة عادية لأناس لا يواظبون على نظافتهم، بل قذارة خاصة لمحيط الهفتلنغ. أحسسنا منذ جئنا إلى المعسكر بالقذارة. القذارة تفوح من كل مكان ومن كل شيء. من الصرائف، من المطابخ، من المغاسل ومن المراحيض. القذارة تتعلق بنا وليس بإمكاننا ألتخلص منها. "شاب جداً وأصبحت منتناً" هكذا نحن متعودون أن نحيي الزملاء الذين يجيئون إلينا من الإرساليات الجديدة.

هؤلاء الفتيات يبدون في نظرنا كأنهن لسن من هذا العالم، ثلاث ألمانيات شابات، وكذلك حسناء بولونية عاملة المخزن، وبراومايز –السكرتيرة. جلدهن وردي وناعم. لابسات ملابس ملونة وجميلة ونظيفة ودافئة. شعرهن ساطع، طويل وممشط. يتكلمن بحنان ونعومة، وبدل الاهتمام أن يكون المختبر نظيفاً ومرتباً، كما هو مطلوب منهن، فإنهن يدَّخِنَّ كل اليوم، يأكلن خبزاً مع المربى، ويتهمن إيانا بذلك. وعندما يكنسن، يمررن المكنسة بفظاظة، على أقدامنا . إنهن لا يتكلمن ويغلقن أنوفهن عندما نمر بقربهن. مرة توجهت بسؤال إلى براولين فلم تجب بل نظرت إلى

ستيبنوغا، تكلمت بسرعة، وعلى وجهها مشاعر القرف. لم أفهم كلامها ولكن سمعت جيداً Stinkjude[48] ودمي تجمد في عروقي. ستيبنوغا قال لي أنه في كل ما يتعلق بالعمل يجب أن أتوجه فقط إليه.

الفتيات يغنين كما تغني كل الفتيات في كل مختبرات العالم، ونحن التعساء. إنهن يتحدثن فيما بينهن، حول العالم، حول العرسان، حول عائلاتهن، حول الأعياد القريبة.

-يوم الأحد، ستسافرين إلى البيت؟ أنا لا، ليس مريحاً السفر، الآن!

- أنا سأسافر في عيد الميلاد. بقي فقط أسبوعان حتى غيد الميلاد، لا أصدِّق كيف مرت بسرعة السنة!

هذه السنة مرت بسرعة. في السنة الماضية، في تلك الأيام وفي هذا الزمن كنت إنساناً حراً. خارج القانون ولكن حراً. كان لي اسم، كانت لي عائلة، كنت شاباً وذا عقل، شغوفاً بالمعرفة، كنت خفيف الحركة وسليماً. فكرت وقتها حول أشياء كثيرة حول العمل، حول نهاية الحرب، حول الجيِّد والسيء، حول طبيعة الكون وحول القوانين التي تحكم حياة الإنسان. فكرت أيضاً حول الجبال وحول الغناء، وحول الحب والموسيقى والشعر. كان في قلبي ايمان عميق، جذري وغبي حول مصير مَن يكون جيِّداً مع الناس. الموت والقتل كانا بالنسبة لي موضوعين في الأدب، ولا صلة لهما بالواقع. في تلك الأيام كنت حزيناً ومرحاً بانتظام، ولكن الآن أنا متألم من كل يوم مرَّ، لأنه كان يوماً واعداً وغنياً. من هذه الحياة لم يبقَ الآن إلاّ القليل، بقي فقط الجوع والبرد. ولكن هذه الحيوية بائسة، وهي لا تعطيني حتى الإمكانية أن أضع حداً لحياتي.

لو تكلمت الألمانية بشكل جيِّد، تمكنت أن أفسر كل هذا لبراومایر، ولكن بكل تأكيد لم تكن لتفهمني، وإذا فهمت، خصوصاً أنها حكيمة جداً وطيِّبة، فبكل تأكيد

---

[48] بالألمانية: يهودي ذو رائحة كريهة

لم تكن مستعدة أن تقبل قربي، وكانت تهرب كمحكوم بالموت. وربما كانت تعطيني نصف لترمن الشوربة الخاصة بالمواطنين.

السنة مرت بسرعة.

الأخير

أيام عيد الميلاد تقترب. ألبرت وأنا نمشي واحداً إلى جانب الآخر وسط الجمهور الأغبر. منحنين حتى ندافع عن أنفسنا في وجه الريح. ليل. يسقط ثلج. من الصعب المشي، وصعب أكثر أن نحافظ على الايقاع. من مرة إلى أخرى. أحدنا يقع ويتدحرج في الوحل الأسود. يجب الالتفاف عليه برشاقة والسير في خط آخر مع الآخرين.

منذ بدأت أعمل في المختبر لا أعمل مع ألبرت. وفي وقت المسيرة عائدين إلى المعسكر، عندنا أمور كثيرة ليقول أحدنا للآخر. عادةً، لا نتحدث بأمور هامة. نتحدث حول العمل، حول الزملاء، حول الخبز، حول البرد. ولكن منذ أسبوع عندنا موضوع جديد نتدارسه. لورنسو يجلب لنا كل مساء ثلاثة –أربعة لترات من شوربة العمال الايطاليين المدنيين. في سبيل التغلب على مشكلة نقل الشوربة اضطررنا أن نحصل على ما يسمى هنا منشقة، أي صحن خاص مصنوع من الصفيح عملياً شبيه بالدلو. زلبرلوست الحدّاد صنعها لنا من قطعتين، ودفعنا له مقابل ذلك ثلاث وجبات من الخبز. الوعاء حقاً ممتاز، قوي، اتساعه كبير، باختصار منظره كوعاء من العصور القديمة.

في كل معسكر يوجد فقط لبضعة يونانيين "منشقة" كهذه كبيرة. لهذا للوعاء أفضلية مادية، وتملكه رفع بشكل بارز، مكانتنا الاجتماعية. "منشقة" مثل تلك التي لنا، تعطي مكانة "أرستقراطية". هي علامة للطبقة الجديدة . هنري ينظر إلينا بصداقة ويتعامل معنا كمتساوين. ل يتكلم معنا بلهجة أبوية وبتقدير، وفيما يتعلق بإلياس فهو حقيقة متعلق بنا. هو يقترب منا طول الوقت، بعناد. حتى يكتشف التنظيم. ومع هذا يغمرنا بتصريحات غير مفهومة من الود والحب. كل هذا ممزوج مع خليط من

الشتائم والكلمات القذرة بالايطالية والفرنسية، ولا أحد يعرف أين تعلم هذا الكلام الذي هو في فمه كلامٌ تقديريٌ لنا.

وفيما يتعلق بالجانب الأخلاقي لوضعنا الجديد، ألبرت وأنا اتفقنا بأنه ليس عندنا سبب للافتخار. ولكن من السهل أن نجد تبريراً لأعمالنا! ولكن مجرد الحقيقة أن عندنا أموراً جديدة لتدارسها هو تفوق كبير هنا.

نحن نخطط أن نشتري " منشقة" تمكننا أن نذهب مرة واحدة فقط إلى الزاوية البعيدة للمصنع، حيث يعمل الآن لورنسو. نتحدث عنه ونبحث كيف بإمكاننا أن ندفع الدين له.

إذا عدنا إلى البيت فمن البديهي أننا نعمل كل شيء لمساعدته. ولكن ما المنطق أن نتكلم حول هذا. هو ونحن نعرف أن عجيبة فقط يمكن أن تعيدنا إلى البيت. يجب القيام بعمل ما حالاً. ربما نحاول أن نُصلِّح حذاءه في حانوت الإسكافي في المعسكر. هناك التصليحات تُعمل مجاناً. (هذا يبدو غريباً ولكن رسمياً كل شيء مجاني في المعسكر).ألبرت يحاول، هو صديق للإسكافي الرئيسي، وربما نتمكن أن نرتب له مقابلاً لعمله، عدة لترات من الشوربة.

نتحدث عن ثلاثة أعمال جديدة ونلخص بأسف أن علينا أن نحافظ على "السر المهني" ولذلك لا يمكننا أن ننشر: للأسف إذا قصصنا حول هذا عندئذٍ هيبتنا ترتفع إلى أعلى إلى أعلى.

المشروع الأول هو ثمرة مبادرتي. عرفت أن رئيس البلوك في الصريفة رقم 44 بحاجة إلى مكانس. سرقت واحدة من المصنع. حتى الآن لا شيء استثنائي. الصعوبة كانت في تهريب المكنسة إلى داخل المعسكر عند مسيرة العودة إلى المعسكر. أنا أومن أنني حللت المشكلة بصورة أصيلة. فككت المكنسة إلى قسمين، ويد المكنسة نشرتها إلى قسمين، وكل قسم جئت به إلى المعسكر وحده، (وكلا قسمي اليد ربطتهما على وركي تحت البنطلون). بعد ذلك ركَّبْت مجدداً الأقسام. ربطت اليد بقطعة من الصفيح، استعملت شاكوشاً ومسامير. كل هذا العمل لم يأخذ أكثر من أربعة أيام.

مخاوفي تبددت والطالب ليس فقط أنه لم يرفض مُنْتَحي بل أظهر المكنسة لعدد من زملائه الذين رأوا أنها أصيلة جداً وعلى المحل طلبوا مني اثنتين أيضاً "من نفس الصنف".

في قِدر ألبرت طبخت عدة أنواع من الأكل لذيذة جداً، الأول بينهم "عملية المبرد" التي انتهت مرتين بنجاح. ألبرت يذهب إلى المخزن يريد مبرداً ويختار واحداً كبيراً نسبياً. المخزنجي يسجِّل "مبرد واحد" إلى جانب رقمه الشخصي وألبرت يعود إلى العمل. حالاً يتوجه أحد المواطنين المؤتمنين (سارق أبن سارق من تریاستا) خبير بكل أسرار الخداع، يساعد ألبرت أكثر بهدف حب "الفن" وأقل بهدف التنفيذ لأخذ رشوة الذي مقابل المبرد الكبير يعطي له اثنين صغيرين. ألبرت يُرْجع مبرداً واحداً للمخزن ويبيع الثاني.

في هذه الأيام أنهى بشكل مدهش خدعة شجاعة، جديدة وساحرة بشكل خاص، قمة اختراعاته . عليكم أن تعرفوا أنه منذ أسابيع يعمل ألبرت بعمل خاص، في الصباح هو يأخذ في المصنع دلواً مع مفكات البراغي وعدة لافتات ملونة بألوان مختلفة، وهو يجب أن يعلّق اللافتات كعلامات وإشارات على المواسير الكثيرة للماء البارد والحار وللهواء المضغوط وللغاز والنفط ، ألخ قنوات مختلفة تمر بكل الاتجاهات في قسم البوليميريزاتسيا . بالإضافة لهذا عليكم أن تعرفوا (في البداية بدا أنه لا علاقة بين الأمور، ولكن هل الإبداع ليس القدرة على ايجاد أو خلق العلاقات المتبادلة بين الأفكار التي تبدو على السطح، متناقضة مع بعضها أنه بالنسبة لنا الهفتلنغ، الحمام ليس مريحاً أبداً لعدة أسباب، (أو أن الماء بارد جداً، وأحياناً ينقّط بصعوبة، أو أنه يغلي، أو لا يوجد مكان نتعرى فيه، أو ليست عندنا مناشف. أو لا يوجد صابون ومن السهل جداً سرقة حاجياتنا عند الاغتسال) لأن الاغتسال واجب يضطر رؤساء البلوكات أن يراقبونا ويعاقبوا المتهربين من الاغتسال. على الغالب، يُرسل إنسان مخلص من البلوك الذي قرب باب الحمّام ويفحص كل إنسان يخرج من الحمّام ليتأكد إذا كان مبللاً. المبلل يأخذ بطاقة، الناشف يحظى بخمس ضربات بعصا من

المطاط. فقط إذا أبرزنا البطاقة يمكن أن نأخذ في اليوم التالي صباحاً وجبة الخبز العادية.

ألبرت فحص، باهتمام، البطاقات. عادة لم تكن إلاّ قطعاً من الورق ممزقة تُعاد رطبة، ومطوية. ألبرت يعرف روح الشعب الألماني ورؤساء البلوكات كلهم من أصل ألماني أو تخرجوا من مدرستهم، مهووسون بالنظام، بالمنهج، بالبيروقراطية. على الرغم من أنهم بلطجيون عنيفون وعدوانيون فهم يحبون حباً طفولياً الحاجيات النظيفة والملونة.

هذه الأمور أثارت في قلبه الفكرة اللامعة وهو عرف كيف يستفيد من ذلك. ألبرت سرق، بمنهجية، لافتات من لون واحد. من كل واحدة اقتطع ثلاثة ديسكيتات. (أنا نظمت له قاطعاً في المختبر)، عندما كان في حوزته مئتا ديسكيت، الكمية الكافية لبلوك واحد، توجه إلى رئيس البلوك واقترح عليه "الخبرة" وطلب مقابل مثير: أن يعطيه عشر وجبات خبز خلال عدة أيام. "الزبون" وافق بحماس. وهكذا يوجد عند ألبرت سيطرة على منتوج يمكنه أن يقترحه لكل الصرائف، كل صريفة ولونها (وليس هناك رئيس بلوك يريد أن يبدو بخيلاً ومحافظاً). وأهم من كل شيء، لا يريد أن يخاف من بعد غدٍ لأنه فقط هو يمكنه أن يتجه إلى المادة الخام. أليست هذه فكرة لامعة؟

نحن نبحث في هذه القضايا. نتكلم ونذهب. السماء فوق، سوداء، والنفايات على جانبي الطريق سوداء، نتكلم ونذهب. أنا أحمل الصحنين الفارغين وألبرت يحمل المنشقة المليئة والحارة. نصل إلى البوابة مرة ثانية. الموسيقى التي تعزفها فرقة المعسكر واحتفال "Mützen ab" –إنزال القبعة بسرعة عندما تمر قرب حرس ألإس. إس، ومرة ثانية Arbeit Macht Frei وإعلان الكافو: Kommando 98 zwei und sechzig Häftlinge, Stärke stimmt. – إثنان وستون أسيراً، كلهم حاضرون. ولكن الصفوف ليست متفرقة. علينا أن نتقدم إلى ساحة الاستعراض. هل تجري عملية عدّ الحاضرين؟ لا، لن يكون عد للحاضرين، رأينا الضوء الحاد للبروجكتور والجانب المعروض لعمود الشنق.

ساعة كاملة تواصل فرق العمل التدفق إلى المعسكر. وقت تقدمهم ينبعث الضجيج المدوي لقباقيب الخشب وهي تدوي على الثلج المتجمد. عندما عادوا أخيراً، إلى الكوماندو، سكتت الجوقة مرة واحدة. وصوت ألماني أمر بالسكوت. من داخل الصمت العميق الذي ساد، ارتفع صوت ألماني آخر. من خلال الظلام المعادي ارتفع صوت غاضب ومتواصل. وأخيراً برزت حزمة الضوء.

كل هذه التحضيرات والطقسية الممجوجة ليست جديدة علينا. منذ جئت إلى المعسكر رأيت ثلاثة عشر إعداماً علنياً. كان ذلك عقاباً على سرقات في المطبخ، على تخريب وعلى محاولات تهريب. اليوم الوضع مختلف.

في الشهر الماضي جرى تفجير كراموتوريوم واحد في بركناو. لا أحد يعرف (ولا أحد سوف يعرف أبداً، على ما يبدو) كيف حدث الأمر. يعتقدون أن هذا تخريبٌ من صنع الإنسان Sonderkommando الكوماندو الخاص الذي عالج غرف الغاز ومواقد الحَرْق. هؤلاء الناس احتجزهم الألمان في عزْل مطلق، وتصفيتهم تتم في أوقات محددة. على أية حال، حقيقة، أن مئات الناس في بيركناو، عبيد أذلاء، محطمون ومهزومون، وجدوا الشجاعة في نفوسهم أن يثوروا وأن ينفذوا عملياً كراهيتهم القوية للألمان.

الإنسان الذي يموت يموت اليوم أمام عيوننا، شارك في التمرد، بشكل من الأشكال ويروون أنه كانت له صلات مع متمردي بيركناو، وأنه جلب السلاح إلى معسكرنا، وخطط لتنظيم التمرد، هنا أيضاً، هو سيموت اليوم أمام عيوننا، والألمان لا يفهمون أن موته موت الإنسان الذي فرضوه عليه، ليس فقط أنه لن يحسب موتاً معيباً، بل سيكون موت بطل.

عندما انتهى خطاب الألماني الذي لم يفهمه أحد، مرة أخرى سُمع الصوت المبحوح للأول: Habt ihr verstanden? –هل فهمتم؟

مَن أجاب "Jawohl?" الكل ولا أحد. كأنما اللعنة التي ربخت على صدورنا أقام لها جسماً وحلّقت فوق رؤوسنا. ولكن جميعهم سمعوا صوت المحكوم الذي مزّق جو الخنوع وعجزنا وزعزع ضمير الإنسان الذي في كل واحد منا.

Kameraden, ich bin der Letzte!- يا رفاقي أنا الأخير!

ليت بإمكاني أن أقص لكم ما جال في خواطرنا. قطيع مهان، ولو كان بصوت واحد، أو مجرد صمت تأييد وموافقة. ولكن لم يحدث شيء، وقفنا صامتين، منغلقين وغُبْر الوجوه، رؤوسنا منكسة، خلعنا قبعاتنا فقط عندما أمرنا الألماني بذلك. الحبل اشتد، الجسد تشوه. أمر فظيع. الأوركسترا. مجدداً بدأت تعزف. ونحن مررنا واحد بعد الآخر أمام الجثة التي تهتز اهتزازات الحشرجة الأخيرة.

تحت عمود الشنق نظر إلينا جنود الإس. إس، بلا مبالاة، مهمتهم أنجزت. أنجزت بشكل كامل. الآن الروس بإمكانهم أن يأتوا، لم يبقَ أناس شجعان بيننا. الأخير معلق فوق رؤوسنا. حتى نمنع الآخرين كفت عدة تهجمات فقط. الروس يمكنهم أن يأتوا، ولن يجدوا أحداً غيرنا، نحن حطام بشر خنوعين جديرين بالموت الذي ينتظرنا.

من الصعب فقدان روح الإنسان تماماً كما كان من الصعب خلقها. الأمر لم يكن سهلاً واستمر وقتاً طويلاً، ولكن أنتم ، الألمان، نجحتم. ها نحن نعبر هنا خنوعين تحت نظراتكم. لستم ملزمين أن تخافوا منا. لا من تمرد ولا من كلام عنيف ولا حتى من نظرة عقاب.

ألبرت وأنا عدنا إلى الصريفة. لم نتمكن أن ننظر أحدنا في وجه الآخر. ذلك الإنسان، الذي شُنِق كان شجاع النفس، مجبولاً من طينة تختلف عن طينتنا، وذلك لأن تلك الظروف التي كسرت روحنا وشلت يدينا لم تتغلب عليه.

لأننا مكسورون ومهزومون، حتى لو نجحنا أن نتكيف، حتى لو تعلمنا أن نجد الطعام، لم نصل إلى حد الانهيار لانعدام القوى، والتجمد بالبرد، حتى لو عدنا إلى البيت.

رفعنا المنشقة ووضعناها على الفراش. وزعنا الشوربة، ملأنا قليلاً بطننا المعذب طول اليوم من الجوع،والآن الخجل والعار الذي يخنق حناجرنا.

الأيام العشرة الأخيرة

منذ عدة أشهر ونحن نسمع عن انفراج في قصف المدافع الروسية. في 11 كانون الثاني 1945 مرضتُ ثانية وعولجت في الكا-بي

أنا في Infektionsabteilung، أي غرفة ضيِّقة أربعة أمتار xأربعة أمتار، نظيفة جداً، ولْنَقُل الحقيقة، وفيها عشرة أمكنة للنوم مرتبة على شكل طابقين، خزانة، ثلاثة أمكنة نوم ومكان عليه دلو لإفرازات الجسم.

كان صعباً الصعود إلى الأسرَّة في الطابق العلوي حيث لم يكن سلم، لذلك عندما ساءت حالة مريض اضطجع في الطابق العلوي نقلوه إلى الطابق الأول.

كنت المريض الثالث عشر عندما وصلتُ، من بين الإثني عشر أربعة كانوا مرضى للمرة الثانية، اثنان فرنسيان"سجينان سياسيان" وشابان يهوديان من هنغاريا. وأيضاً كان هناك اثنان مريضان بالدفتيريا، واثنان مريضان بالتيفوس وواحد كانت له وردة مقرفة على الوجه. الاثنان الباقيان كانا مريضين بعدّة أمراض مختلفة، وبدا أنهما يعانيان من مرضٍ عضال.

حرارتي كانت عالية. حظّي هذه المرّة كان جيِّداً. أخذت سريراً كان كله لي. اضطجعت مع شعور عظيم بالارتياح لأنني عرفت أنني سأحصل على أربعين يوماً من العُزلة، وهكذا تكون لي أيام راحة كثيرة، عرفت أن حالة جسمي جيِّدة للغاية. هكذا بحيث لن أشعر بأن المرض يضعف جسمي أكثر من اللازم ومن ناحية ثانية لا يكون علي أن أخاف من السيليكسيا.

بفضل تجربتي الكبيرة بنمط حياة المعسكر نجحت أن أُدخل إلى الداخل حاجياتي الشخصية. الحزام المصنوع من خيوط الكهرباء الملفوفة واحداً على الآخر، كف سكين، إبرة، خمسة أزرار وأخيراً وليس آخراً ثمانية عشر حجراً سرقتها من المختبر. بمساعدة عمل متأن بالسكين، كان يمكن تقسيم كل حجر إلى ثلاثة حجارة صغيرة.

وهذه الحجارة كانت مناسبة للقدّاحة. قيمة هذا الكنز كانت ست أو سبع وجبات من الخبز.

قضيت أربعة أيام هادئة. في الخارج سقط ثلج، وكان الطقس بارداً جداً. ولكن في الداخل كان دافئاً، وأخذت وجبات دسمة، عانيت من الشعور بالتقيؤ، واستصعب الأكل، و لم يكن عندي مزاج للكلام.

الفرنسيان المريضان بالسكري كانا لطيفين للغاية. أصلهما من منطقة ووج. جُلبا إلى المعسكر قبل عدة أيام في إرسالية كبيرة لمواطنين خطفهم الألمان المتقهقرون في منطقة اللورين. اسم الأكبر بين الإثنين كان آرتور،فلاح قصير القامة، وأفطس. اسم الثاني صديقه وزميله للسرير كان شارل. كان معلماً في الثانية والثلاثين من العمر، بدل قميص أخذ قميصاً صيفياً قصيراً ومضحكاً.

يوم الخميس جاء الحلاق، يوناني من سالونيكي. تكلم فقط الإسبانية- اليهودية الجميلة لغة أبناء طائفته، ولكنه فهم بعض كلمات من الشتائم المحكية في المعسكر. اسم عائلته كان اشكنازي وكان قد قضى في المعسكر ثلاث سنوات. لا أعرف كيف حصل على وظيفة الحلاّق في الكا-بي. لم يتكلم الألمانية ولا البولونية، و لم يكن عنيفاً أكثر من اللازم. قبل أن يدخل إلى غرفتنا سمعته يتكلم طويلاً، في الممر، وبشكل متأثر مع الطبيب، من أبناء بلاده. بدا لي أن ملامح وجهه خاصة، ولكن لم أكن خبيراً بملامح وجوه أبناء الطوائف الشرقية التي لا تشبهنا. ولذلك لم أنجح في الفهم لماذا كان خائفاً، مرحاً، متأثراً. هو عرفني أو على الأقل عرف أنني ايطالي.

عندما جاء دوري أن أحلق، نزلت بسرعة عن سريري. سألته بالايطالية إذا كان عنده أخبار. لقد أوقف الحلق وغمز بود، وأدار عينيه نحو الشباك، رفع يده وأشار إلى الغرب: Morgen alle Kamarad weg[49] للحظة، أدار عينيه ونظر إلي

[49] بالألمانية المشوشة: غداً كل الرفاق إلى الطريق.

كما هو متوقع، ليرى ذهولي وعندها أضاف:[50] Todos. todos "" وواصل عمله.

الخبر لم يثر بي أي تأثر. منذ شهور كثيرة لم اعرف الألم، الفرح، أو الخوف. للدقة أكثر أحسست بها كلها ضبابية، كما نحس بذلك عادة في المعسكر، هذا الإحساس الذي يمكن تسميته "الإحساس المشروط"، لو بقيت بي مغروسة المشاعر الطبيعية. – فكرت- وعندها كانت هذه اللحظة تعصف بكل خوالج نفسي.

دماغي كان صافياً كلياً. منذ زمن طويل ألبرت وأنا نتدارس كل الأخطار التي من شانها أن تنشأ مع إخلاء المعسكر ومع التحرير.

المعلومة التي جلبها لي أشكنازي لم تكن إلاّ تصديقاً للإشاعة التي انتشرت منذ أيام في العسكر: الروس كانوا في تشنسكوخوفا، مئة كيلومتر شمال المعسكر، ووصلوا إلى زاكوفنه، مئة كيلومتر من الجنوب، والألمان أعدّوا في البونة مواد متفجرة.

نظرت إلى كل زميل في الغرفة، واضح أن لا حاجة لأن نتكلم ولا مع أي واحد منهم. كانوا سوف يجيبونني: "وماذا لو كان الأمر كذلك؟" والمحادثة كانت تنتهي بلحظة. الفرنسيون كانوا مختلفين. هم ما زالوا جدداً في المعسكر. "هل تعرفون" قلت لهم. "غداً يُخلون المعسكر".

حالاً أمطروني بالأسئلة: "إلى أين؟ على الأقدام؟ المرضى أيضاً؟ ومَن لا يقدر أن يمشي؟". عرفوا أنني أسير قديم وأعرف الألمانية، وتخيلوا في قرارة نفسهم أنني أعرف أكثر مما قصصت لهم.

ولكن أنا لم أعرف أكثر، قلت لهم ذلك، ولكنهم واصلوا الأسئلة. ليس مريحاً، ولكن ليس هناك ما أعمله. هم مكثوا هنا فقط أياماً قليلة و لم يتعلموا أنه في المعسكر لا يجوز طرح الأسئلة.

---

[50] بالإسبانية كلهم كلهم.

بعد الظهر جاء الطبيب اليوناني وأبلغنا أن كل المرضى القادرين على المشي يحصلون على أحذية وملابس ويمشون مع الأصحاء حوالي عشرين كيلو متر. الآخرون يبقون في الكا-بي مع طاقم معالج يجري اختيارهم من المرضى بشكل خفيف.

الطبيب كان فرحاً على غير عادته. مثل السكران. إنسان حكيم، حضاري، أناني ومتزن. قال إن الجميع، بلا استثناء. يحصلون على وجبة كبيرة، ثلاثة أضعاف العادية. الناس الذين في الغرفة فرحوا. سألناه ما هو مصيرنا، جوابه كان أن الألمان على ما يبدو سوف يسمحون لنا أن ننجو. وهو لا يعتقد أنهم سوف يقتلوننا. لم يتعب نفسه بشكل خاص لإخفاء أن رأيه هو عكس قوله، وفرحه الذي ليس في محله دل على ذلك أكثر من مئة شاهد.

الطبيب كان مزوداً ومستعداً أن يخرج. وعندما خرج من غرفتنا بدأ الشابان الهنغاريان يتحدثان بتأثر. هما تقريباً شفيا تماماً ولكن كانا ضعيفين جداً. كان واضحاً أن خوفهما أن يظلا مع المرضى، وبحثا إمكانية أن يذهبا مع الأصحاء. واضح أنه لم يكن هنا مجال للتفكير بمنطق. أغلب الظن أنني منهك جداً، كنت أخرج في أعقاب القطيع. الخوف شديد والإنسان المحكوم عليه بالموت يحاول قبل كل شيء أن يهرب.

من الخارج وصلت إلى آذاننا أصوات ضجيج من المعسكر الذي كان فيه نشاط محموم استثنائي. أحد الشبان الهنغاريين قام، خرج وعاد بعد نصف ساعة ويداه مليئتان بالخِرَق القذرة. يبدو أنه أخذها من مخزن الملابس. هو وصديقه تلبسا بسرعة ورتبا جسديهما. يبدو للعيان أنهما أسرعا لأنهما أرادا وضع نفسيهما أمام حقيقة واقعة وخافا من الخوف أن يغيِّر رأيهما. لم يكن ممكناً التصور أن اناساً ضعفاء مثلهما، كانا قادرين أن يمشيا حتى ساعة واحدة فوق الثلج، بأحذية مهترئة وجدوها في آخر لحظة. كانت عيونهم عيون حيوانات مفزوعة.

كالظل مرّت في خاطري الفكرة انه ربما كان الحق معهما. نظرت من خلال الشباك ورأيتهما خارجين إلى المسيرة. مترددين. شبحان عديما الصورة، يترنحان في

عتمة الليل. لم يعودا. بعد وقت طويل عرفنا أن الإس. إس. صفاهما بعد عدة ساعات من مسيرتهما لأنهما لم يكونا قادرين على المشي.

أنا أيضاً كنت بحاجة إلى زوج أحذية. لم تكن ذرة شك في ذلك. ومع هذا، كان علي أن أتشجع ساعة كاملة حتى أتغلب على عدم الرغبة، على الحُمّى وعلى الغثيان. وجدت زوج أحذية في الممر. (الأصحاء سرقوا مخزن الذين يتعالجون وأخذوا أفضل الأحذية. الأحذية غير الصالحة كانت ملقاة في كل الاتجاهات). عندما فتشت التقيت بكوسمان المولود في الالزاس. لأنه مواطن من خارج المعسكر كان مراسل وكالة رويترفي كلرمون-فارن. هو أيضاً كان متأثراً وذا معنويات عالية. قال لي: "إذا عدتَ قبلي أكتب لرئيس بلدية مان أنني سوف أعود".

كوسمان عرف أناساً من البرومنتطيين ومن هنا تفاؤله الذي كان في نظري علامة طيّبة. من المفهوم أنه بمدى ما هذا كان بالنسبة لي ذريعة لعدم العمل. خبأت الحذاء واضطجعت على سريري.

في ساعة متأخرة في الليل جاء ثانية الطبيب اليوناني وبيده كيس نوم وحقيبة ظهر. ألقى على سريري رواية فرنسية: خذ إقرأ أيها الايطالي. تعيدها لي عندما نلتقي. حتى اليوم انا أكرهه بسبب هذه الجملة. لقد عرف جيِّداً أن ملاك الموت ينتظرنا.

وأخيراً جاء ألبرت، على الرغم من الانفصال عنّي. ألبرت كان لحماً من لحمي. كنا "كلا الايطاليين" وعلى الغالب الزملاء خلطوا بين اسمينا. ستة أشهر نمنا على نفس السرير، وكل فتات أكل كسبناه إضافة إلى وجبة الطعام العادية تقاسمناها بيننا. في طفولته مرض بمرض الحُمّى ولذلك لم أقدر أن أعديه. هو ذهب وأنا بقيت. ودعنا بعضنا من وراء الشباك، لم تكن حاجة إلى الكلام الكثير لأن كل ما كان يجب أن نقوله قلناه أحدنا للآخر مرات كثيرة لا تعد ولا تحصى. آمنا أن الفراق لن يكون طويلاً. هو وجد حذاءً من الجلد، كبيراً في وضع جيِّد، ألبرت كان ممن يجدون حالاً ما يحتاجون إليه.

هو أيضاً كان مفعماً بالأمل ومعنوياته عالية مثل كل مَن حضّروا أنفسهم لمشوار طويل. كان يمكن أن نفهم ذلك، شيء ما عظيم كان سيحدث، شيء جديد، في آخر الأمر من الممكن الإحساس بكل زاوية بقوة ليست قوة ألمانية. وأخيراً أصبح من الممكن الملاحظة بقرب انهيار عالمنا الملعون. على كل حال، كان هذا انطباع الأصحاء، الذين رغم تعبهم وجوعهم تمكنوا من الحركة. ولكن بدون أدنى شك كان مغايراً إحساس المنهكين والمرضى والعراة. في قلوبنا كان إحساس يشل، من عدم القدرة وخوار القوى، أحسسنا أننا لعبة في يد القدر.

كل الأصحاء(ما عدا أناس قلائل تلقوا تلميحاً صحيحاً وفي اللحظة الأخيرة تعروا واضطجعوا في أحد ألأسرّة في العيادات) خرجوا إلى المعسكر في ليلة 18 كانون الثاني 1945. أنا أقدِّر أن عددهم كان حوالي عشرين ألفاً، من كل المعسكرات في المنطقة. تقريباً كلهم اختفوا في مسيرة الإخلاء أيضاً ألبرت. ربما يكتب أحد ما في يوم من الأيام سِيَرَهُم.

في كل الكا-بي كنا حوالي ثماني مئة إنسان. في غرفتي بقينا أحد عشر. كل واحد اضطجع في سرير خارجي فيما عدا شارل وآرثور اللذين ناما معاً. عندما أخيراً توقف نشاط الآلة الجهنمية التي اسمها المعسكر، بدأت تمر علينا الأيام العشرة التي خارج الزمن والعالم.

الثامن عشر من كانون الثاني. في ليلة الإخلاء كانت المطابخ ما تزال تعمل وفي صباح اليوم التالي وزعوا ما تبقى من الشوربة الأخيرة. التدفئة المركزية توقفت عن العمل. الصرائف كانت ما تزال دافئة قليلاً. ولكن مع كل ساعة مرّت انخفضت الحرارة وكان واضحاً أنه خلال وقت قصير سوف يضايقنا البرد. في الخارج كان برد قارص، حوالي عشرين درجة تحت الصفر. أكثرية المرضى كانوا يلبسون القميص فقط وآخرون كان ينقصهم حتى القميص.

لم يعرف أحد ما هو الوضع على حقيقته. بقي معنا بعض جنود الإس. إس. وفي أبراج الحراسة بقي القليل من الجنود.

في الظهر تجول في الصرائف شاويش من الإس. إس. هو عيّن رؤساء بلوكات من بين غير اليهود الذين بقوا، وأمر أن تحضَّر فوراً لوائح منفردة للمرضى اليهود وغير اليهود. وهكذا الأمر كان واضحاً من ذاته، و لم يستغرب أحد أن الألمان واصلوا حتى اللحظة الأخيرة التقدير المميز لهم بالتصنيف. وأي يهودي لم يؤمن أنه سيظل على قيد الحياة .

الفرنسيان لم يفهما شيئاً وبقيا مرعوبين. ترجمت لهم، بدون رغبة. خطاب الإس. إس. خوفهم أشبعني غضباً. لم يمر شهر لمكوثهما في المعسكر ليسا جائعين بعد، لم يكونا يهوديين. ومع هذا تملكهما الخوف.

مرة أخرى وُزِّع الخبز. كل يوم بعد الظهر قرأت الكتاب الذي أبقاه الطبيب. رواية مثيرة. غريبة جداً، أتذكره إلى اليوم بتفاصيل التفاصيل. زرت القسم الذي بقربنا. فتشت البطانيات. خرج من هناك مرضى كثيرون وبطانياتهم بقيت في مكانها. أخذت بعضها، الجيِّدة أكثر عندما عرف آرثور أنني جلبتها إلى قسم الديزنطيريا أدار أنفه Y'avait point besoin de le dire.[51] حقاً هي كانت قذرة مثل بطانيات مرضى الدزنطيريا، ولكن فكرت، أنني أخذاً بالاعتبار لما هو متوقع أرى من المفيد النوم ونحن نتغطى بشكل جيّد.

أرخى الليل ظلاله. وليس هناك، بعد، ضوء الكهرباء، برعب لاحظنا انه في زاوية الصريفة يقف رجل الإس. إس، مسلحاً، و لم يكن عنده رغبة ان يتكلم. وكان في قلبي خوف، نفس الإحساس الذي ذكرته. واصلت القراءة حتى ساعة متأخرة.

لم تكن معنا ساعات. ولكن قدّرت أن الساعة هي الحادية عشرة، عندما انطفأت كل الأضواء، وأيضاً الأضواء التي فوق أبراج الحراسة. من بعيد كان ممكناً أن نلاحظ بخيوط ضوء البروجكتورات. في أفق السماء ظهر عدد من الأضواء التي بقيت معلقة

[51] بالفرنسية: لم تكن أية حاجة أن تخبرونا بذلك.

وأضاءت بقوة المنطقة. سُمع أزيز الطائرات، وعندها بدأ القصف. لم يكن هذا شيئاً جديداً بالنسبة لي. نزلت عن السرير، انتعلت الحذاء بدون جوارب، وانتظرت.

أصداء القصف سُمعت كأنما هي بعيدة، ربما من منطقة أوشفتس. انفجار قوي هز فجأة الأرض وقبل أن أنجح في فهم ما جرى سُمع انفجار ثانٍ وثالث. أذناي امتلئتا طنيناً، الشبابيك انفجرت، الصريفة تصدعت، الكف التي كانت معلقة على مسمار مدقوق في الحائط الخشبي سقطت.

ساد الصمت. كل شيء تمّ واكتمل. كنيوليتي، فلاح شاب هو أيضاً من الالزاس، على ما يبدو ليست له تجربة مع القصف، في حياته. نزل عارياً عن السرير، ووقف في إحدى زوايا الغرفة وبدأ يبكي.

كان واضحاً أن المعسكر أصيب، وصريفتان اشتعلتا وتآكلتا بسرعة واثنتان أخريان تحولتا إلى رماد. صرائف فارغة. عشرات المرضى خرجوا عراة، بؤساء، صريفتهم اشتعلت، أرادوا ملاذاً. اضطروا أن يغلقوا الأبواب. الكل ذهبوا في اتجاه آخر وهم مضاءون بضوء الحرائق، حفاة في الثلج الذائب، على أجساد الكثيرين كانت الضمادات التي فُكّت. لم يبد أن صريفتنا سوف تشتعل إلاّ إذا تغيّر اتجاه الريح.

الألمان اختفوا. أبراج الحراسة كانت خالية من البشر.

أنا أعتقد أنه لأن معسكر أوشفتس لم يعد قائماً، لا يجوز لأحد في أيامنا أن يتحدث عن المراقبة التي في الأعالي. ولكن في تلك اللحظات خطر ببالي، في لمح البصر، ذكر خلاصات التوراة في فترات الكارثة والبؤس.

لم أتمكن أن أنام. من وراء النافذة المكسورة عاد البرد الذي يجمد الأعضاء فكرت أنه من الضروري أن نبحث عن مدفأة ، أن نجد فحماً، أخشاباً، وطعاماً. عرفت أن هذا ضروري ولكن لم أكن في حياتي ناجحاً أن أجمع القوة للقيام بذلك بدون مساعدة. لذلك تحدثت مع الفرنسيين.

التاسع عشر من كانون الثاني. الفرنسيون وافقوا معي وفي الصباح قمنا ثلاثتنا واستعددنا للخروج. شعرت شعوراً سيئاً وضعفاً في القوى. كنت أشعر بالبرد والخوف.

المرضى الآخرون نظروا إلينا في استطلاع وتقدير. ألا نعرف أنه ممنوع الخروج من الكا-بي؟ هل لم يهرب، بعد، كل الألمان؟ ولكن لم يقولوا شيئاً، فرحوا أن هناك مَن عندهم الشجاعة أن يجربوا.

لم تكن عند الفرنسيين فكرة عن مبنى المعسكر. ولكن شارل كان شجاعاً وجميلاً وآرثور ذكياً وعملياً وذا حكمة حياتية للفلاحين. خرجنا ملفوفين بالبطانيات إلى الريح في يوم من البرد والضباب.

ما رأيناه لم يشبه أي حلم رأيته في حياتي أو قرأت عنه.

المعسكر الذي لفظ الآن أنفاسه بدأ يبدو في مراحل الانحلال المتقدم. لا ماء. لا كهرباء، الشبابيك والأبواب انتزعت من مكانها. ألقيت وتفرقعت، في كل مكان سُمِع ضجيج التنك الملتوي الذي يُلْقى عن السطوح، غيوم من الرماد ارتفعت عالياً في السماء. على ما فعل القصف أضيفت أعمال البشر. هياكل بشرية بلا قوى — المرضى الذين ما زالوا قادرين على المشي. تجولوا على الأرض التي تجمدت من البرد. حوّلوا الصرائف الفارغة بحثاً عن الطعام. وهجموا بغضب محموم على الغرف المليئة بأثاث رؤساء البلوكات المكروهين، الذين حتى أيام قليلة كان ممنوعاً على الهفتلنغ البسطاء الاقتراب منها. لأنهم لم يتمكنوا أن يسيطروا على جهاز الهضم، لطخوا في كل مكان الثلج الذي هو الآن المصدر الوحيد للماء.

المرضى بقوا في الأرض حول خرائب الصرائف التي حُرِقت حتى يشفطوا إلى أجسامهم بقية الدفء. الآخرون الذين وجدوا بطاطا شووها على الفحم الذي بقي من الحرائق. لقد نظروا حولهم وعيونهم تنقط بالكراهية. قلائل نجحوا أن يشعلوا ناراً ذوبوا الثلج عليها في أدوات مختلفة.

توجهنا إلى المطابخ حيث وجدنا بطاطا . ملأنا كيسين ووضعناهما للحراسة في عهدة آرثور. بين خرائب البلوك التابع للبرومننطيين وجدنا شارل وأنا، أخيراً أخيراً، ما فتشنا عنه: تنور كبير في حالة جيِّدة. شارل جلب عربة يد، حمّلنا عليها التنور وأنا جررتها إلى صريفتنا وشارل ركض إلى الأكياس. هناك وجد آرثور الذي أغمي عليه من البرد جلب إلى المكان الآمن الكيسين وذهب ليعالج صديقه.

دفعت أمامي. بكل قوتي، العربة. بصعوبة نجحت أن أحافظ على توازن الوزن. فجأة سمعت صوت موتور وظهر جندي إس. إس، راكباً على دراجة. وكالعادة، عندما رأيت وجوههم المتحجرة أحسست بخوف مميت وكراهية قوية يملآن كياني. كان متأخراً بالنسبة لي أن أختفي و لم أرد أن أترك التنور. حسب قوانين المعسكر عندما يمر جندي إس. إس قرب أسير، على الأسير أن يقف تحية، ويخلع القبعة. لم يكن معي قبعة وكل جسمي كان ملفوفاً ببطانية. ابتعدت عدة خطوات عن العربة وأنا مرتبك. الألماني مر بدون أن يحس بي واختفى وراء الصريفة. بعد ذلك عرفتُ مِن أي خطر تخلصت.

وأخيراً، وصلت إلى الصريفة، وأعطيت التنور لشارل. نَفَس قصير، بسبب الجهد. قرب عيني تشكلت بقع سوداء.

الآن كان يجب إشعال التنور أيدي ثلاثتنا كانت مشلولة والمعدن البارد التصق بالأصابع، ولكن كان ضرورياً إشعال النار حتى نتدفأ ونشوي البطاطا. وجدنا فحماً، أخشاباً وبعض الجمرات في الصرائف المحروقة.

عندما جرى إصلاح الشباك المكسر والتنور بدأ يحمى، شعرنا كيف تبدد التوتر في قلب كل واحد منا. وفجأة توجه طوبوروفسكي(يهودي بولوني فرنسي في الثالثة والعشرين، مريض بالتيفوس) إلى المرضى الآخرين واقترح أن يعطي كل واحد قطعة خبز لنا، نحن الذين عملنا. الاقتراح قُبِل.

قبل يوم من ذلك لم يكن ممكناً أن يحدث حدث كهذا. قانون الحياة في المعسكر قال: "كل خبزك وإذا نجحت كل خبز جارك". خصوصاً أنه لا مكان لمشاعر الشكر. وهكذا اقتراح طوبروفسكي جسّد، حقيقة، موت المعسكر.

كان هذا العمل الإنساني الأول الذي عُمِل بيننا. أنا أعتقد أنه بالإمكان القول إنه في تلك اللحظة بدأت العملية التي أعادتنا-الهيفتلنغ الذين بقوا على قيد الحياة- إلى حِضن المجتمع الإنساني.

آرثور انتعش بشكل جيّد جداً. ولكن من هنا ولاحقاً اجتهد أن لا يخرج في البرد. لقد عالج الماسورة شوى حبات البطاطا، اهتم بالنظافة وساعد المرضى. شارل وأنا تقاسمنا الأعمال المختلفة التي كان يجب القيام بها في الخارج. قبل مجيء المساء كسبنا في المشوار القصير نصف لتر من الكحول وعلبة بيرة رماها أحد ما. وزعنا البطاطا المطبوخة وحفنة مجففات لكل واحد. فكرت أن المجففات تساعد الجسم على النقص في الفيتامينات.

ساد الظلام. في كل المعسكر غرفتنا كانت الوحيدة التي في داخلها اشتعل التنور. ولذلك كنا معتزين جداً. مرضى كثيرون من أقسام أخرى اجتمعوا حول الباب، ولكن شارل لم يسمح لهم. أن يدخلوا. واضح أنه لم يخطر ببالنا ولا ببالهم أن الاتصال معهم يمكن أن يهدد وجودنا، وأن مرضى الدفتيريا أكثر خطورة من القفز من الطابق الثالث.

أنا نفسي اعترفت بهذا الخطر، ولكن لم أفكر به، منذ زمن طويل تعودت أن أفكر أنني قد أموت من المرض. وفي هذه الحالة لا شيء يمنع النهاية. على أية حال، كان واضحاً لي أنه ليس في مقدورنا منع الموت من المرض. ولم يخطر ببالي أن أفتش عن غرفة في صريفة أخرى، ربما يكون فيها خطر أقل للعدوى من المرض. هنا كان تنور، إنتاج أيدينا، وزع الحرارة الرائعة. هنا كان لي سرير. وهنا تولدت صلة بين أحد عشر مريضاً من قسم الأمراض المعدية.

كل مرة سمعنا دوي المدافع قريباً أو بعيداً وأوركسترا ماكنات القصف. في الظلام حيث فقط الضوء الأحمر للجمر أضاء هنا وهناك، جلسنا، شارل، آرثور وأنا وصنعنا سجائر من الأعشاب التي وجدناها في المطبخ وتحدثنا عن أمور كانت وعن أمور سوف تأتي. في فضاء لا حدود له حيث سيطر البرد والحرب. وفي غرفة مظلمة مليئة بالجراثيم، كنا راضين عن أنفسنا وعن العالم، متعبين جداً، ولكن في المرة الأولى منذ وقت طويل، أحسسنا أنه، أخيراً أخيراً، عملنا عملاً نافعاً، ربما مثل الله، بعد اليوم الأول لتكوينه العالم.

العشرون من كانون الثاني. دوري أن أشعل التنور في الصباح. كنت متعباً، والمفاصل المريضة ذكرتني. في كل لحظة، أنني لم أشفَ بعد من مرض الحُمّى. مجرد التفكير أنه كان علي أن أخرج إلى الهواء المتجمد حتى أفتش عن النار دفعني إلى الغثيان.

تذكرت حجارة الملجأ، صببت قليلاً من الكحول على قطعة ورق، وبتأن حككت الحجارة إلى أن قحطت غباراً أسود. وبصبر حفرت في الحجر بالسكين والعجيبة كانت: بعض الشرارات انطلقت من الحجر ومسوا غبار الحجر المحفور والورقة فعلت ناراً من الكحول. آرثور نزل متحمساً من سريره وسخّن لكل واحد ثلاث حبات بطاطا من البطاطا التي شويناها قبل يوم. حالاً بعد ذلك خرجنا شارل وأنا، جائعين متجمدين لجولة في المعسكر الذي يُحتضر. المخزون من الغذاء(البطاطا فقط) الذي بقي بصعوبة يكفي يومين. الماء كنا يجب أن نحصل عليه من الثلج، عملية معقدة لأنه لم تكن عندنا صهاريج كبيرة ولأنه بعد التسخين نحصل على سائل غير نظيف وبحاجة إلى تصفية.

المعسكر كان هادئاً. هياكل جائعة تجولت مثلنا. ذقون طويلة وحشية، عيون غارقة وعظام بارزة تحت الجلد الأصفر. نرفع أرجلنا مثل السكرانين، ندخل إلى الصرائف الخاوية ونخرج منها وفي أيدينا حاجيات من كل ما وجدنا، بلطات، سطول، مقالي، ومسامير. كل شيء يمكن أن ينفع. والأذكياء فكروا بتجارة التبادل. التي ينفذونها بعد التحرير، مع الفلاحين البولونيين في الناحية.

في المطبخ تقاتل إثنان بسبب عدة حبات من بطاطا متعفنة. أمسك كل واحد ببطن الآخر، ضرب أحدهما الآخر بحركات بطيئة وشتموا بالايديش، بشفاه متجمدة.

في ساحة المخزن كانت كومتان كبيرتان من القنبيط واللفت (اللفت كبير الحجم والمر كان غذاءنا الرئيسي) وكلها كانت متجمدة بحيث كان من الممكن فكها من الكومة الكبيرة فقط بمساعدة المنكوش. شارل وأنا تجندنا للمهمة بالتناوب. خلال العمل حرصنا جيِّداً على أن لا نضيّع عبثاً قوانا. نجحنا أن نستخرج حوالي خمسين كيلوغراماً . وجدنا أيضاً رزمة ملح وكذلك une fameuse trouvaille![52]، غالون ماء، وفيه خمسون لتراً تجمدت كتلة كبيرة من الثلج.

كل هذا حمّلناه على عربة صغيرة (استعملوها عادة لتحميل المأكولات، إلى الصرائف وكثير من هذه العربات كانت ملقاة حولنا.) وعدنا إلى الصريفة. بجهود كبيرة جررنا العربة على الثلج.

في اليوم نفسه اكتفينا بالبطاطا المطبوخة وباللفت المفروم الذي قليناه على التنور، ولكن آرثور وعد أن تكون غداً تجديدات هامة.

بعد الظهر ذهبت إلى العيادة بحثاً عن حاجيات مفيدة. سبقوني أولئك السارقون عديمو الخبرة الذين قلبوا كل شيء ، لم أجد حتى قنينة واحدة. على الرصيف تحت المواد المنعوفة، رأيت برازاً وأدوية موضوعة، عارية ومتلفة. ها هو أحد الحاجيات الذي مَن سبقوني لم ينتبهوا إليه: بطارية سيارة. فحصتها، خرج إشعاع، مما يعني أن البطارية مليئة بالكهرباء.

في المساء سطع الضوء في غرفتنا.

من الفراش رأيت، من خلال الشباك، الشارع. منذ ثلاثة أيام، أمواجاً أمواجاً، عبر الفارماخت هارباً. مصفحات، سيارات، دبابات من صنف تايغر، مغطاة بالأبيض،

---

[52] بالفرنسية: لقية غير عادية.

الألمان راكبون على الخيل. ألمان على الدراجات، وماشون على الأقدام، مسلحون وغير مسلحين. في الليل وصل إلى أسماعنا ضجيج الزحافات قبل وقت طويل من ظهور المصفحات نفسها. شارل سأل كل مرة:

- Ca roule encore ?
- Ca roule toujours.[53]

يبدو أن لا نهاية للأمر.

الحادي والعشرون من كانون الثاني. ولكن هذا انتهى مع طلوع الفجر في الحادي والعشرين من كانون الثاني صمتت المنطقة، خالية، متجمدة، بيضاء، داكنة من أول الأفق إلى آخره. داكن كالموت، وفي الفضاء أسراب من الغربان.

تقريباً كان بي شوق أن أرى شيء ما يتحرك. أيضاً العمال المدنيون البولونيون اختفوا. مَن يعرف أين هم مختبئون. حتى الريح توقفت عن الهبوب. اشتقت فقط لأمر واحد: البقاء في السرير، ملفوفاً بالبطانيات، طلبت استراحة لشرايين المريضة، أردت أن أعطي راحة لأعصابي المتوترة. بعد أن جندت كل قوى نفسي وقوى جسمي التي فيّ، حتى أقصى حدود قدرتي. أن ننتظر حتى تجيء النهاية التي لا تجيء، نفس الشيء بالنسبة لي، كنت مثل الميِّت.

ولكن شارل أشعل التنور، شارل الإنسان الرشيق، الودي، المليء بالأمل، ناداني إلى العمل-

« Vas-y, Primo, descends-toi de là-haut : il y a Jules à attraper par les oreilles… »[54]

---

[53] بالفرنسية: ما زالوا يتدحرجون يتدحرجون طول الوقت.

[54] بالفرنسية: قدماً قدماً. بريمو، إنزل من هناك، يجب أن نمسك على جيل من أذنيه.

"جيّل" كان سطل البول والبراز، الذي كان علينا كل صباح أن نمسك به من يديه، أن نخرجه إلى الخارج وأن نصبه في الحفرة. كان هذا الواجب الأول الذي كان علينا أن نفعله كل صباح، لأنه كان من غير الممكن غسل اليدين ولأن ثلاثة من أبناء مجموعتنا مرضوا بالتيفوس. من المفهوم تماماً أن هذه المهمة لم تكن عملاً لذيذاً.

كان علينا أن نُحَضِّر الملفوف واللفت. أنا ذهبت لأفتش عن أخشاب وشارل ذهب يجمع الثلج لتذويبه حتى يصير ماء. آرثور توجه إلى المرضى الذين تمكنوا من الجلوس وطلب منهم المساعدة للتنظيف والتقشير. توبروفسكي سرطلاط، القلعي، وشانك استجابوا لطلبه.

أيضاً سرطلاط كان فلاحاً من منطقة ووج، في العشرين. وضعه جيِّد ظاهرياً، فقط. من يوم إلى آخر رنين صوته يصبح ناشفاً بشكل يبشر بأمور سيئة. نذكر أنه في تلك الأيام، فقط في أوقات متباعدة، تصرفت الدفتيريا بشكل رحيم.

القلعي عامل زجاج من مدينة طولوز، ذكي وهاديء جداً. على بشرة وجهه ظهرت بقعة حمراء (وردة).

شانك تاجر يهودي من سلوفاكيا: يتشاقى من التيفوس، ذو شهية كبيرة. ومثله أيضاً طوبوروفسكي، اليهودي البولوني- الفرنسي، الغبي والثرثار، ولكن النافع جداً لمجموعتنا الصغيرة بسبب التفاؤل الذي يملأه.

عندما قام المرضى بتقشير الخضروات، كل واحد قرب فراشه، ذهبنا شارل وأنا للتفتيش عن مكان للمطبخ. كل مساحة المعسكر كانت ملوثة بشكل مخيف. المراحيض كانت مليئة، لأنه لم يقم بتنظيفها أي إنسان. مرضى الديزنطيريا (أكثر من مائة) لوثوا كل زاوية في الكا-بي، وعبروا كل الأبواب. على كل شبر كنا مضطرين أن نراقب بسبع عيون. مع أن البرد ضايقنا جداً فكرنا برعب ماذا كان سيحدث لو ذاب الثلج، الأمراض المعدية كانت ستتفشى بلا حدود، القذارة كانت غير معقولة، وفوق هذا لولا الثلج لما كان عندنا ماء

بعد تفتيش طويل جدا، وجدنا أخيراً بعض مساحات نظيفة للغاية في المبنى الذي كان حمّاماً. أشعلنا النار القوية، وحتى نوفر في الوقت. ونمنع التعقيدات نظفنا اليدين بالثلج وبالكلورامين، حتى نطهرها.

الخبر أن الشوربة تحت المطبخ صار له أجنحة ووصل إلى آذان عدد كبير من الأحياء- الأمواتً. قرب المطبخ تجمهروا، بكثافة، جمهور من الأشباح الجائعة. شارل حمل المغرفة عالياً وخطب خطاباً قصيراً وشجاعاً بالفرنسية، مع أنه لم يفهم أحد ما قاله، لم تكن حاجة إلى الترجمة.

أكثرية الجمهور تفرقوا ولكن واحداً بقي. مولود في باريس، خياط للذوات، (حسب قوله) مريض رئتين. مقابل لتر من الشوربة هو مستعد أن يحضِّر لنا ملابس من البطانيات الكثيرة التي بقيت في المعسكر.

حقاً. مكسيم برهن على مهنيته: في اليوم التالي كان عند شارل وعندي جاكيت، بنطلون وزوج كفوف مصنوعة من القماش القاسي والملون.

في الليل، بعد أن جرى توزيع الشوربة، بحماس، وجرى أكلها بشهية، سُمِع، فجأة، صوت وسط السكوت العميق الذي ساد. من الغرف سمعنا قذائف مدافع تنفجر، ولكن كنا متعبين و لم يثر فينا القلق. القذائف بدأت تطير من فوق رؤوسنا، وبدا لنا أنها تجيء من كل اتجاه.

حسبت أن الحياة خارج المعسكر جميلة ومستقبلها أن تكون جميلة أيضاً لنا. من المؤسف إذا كنا، بالذات الآن سوف نُقْتل. أيقظت المرضى الذين ناموا، وعندما كنت متأكداُ أنهم جميعاً يصغون قلت أولاً بالفرنسية وبعد ذلك بالألمانية الأكثر جودة التي قدرت عليها، أن الجميع يجب الآن أن يفكروا كيف سيعودون بسلام إلى البيت. ولذلك علينا أن نعمل حالاً أموراً أخرى. من أشياء أخرى يجب أن نكون حذرين: كل واحد يحافظ على صحنه وملعقته. ولا يعطي أحد شوربة للآخرين حتى لو بقي معه. لا ينزل أحد من السرير إلاّ لمقتضيات جسمه فقط. إذا كان عند

أحد حاجة إلى أي شيء ضروري يتوجه إلى ثلاثتنا فقط. آرثور وافق أن يكون مسؤولاً عن النظام والنظافة. يجب أن يحافظ على هذا المبدأ، من الأفضل إبقاء أدوات الأكل وسخة وعدم غسلها وفقط أن لا يبدِّل الأدوات بأدوات مرضى الديفتيريا بأدوات مرضى التيفوس.يبدو لي أن المرضى كانوا لا مبالين ولم ينتبهوا لمطلبي، ولكنني كنت واثقاً بمسؤولية آرثور.

الثاني والعشرون من كانون الثاني. إذا عد الشجاع هو مَن يخرج ويخاطر في خطر حاد بدون تفكير زائد فأن شارل وأنا كنا شجاعَيْن في ذلك الصباح. وسَّعنا مساحة المشوار حتى معسكر الإس. إس، وراء جدار الأسلاك.

حراس المعسكر تركوه، على ما يبدو، بتسرع كبير. وجدنا على طاولاتهم صحوناً وبها بقايا شوربة تقريباً متجمدة، أكلناها بشهية كبيرة. على الطاولات كانت أيضاً كؤوس مليئة بالبيرة التي تحولت إلى جليد أصفر. وحجارة لعب شطرنج بدأوا بها فقط. في الغرف حاجيات وقطع أثاث مفيدة إلى أقصى حد.

أخذنا قنينة فودكا، أدوية، جرائد ومجلات، أربع بطانيات، (منجَّدة) ممتازة. إحداهن محفوظة عندي حتى اليوم في بيتي في طورينو. فرحين وغير هيابين من الأخطار، جلبنا إلى الغرفة فواكه جولتنا وأعطينا كل شيء للحراسة عند آرثور. فقط في المساء عرفنا ماذا جرى هناك. نصف ساعة بعد أن تركنا.

بعض جنود الإس. إس. تائهون دخلوا إلى المعسكر المهجور. كانوا مسلَّحين. وجدوا هناك ثمانية عشر فرنسياً تموضعوا في غرفة الطعام لإس. إس. وقد قتلوهم. غرزوا لكل واحد رصاصة في رأسه. رتبوا جثثهم في صف على الشارع المغطى بالثلج، وبعد ذلك غادروا ثماني- عشرة جثة بقيت هناك إلى أن وصل الروس. لم يكن عند أحد القوة أن يدفن هذه الجثث.

هكذا كانت الأحوال. في كل الصرائف كانت أسِّرة كثيرة وعليها ارتمت جثث متحجرة لم ينتبه إليها أحد. الأرض كانت متجمدة وقاسية للغاية. لأي واحد منا لم

تكن القوة لحفر القبور. جثث كثيرة تكومت في الحفرة قرب صريفتنا. لقد برزت من الحفرة وهذا المنظر المفزع تمكنّا أن نراه من خلال شباكنا.

فقط حاجز خشبي غير سميك فصل بيننا وبين قسم مرضى الديزينطيريا. كثيرون هناك كانوا يحتضرون، وكثيرون كانوا بين الأموات. أرض الغرفة مغطاة بطبقة جامدة. تقريباً لم تكن لأحد القوة للخروج خارج البطانيات للتفتيش عن طعام ومن فعل ذلك توقف عن مساعدة الآخرين. في سرير واحد وراء الحاجز ومحاذٍ له، اضطجع ايطاليان ملتصقان الواحد بالآخر، حتى يدفآ قليلاً. في أوقات متقاربة سمعتهما يتحدثان ، ولكن لأنني تكلمت فقط الفرنسية خلال وقت طويل لم يعرفوا أنني أنا أيضاً ايطالي. في نفس اليوم سمعت، بالصدفة، شارل يلفظ اسمه كما يلفظه الايطاليون ومن حينها لم يتوقفوا عن طلب المساعدة بصوتٍ باكٍ.

واضح أنني أردت أن أساعدهم لو كانت لدي الإمكانيات والقوة. ولو فقط حتى أكف عن سماع صراخهم. في المساء، عندما انتهت كل الأعمال، تغلبت على التعب وعلى القرف،وتسربت من الممر الملوث والمظلم حتى وصلت إلى قسمهم. جلبت صحن ماء وبقايا شوربة أكلنا منها في اليوم نفسه. من لحظة خروجي من المكان، كل قسم الديزينطيريا بدأ ينادي باسمي في النهار والليل. من خلال الحاجز الرقيق سمعت الصرخات ومعها التوسلات المفهومة. أحسست أنني سوف انفجر بالبكاء، وفي كل لحظة. كرهتهم.

في الليل كانت مفاجأة سارّة. لكامكر الذي اضطجع على السرير الذي تحتي كانت قطعة بائسة من أداة وبعض الأمور الأخرى. يهودي هولندي في السابعة عشرة، طويل، نحيف ورقيق. تحت المعالجة منذ ثلاثة أشهر. لا أعرف كيف أُنقذ من السيليكسيات. في البداية مرض بالتيفوس وبعد ذلك بالحُمّى. نتيجة أمراض صارت عنده أعراض لمرض القلب. كل جسمه تغطى بجراح خارجية، ولذلك كان بإمكانه أن ينام فقط على بطنه. مع كل هذا كانت عنده شهية لا تشبع. تكلم فقط الهولندية التي لم يفهمها أحد.

ربما هذا الأمر جرى بسبب شوربة الملفوف واللفت. كما ماكر أصر أن يأخذ منه وجبتين. في منتصف الليل بدأ يبكي وبعد ذلك ألقى بنفسه على السرير. أراد أن يصل إلى المرحاض ولكن لأنه كان منهك القوى سقط على الأرض وبدأ يصرخ ويبكي.

شارل أضاء المكان (البطارية كأنما نزلت إلينا من السماء!) وحالاً تمكنا أن نلاحظ كم الوضع خطير، سرير الفتى وأرض الغرفة كانا ملطخين. من لحظة إلى أخرى ازدادت القذارة في الغرفة الصغيرة. كان عندنا ماء قليل. ولم تكن بطانيات أو شراشف للتغيير. الفتى البائس تحوّل إلى بؤرة خطيرة للغاية من التلوث. بأية حال لم يكن ممكناً أن نبقيه ليلة كاملة على أرض الغرفة، ملقى بين القذارة، يبكي ويرتعد من البرد.

شارل نزل عن سريره ولبس ملابسه، بدون أن يلفظ كلمة. بينما أنا أمسك بالمصباح مزّق هو بالسكين كل الأقسام الوسخة من الشرشف والبطانية. حمل كماكر بحذر ورقة، عن أرض الغرفة كما لو كان أمه، نظّفه بالقش الذي نزل من الفراش، ووضعه على سريره، نائماً على بطنه. بمساعدة قطعة من التنك جمع كل البراز الذي على الأرض وأخيراً رشّ مادة مُطَهِرّة على كل شيء وعلى نفسه.

قدّرت عالياً إخلاص روح شارل لأنني عرفت ضخامة التعب ، وكنت يجب أن أتغلب عليه، حتى أفعل ما فعل شارل.

الثالث والعشرون من كانون الثاني: مخزون البطاطا الذي عندنا نفد. منذ أيام انتشرت في المعسكر إشاعات أنه في مكان ما خارج الجدار توجد مطمورات ضخمة من البطاطا.

طلائعي مجهول قام بتفتيشات دقيقة، أو أن أحداً ما عرف بالضبط أين المكان. وحقيقة في صباح الثالث والعشرين من كانون الثاني قُطِع قسم من جدار الأسلاك الشائكة ومسيرة المعذبين في الحياة خرجت ودخلت في مسارب موازية لطريق الجدار

المخْتَرَق. شارل وأنا خرجنا في الريح القوية التي نشبت من السهل الأغبر. بسرعة أصبحنا خارج الجدار.

« Dis donc Primo, on est dehors ! »[55]

حقاً، صحيحة كانت أقواله. في المرة الأولى منذ اعتقلنا تناشدني الحرية بلا حرّاس مسلحين، بلا أسلاك شائكة تفصل بيني وبين بيتي.

البطاطا وُجِدَت على بُعْد أربعمائة متر من المعسكر: كنز! حفرتان طويلتان كانتا مليئتين بالبطاطا المغطاة في الأرض والقش حتى لا تجمد. لا يموت أحد بعد من الجوع. ولكن لم يكن سهلاً إخراج البطاطا من الحفرة.بسبب البرد القارص، طبقة البطاطا العليا كانت قاسية كالحجارة. بعمل مضنٍ من الحفر بالمنكوش كان ممكناً أن نكسر الغطاء المتجمد والوصول إلى البطاطا. ولكن أكثرية الناس فضّلوا النزول في الأنفاق التي حفرها الآخرون، أن يزحفوا عميقاً إلى الداخل، وأن يخرجوا البطاطا للزملاء الذين كانوا في الخارج.

واحد هنغاري لفظ أنفاسه، فجأة، بين الأنفاق. اضطجع متحجراً، ومن منظر جسمه ووجهه بدا الجوع. الرأس والكتفان من تحت كومة من التراب، البطن غارقة تحت الثلج، اليدان ممدوتان. مَن جاء بعده حرّك الجثة، جانباً وواصل العمل في مسار الفتحة.

من نفس اليوم تحسّن الغذاء لنا. بالإضافة للبطاطا المطبوخة والشوربة تمكنا أن نُقدِّم لمرضانا كعكاً من البطاطا حسب اختراع آرثور. في الليل البطاطا طرية ومطبوخة قليناها على لوح من الحديد الأبيض. وطعمها كان له رائحة الحديد.

سرطلس المريض بالدفتيريا لم يكن قادراً أن يستمتع من هذه "النعمة". لأن مرضه تفاقم وأصبح صعباً. حنجرته أصبحت مبحوحة و لم يتمكن في ذلك اليوم أن يبلع أي طعام، شيء ما أصيب في حنجرته وكل لقمة صغيرة كادت تخنقه.

---

[55] بالفرنسية: وهكذا يا بريمو، ماذا تقول ، نحن في الخارج!

ذهبت لأبحث عن طبيب هنغاري اضطجع في الصريفة المقابلة. عندما سمع كلمة دفتيريا ابتعد عني وطردني خارجاً.

كأداة للتهدئة فقط،نقّطت نقاطاً من الزيت في أنوف كل المرضى. قلت لسرطليس إنه حالاً سيشعر بتحسن. أنا نفسي حاولت أن أقنع نفسي أن هناك فائدة من هذا العمل.

الرابع والعشرون من كانون الثاني: الحرية. الفتحة التي في جدار الأسلاك الشائكة جسّدت الواقع، بشكل جيّد. إذا فكرنا باهتمام فمعنى الأمر هو: لا يوجد، بعد، ألمان. لا بعد سلكسيات. لا بعد أعمال سُخْرة. لا ضربات. لا اصطفاف رسمي، وربما بعد هذا كله حتى-عودة إلى البيت.

ولكن كان صعباً للغاية أن نقتنع أن هذا هو الواقع لأن أحداً لم يكن قادراً أن يستمتع بالوضع الجديد: سيطر على الجميع شيطان الموت والدمار.

موجة الجثث التي قبالة شباكنا برزت من خارج الحفر. رغم فيض البطاطا تضاءلت قوانا. ولا مريض شفي وكثيرون مرضوا أيضاً بالتهاب الرئتين وعانوا من الإسهال. مَن لم يتمكنوا أن يتحركوا أو لم تبقَ فيهم قوة الإرادة اضطجعوا في غرفهم مغمى عليهم، متحجرين من البرد و لم ينتبه أحد إلى موتهم.

الآخرون، خارت قواهم: بعد شهور وسنوات في المعسكر بكل تأكيد لم يكن في مقدور البطاطا فقط أن تعيد لهم حيويتهم. شارل وأنا سحبنا خمسة وعشرين لتراً من الشوربة المطبوخة حتى الغرفة، وعندما وصلنا اضطررنا حالاً أن نضطجع ونستريح بينما جسدانا يرتجفان ، ونحن نتنفس بصعوبة. آرثور المخلص والذي يأخذ الغير بالاعتبار. وزَّع الطعام واهتم أن تبقى ثلاث وجبات ل rabiot pour les

travailleurs[56] وشوربة قليلة من قاع القدر: pour les Italiens d'à côté[57]

في الغرفة الثانية لقسم الأمراض المعدية، وهو مجاور لغرفتنا، وفيه محجوزون بالأساس مرضى السل، الوضع كان رهيباً ومفزعاً. كل مَن استطاع خرج إلى الصرائف الأخرى. المرضى بوضع صعب والضعفاء جداً ماتوا بصمت وبعزلة.

ذات صباح دخلت إلى هناك لأطلب إبرة. صوت نخير سُمِع من إنسان يُحْتَضَر اضطجع على الطبقة العليا من السرير. سمع أنني دخلت، جلس وبعد ذلك ارتمى على الفراش وبعد ذلك تعذب أمامي. جسد متجمد، عينان بيضاوان. مَن اضطجع تحته مد يديه ليساعده لكنه حالاً أدرك أن الرجل مات. رويداً رويداً، تحت ضغط جسمه الثقيل، والرجل من أعلى سقط على أرض الغرفة وبقي ممداً هناك. لا أحد كان يعرف اسمه!

في الصريفة رقم 14 كانت أخبار سارة. هناك كان العمال المدنيون يتعالجون. الوضع العام لبعضهم كان جيِّداً جداً. نظموا مسيرة إلى معسكر أسرى الحرب الإنجليز، من منطلق أن هؤلاء قد أخلوا. حقاً، المشروع تكلل بالنجاح. عادوا لابسين ملابس كاكي وجروا عربة مليئة بأمور عجيبة ليست من هذا العالم، مرجرينا، مسحوق البودنغ، سمن، طحين سويا، ويسكي.

في المساء سُمع غناء في صريفة رقم 14.

لم تكن عند أحد منا القوة للسير كيلومترين حتى معسكر الإنجليز والعودة ونحن نحمل شيئاً بأيدينا، ولكن بشكل غير مباشر جلبت العملية الناجحة للصريفة 14 ربحاً لكثيرين. التجارة والعمل بدآ بالازدهار. في غرفتنا التي كان فيها ملاك الموت

---

[56] بالفرنسية: وجبات إضافية للعاملين.

[57] بالفرنسية: لصالح الايطاليين الذين من وراء الحاجز.

ابن بيت تأسس مصنع للشمع، فتيل مشبع بالحامض، وصببنا حوله الشمع في علب كرتون. أغنياء الصريفة 14 اشتروا كل إنتاجنا ودفعوا ثمنه زيتاً وطحيناً.

أنا مَن وجد كتلة الشمع في مخزن لمواد الكهرباء. ما زلت أتذكر ملامح التعجب وعدم التصديق على وجوه مَن رأوني حاملاً المواد. ما زلت أتذكر المحادثة التي تطورت بيننا.

ماذا تفعل في هذا؟

واضح أنه لم يخطر ببالي أن أكشف سر إنتاج الشمع. فجأة سمعت نفسي أجيب بنفس الكلمات التي أحياناً صدرت عن قدماء المعسكر، وسمع منها شيء من الخيلاء: كأنما قالوا إنهم "أسرى جيّدون"، أناس عرفوا كيف يتكيفون ودائماً "دبّروا حالهم". Ich verstehe verschiedene Sachen... أنا أعرف عدة وعدّة أمور..

الخامس والعشرون من كانون الثاني: ملاك الموت ساد على ساموغي. كيميائي هنغاري عمره حوالي خمسين، أفطس، طويل، سَكوت. هو أيضاً مثل الهولندي شُنفي من التيفوس والحُمّى. ولكن شيئاً جديداً أصابه. حُمّى من حرارة مرتفعة. منذ خمسة أيام لم يقل كلمة واحدة. في نفس اليوم فتح فمه وقال بصوت عالٍ: "عندي وجبة خبز تحت الشرشف. وزعوها بينكم أنتم الثلاثة. أنا لا أستطيع أن آكل بعد"..

لم يكن في أفواهنا ما نجيب ولكن لم نمس خبزه. نصف وجهه كان منفوخاً. طالما بقي فيه وعي صَمَت بعناد.

ولكن في المساء، طوال كل الليل وبعدها بيومين غرق في هذيان وتكلم بدون انقطاع. يبدو أنه في دماغه المتوتر تدحرج حلم أخير حول الصراع بين العبودية والحرية، لأنه مع كل تنفس قال كلمات ودائماً بينها الكلمة الألمانية Jawohl. آلاف المرات Jawohl. كأنما تحوّل إلى آلة جهنمية حتى صرت تريد أن تهزه أو تخنقه أو على الأقل أن تدفعه أن يغيِّر هذه الكلمة.

في حياتي لم أعرف حتى ذلك الوقت كم هو صعب الموت للإنسان! في الخارج صمت الموت. عدد المُحْتَضرين ازداد. وكلهم عرفوا لماذا . مع توقفات طويلة، تجدد كل مرة حوار المدافع.

بلا انقطاع عُدْنا وقلنا الواحد لزميله إن الروس سوف يصلون بسرعة، بعد وقت قصير. على ألسنتنا جميعاً كان نفس الكلام، كنا واثقين أن هذا هو ما سيحصل، ولكن لم نكن قادرين أن نكون هادئين. لأننا في المعسكر نفقد القدرة على الأمل. في المعسكر أنت تتعلم أن تفكر. في المعسكر لا فائدة من التفكير لأنه لا يمكن أن تتوقع سلفاً تتطور الأحداث. الأفكار مضرة لأنها تعزز الحساسية التي هي مصدر للعذاب ويبدو أن هناك قانوناً في الطبيعة يُضْعِف الحساسية عندما يفيض العذاب عن ضفاف الحياة.

كما يتعب الإنسان من الفرح، من الخوف وحتى من الألم، هكذا هو أيضاً الإنسان يتعب من الانتظار. في الخامس والعشرين من كانون الثاني عبرنا ثمانية أيام منذ هُدمت الجسور مع ذلك العالم الوحشي ، الذي كان عالماً مليئاً. أكثرنا كنّا فاقدي القوى بشكل مطلق، حتى أن الانتظار نفسه، أيضاً كان غير محتمل.

في المساء. قرب التنور، أحسسنا مجدداً، آرثور، شارل وأنا أنّنا عائدون لنكون بشراً. تمكنا أن نتكلم حول كل شيء. آرثور قص كيف يحتفلون بأيام الأحد في بروفنشار، التي في منطقة ووج. تأثرت جداً لسماع أقواله. شارل كان قريباً من ذرف الدموع عندما قصصت له عن وقف القتال في ايطاليا ، عن بداية المقاومة اليائسة لأعضاء المقاومة (البارتيزان)، عن الإنسان الذي وشى علينا وكيف قبضوا علينا في الجبال.

في العتمة، من فوقنا، الأشخاص الثمانية شربوا على ظمأ كل كلمة قلناها، حتّى مَن لم يفهموا الفرنسية. فقط ساموغيه وجد صعوبة أن يعلن ولاءه لملاك الموت.

السادس والعشرون من كانون الثاني: عشنا في عالم خدّاع، في عالم الموتى. البقية الباقية من الحضارة اختفت في تلك الأيام من داخلنا ومن محيطنا عملية التبهم صبّها

علينا الألمان المنتصرون انتهت والألمان مهزومون. مَن قتل كان إنساناً.ومن اضطر أن يتحمّل الظلم ومن فرضه على الآخرين هو أيضاً كان إنساناً . لم يعد إنساناً مَن فقد كرامته الشخصية ونام بجانب جيفه في نفس السرير. مَن انتظر أن يموت جاره حتى يأخذ منه ربع وجبة الخبز، مع أنه ليس مذنباً، فقد ابتعد عن الإنسانية أكثر مما فعل ذلك السادي الأكثر توحشاً والإنسان الأكثر بدائية.

قسم من وجودنا يسكن في نفوس القريبين منا. لذلك، فإن السبب لعدم الإنسانية عند مَن عاشوا هناك في تلك الأيام. كان أن الإنسان كان مجرد شيء أو حاجة ليس فقط في نظر غيره. لذلك فنحن ممتنون أحدنا للآخر، لذلك صداقتي مع شارل ستصمد بكل يقين. في امتحان الزمن.

آلاف الأمتار فوقنا، بين الغيوم الغبراء كانت معركة طائرات رائعة. فوق رؤوس مجموعة من البشر الذين بلا حماية، بلا قوة، وعراة، سعى أبناء عصرنا أن يقتل أحدهما بأدوات متطورة. أن يقتلوا الألوف، بينما قوة جميعنا معاً لا تكفي لتطيل ولو بدقيقة واحدة، حياة إنسان واحد من بيننا.

ضجيج المعارك الجوية هدأ في الليل، وفي الغرفة سُمع فقط مونولوج ساموغيه.

فجأة استيقظت من نومي. حولي ظلام عميق L'pauv vieux[58] صمت. عاد إلى ترابه. مع خروج روحه، سقط عن السرير. سمعت ركبتيه وكتفيه ورأسه تلاطم الغرفة.

"La mort l'a chassé de son lit"[59] قال آرثور.

واضح أننا لم نتمكن أن ننقله إلى الخارج في الليل. كل ما كان بإمكاننا أن نفعله هو أن ننام.

---

[58] بالفرنسية العجوز المسكين.

[59] بالفرنسية: الموت طرده من سريره.

السابع والعشرون من كانون الثاني: الفجر. على أرض الغرفة أعضاء أجسام، قذرة.

هناك أعمال مستعجلة أكثر من الاهتمام بجثة. لأننا لا يمكننا أن نغتسل ممنوع أن نمس الجثة، قبل أن نطبخ ونأكل.

بالإضافة لهذا يقول شارل:

rien de si dégoûtant que les débordements[60]...

يجب أن نُخْرِج الدلو، الاهتمام بالأحياء أكثر إلحاحاً من الاهتمام بالأموات. الأموات بإمكانهم أن ينتظروا. لنشمِّر عن سواعدنا ، كما في كل يوم..

الروس وصلوا عندما حملنا شارل وأنا ساموغيه على بعدٍ ما من الصريفة. جثته كانت خفيفة جداً. قلبنا الحمّالة فوق الثلج الأغبر.

شارل خلع قبعته. تأسفت لأنه لم يكن معي غطاء لرأسي.

ساموغيه كان الوحيد من بين الأحد عشر في قسم الأمراض المعدية الذي مات في الأيام العشرة . سرطليط، طوبروفسكي، ليكاماكر، ودورغا (لم أقص عنه شيئاً، رجل أعمال من فرنسا الذي بعد أن أجريت له عملية في قسم الهضم مرض بالدفتيريا) كلهم ماتوا بعد عدة أسابيع في عيادات ميدانية أقامها الروس في أوشفتس.

في كاتوفتش التقيت في نيسان شانك والكلاي اللذين كانا في صحة معقولة. آرثور وجد عائلته واصل العمل في مهنته، التعليم. كتبنا أحدنا للآخر رسائل طويلة وأنا آمل أن أراه في يوم من الأيام

انتهى

---

[60] بالفرنسية: لا شيء مقرف أكثر من بقايا جسم ملقى على الضفاف.

شراكة من أجل حوار الثقافات
مكتبة علاء الدين ومنشورات لومنوسكري

تهدف الشراكة القائمة بين منشورات لومنوسكري ومكتبة علاء الدين إلى إطلاق حوار يرتكز على معرفة الآخر وإحترامه وعلى رفض نزاعات الذاكرة وإنكار المحرقة النازّية. ونأمل من خلال إنشاء مكتبة رقمية مُتعددة اللغات تضع معلومات تاريخية وثقافية في تصرّف الجميع، بالمساهمة في بناء الجسور بين مُختلف الثقافات.

ومنذ العام 2001، أطلقت منشورات لومنوسكري من خلال برنامجها المُميّز مساحة إصدار جديدة تدخل ضمن إطار النشر.

وتُؤمّن منشورات لومنوسكري من خلال مهارة فريدة توفّق بين ثقافة النشر التقليدية وإستخدام الإبتكارات التكنولوجية الكبرى، توفّر مُستمر للكتب بشكليها الورقي والرقميّ وذلك بهدف تسهيل عملية النشر التي تُدخل الكتاب في ثقافة التنمية المُستدامة.

ويقترح فهرس مفتوح على مُختلف ميادين النشر (أدب عام وبحوث جامعيّة وأوروبا...)، حوالى 7000 مرجعا كما يضُمّ 5000 مؤلّف صدرت كتبهم في اللغات كافة. إضافة إلى ذلك يحمي كل من قانون الملكية الفكرية وحقوق المؤلفّ، كلّ الكُتب المتوفّرة. كما تنشر منشورات لومنوسكري بالتعاون مع لجان القراءة المُتخصصة، سلسلات مهمّة من الكتب بالإشتراك مع الجامعات ومراكز البحوث والمؤسسات والجمعيات والفاعلين في المجتمع المدنيّ.

ويقترح الموقع الإلكتروني الديناميكي والمُتجدّد قاعدة من المضامين التفاعلية من خلال الوصول المجانيّ إلى المنشورات كما يجمع حول مدونّات المؤلفين الإلكترونية، مصادر معلومات تتعلّق بالحياة الثقافيّة فضلا عن مساحة لقاء مميّزة تضمّ مؤلفين وقُراء وشُركاء ناشطين.

ويُشار أخيرا إلى أن منشورات لومنسكري هي عضو في نقابة النشر الوطنيّة الفرنسية.

www.manuscrit.com

communication@manuscrit.com

Tel : +33 (0)8 90 71 10 18

20, rue des Petits Champs

75002Paris